

أَحْسَنُ تَفْسِيرٍ لِلْقُرْآنِ بِفَيْضٍ مِّنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ

مَعْنَى الْمَلَائِكَةِ فِي تَفْسِيرِ الْقُرْآنِ

الجزء الثاني والتسعون بعد المائة
الصلة بين الآية ١٨٠ والآية ١٨١ من سورة آل عمران

المرجع الديني للمسلمين
الشيخ صالح آل صالح
أسواق الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

المقدمة

الحمد لله الهادي إلى سواء السبيل ، اللطيف في حكمه ، والذي يجذب الناس إلى منازل الإيمان بالمعجزة والبرهان وتوالي النعم ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَإِنْ تَعَدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١) وجوه :

الأول : توالي النعم نعمة عظيمة .

الثاني : تعاقب بين نعمتين هو نعمة عظيمة غيرهما .

الثالث : فضل الله بالنعم لتكون وسيلة لجذب الناس للهدى والإيمان ، وهو سبحانه ﴿لَفَنِي عَنْ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) .

الرابع : كل برهان سماوي أو أرضي أو نبوي ومن اللطف الإلهي أن هذه النعمة مصاحبة لأجيال الناس في مشارق الأرض ومغاربها لنعمة الكواكب والشمس والقمر ، ونعمة التنزيل والنبوة ، قال تعالى ﴿وَكَانَ مِنْ آيَاتِهِ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾^(٣) ، وكل واحدة منها تدل على الأخرى من غير أن يلزم الدور .

الحمد لله الذي جعل الدنيا دار إختبار لتكون مزرعة للآخرة في جنبي الصالحات للمكث الدائم في نعيم الخلد في أمن وسلامة من إغواء الشيطان

(١) سورة النحل ١٨ .

(٢) سورة العنكبوت ٦ .

(٣) سورة يوسف ١٠٥ .

وواقية من الفزع والخوف والحزن ، قال تعالى ﴿وَقَالُوا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَذْهَبَ
عَنَّا الْحَزْنَ إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ﴾^(١).

الحمد لله الذي أحب الناس وخصهم بأن رزقهم الخلافة في الأرض
إلى يوم القيامة لتتطلع الخلائق إلى شكر الناس لله عز وجل على نعمة
الخلافة ، فأمد الله عز وجل الناس بأسباب ومقدمات الشكر له التي لا
تختص بصيغ قولية أو فعلية ، وكما أن لكل إنسان بصمات أصابع وعين
وأذن خاصة به فإن لكل عبد حبلاً ومسلكاً خاصاً لشكره لله تعالى إلى
جانب سبل الشكر العام التي قربها الله عز وجل من الناس ، وكل فرد من
هذه البصمات والمسالك من مصاديق قوله تعالى ﴿سُرِّبَهُمْ آيَاتُنَا فِي الْأَفَاقِ
وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَبَيِّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَّلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ
شَهِيدٌ﴾^(٢).

وهل أداء الفرائض والعبادات من الشكر لله عز وجل ، الجواب نعم.
وهو من أسنى وأبهى مصاديق الشكر ، ففرض الله عز وجل الصلاة
والصوم والزكاة والحج والخمس ليؤديها الناس فتكتب عند الله عز وجل
شكراً له سبحانه إلى جانب مصاديق الأجر والثواب العظيم فيها ، ويتجلى
هذا المعنى في قوله تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيْ النُّهَارِ وَزُلْفًا مِنْ اللَّيْلِ إِنَّ
الْحَسَنَاتِ﴾^(٣).

(١) سورة فاطر ٣٤.

(٢) سورة فصلت ٥٣.

(٣) سورة هود ١١٤.

و(عن عبد الله بن مسعود قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تحترقون ، فإذا صليتم الصبح غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم الظهر غسلتها .

ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العصر غسلتها ، ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم المغرب غسلتها .

ثم تحترقون تحترقون فإذا صليتم العشاء غسلتها ، ثم تنامون فلا يكتب حتى تستيقظوا) ^(١) .

وقال تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا ﴾ ^(٢) أي أن الزكاة تطهير من دنس الخطايا واغتسال من الذنوب وبداية صفحة مشرقة جديدة في الحياة الشخصية والعامة ، وجاءت الآيتان اللتان اختص هذا الجزء بالصلة بينهما بخصوص وجوب الزكاة ، وظلم الممتنعين عنها لأنفسهم .

الحمد لله الذي جعل الدنيا دار اختبار وامتحان ، ونوع طريق ومزرعة لعالم الآخرة الذي يبدأ من القبر إذ يأتي المملكان منكر ونكير للحساب الابتدائي حالما يدخل العبد القبر فتكون كل فريضة عبادية واقية له .

وعن أنس بن مالك : إذا وضع الميت في قبره ، وتولى عنه أصحابه ، وإنه ليسمع خفق نعالهم ^(٣) ، أتاه ملكان ، فيقعدانه ، فيقولان : ما كنت تقول في هذا الرجل ، يعني محمدا صلى الله عليه وآله وسلم ، فأما المؤمن فيقول : أشهد أنه عبد الله ورسوله ، فيقال له : انظر إلى مقعدك من النار قد أبدلك الله به مقعدا من الجنة ، فيراهما جميعاً ^(٤) .

(١) الدر المنثور ٣٥٨/٥ .

(٢) سورة التوبة ١٠٣ .

(٣) خفق النعل : صوته حين يقع على الأرض .

(٤) الطبراني / المعجم الأوسط ٣٠٠/١٥ .

ومن خصائص أداء العبد للفرائض حضورها معه في القبر ويكون لها لسان تكلم به ملائكة القبر ، لتدفع عنه وليرفقا به ، فكل فريضة شاهد كريم حاضر في الشدائد والنوائب ، ويرجع الناس عن الذي يودع في لحده ، ولكن عمله لا يرجع معهم ، ويأبى إلا مصاحبته فاذا كان عملاً صالحاً صار حرزاً وواقية وسلاحاً وشفيعاً وإذا كان سيئاً أصبح وبالاً عليه ، وشاهداً عليه ، وليس شاهداً له .

وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الميت إذا وضع في قبره إنه يسمع خفق نعالهم حين يولون عنه ، فإن كان مؤمناً ، كانت الصلاة عند رأسه ، وكان الصيام عن يمينه ، وكانت الزكاة عن شماله ، وكان فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس عند رجله ، فيؤتى من قبل رأسه^(١).

فتقول الصلاة : ما قبلي مدخل ، أي لا يأتيهم من جهة الرأس أذى أو عذاب .

ثم يؤتى عن يمينه ، فيقول الصيام : ما قبلي مدخل .
ثم يؤتى عن يساره ، فتقول الزكاة : ما قبلي مدخل ، ثم يؤتى من قبل رجله ، فتقول فعل الخيرات من الصدقة والصلة والمعروف والإحسان إلى الناس : ما قبلي مدخل .

فيقال له : اجلس فيجلس ، وقد مثلت له الشمس وقد أدنيت للغروب .

فيقال له : رأيته هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ، وماذا تشهد به عليه ، فيقول : دعوني حتى أصلي ، فيقولون : إنك ستفعل ، أخبرنا عما نسألك عنه ، رأيته هذا الرجل الذي كان فيكم ما تقول فيه ، وماذا تشهد عليه .

(١) تأتيه أسباب الأذى والعذاب الابتدائي .

فيقول : محمد أشهد أنه رسول الله ، وأنه جاء بالحق من عند الله ، فيقال له : على ذلك حييت وعلى ذلك مت ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله .

ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقال له : هذا مقعدك منها ، وما أعد الله لك فيها ، فيزداد غبطة وسرورا ، ثم يفتح له باب من أبواب النار، فيقال له : هذا مقعدك منها وما أعد الله لك فيها لو عصيته ، فيزداد غبطة وسرورا .

ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً^(١) ، وينور له فيه.

(١) والذراع نحو خمسين سنتماً ، وفي رواية وفي ذات الكتاب ثم يفسح له في قبره سبعون ذراعاً في سبعين ذراعاً / صحيح ابن حبان ٢٢٨/١٣ ، وكذا في سنن الترمذي ٣٨٣/٣ وفي خبر عن أبي هريرة ، ويمد له قدامه سبعون ذراعاً في قبره كما في تهذيب الأثر للطبري ٢٢٠/٢ .

وورد عن الإمام الصادق عليه السلام أنه يمد للميت في قبره مدّ بصره البحار ٢٢٢/٦ . وهل تشمل سعة القبر أو ضغطته والحساب الابتدائي في القبر النساء.

الجواب نعم لوحدة الموضوع في تنقيح المناط بين الرجال والنساء واتحاد التكاليف في الجملة وفي المرسل عن الإمام جعفر الصادق قال (عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لما ماتت فاطمة بنت أسد ام أمير المؤمنين، جاء علي إلى النبي صلى الله عليه واله، فقال له رسول الله صلى الله عليه واله: يا أبا الحسن مالك.

قال: امي ماتت، قال: فقال النبي صلى الله عليه واله: وامي والله، ثم بكى.

وقال: واماه ثم قال لعلي عليه السلام: هذا قميصي فكفنها فيه، وهذا ردائي فكفنها فيه، فإذا فرغتم فأذنوني، فلما اخرجت صلى عليها النبي صلى الله عليه واله صلاة لم يصل قبلها ولا بعدها على أحد مثلها.

ثم نزل على قبرها فاضطجع فيه.

ثم قال لها: يا فاطمة ! قالت: لبيك يا رسول الله، فقال: فهل وجدت ما وعد ربك حقاً ؟ قالت: نعم فجزاك الله خيراً جزاء، وطالت مناجاته في القبر، فلما خرج قيل: يا رسول الله لقد صنعت بها شيئاً في تكفينك إياها ثيابك، ودخولك في قبرها، وطول مناجاتك، وطول صلاتك، ما رأي أنك صنعتها بأحد قبلها.

ويعاد الجسد لما بدأ منه ، فتجعل نسمة في النسم الطيب وهي طير يعلق في شجر الجنة ، قال : فذلك قوله تعالى ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الْآخِرَةِ﴾^(١) ، إلى آخر الآية.

قال : وإن الكافر إذا أتى من قبل رأسه ، لم يوجد شيء ، ثم أتى عن يمينه ، فلا يوجد شيء ، ثم أتى عن شماله ، فلا يوجد شيء ، ثم أتى من قبل رجله ، فلا يوجد شيء.

فيقال له : اجلس ، فيجلس خائفا مرعوبا ، فيقال له : أرأيتك هذا الرجل الذي كان فيكم ماذا تقول فيه ، وماذا تشهد به عليه ، فيقول : أي رجل.

فيقال : الذي كان فيكم ، فلا يهتدي لاسمه حتى يقال له : محمد. فيقول : ما أدري ، سمعت الناس قالوا قولا ، فقلت كما قال الناس. فيقال له : على ذلك حييت ، وعلى ذلك مت ، وعلى ذلك تبعث إن شاء الله.

ثم يفتح له باب من أبواب النار ، فيقال له : هذا مقعدك من النار ، وما أعد الله لك فيها ، فيزداد حسرة وثبورا ، ثم يفتح له باب من أبواب الجنة ، فيقال له : ذلك مقعدك من الجنة ، وما أعد الله لك فيه لو أطعته

قال : أما تكفيني إياها فإني.

لما قلت لها : يعرض الناس يوم يحشرون من قبورهم فصاحت. وقالت واسوأناه : فلبستها ثيابي وسألت الله في صلاتي عليها أن لا يبلي أكفانها حتى تدخل الجنة فأجابني إلى ذلك.

وأما دخولي في قبرها فإني قلت لها يوما : إن الميت إذا دخل قبره وانصرف الناس عنه دخل عليه ملكان : منكر ونكير فيسألانه ، فقالت : واغوثاه بالله ، فما زلت أسأل ربي في قبرها حتى فتح لها باب من قبرها إلى الجنة فصار روضة من رياض الجنة (البحار ٦/٢٢٢).

(١) سورة ابراهيم ٢٧.

فيزداد حسرة وثبورا ، ثم يضيق عليه قبره حتى تختلف فيه أضلاعه ، فتلك المعيشة الضنكة التي قال الله ﴿ فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى ﴾ (١) (٢).

وقد أختص هذا الجزء بالصلة بين الآية (١٨٠) والآية (١٨١) من سورة آل عمران ، وتتضمن كل واحدة منها ذم الذين يخلون بالحقوق الشرعية ، ويمتنعون عن أداء الزكاة جحوداً واستكباراً ليلاقوا عذاب القبر وشدة وطأته .

الحمد لله الذي جعل الحياة الدنيا دار الحمد والشكر له سبحانه ، وينقطع عمل ابن آدم بمغادرته الدنيا إلا الشكر لله سبحانه فإنه يكون على وجوه :

الأول : دخول شكر العبد لله عز وجل في الدنيا إلى القبر ، ليكون برفقته في عالم البرزخ ، بلحاظ كبرى كلية وهي أن الشكر لله من العمل الصالح .

الثاني : النفع العظيم للشكر لله عز وجل بالنجاة في الحساب الابتدائي لمنكر ونكير .

الثالث : الشكر لله حرز وواقية في موطن يوم الحشر والحساب ، قال تعالى ﴿ وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مَبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ فَمَنْ آمَنَ وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ (٣).

(١) سورة طه ١٢٤.

(٢) صحيح ابن حبان ٢٢٠/١٣.

(٣) سورة الأنعام ٤٨.

ومن خصائص الشكر لله عز وجل أنه مصداق للإيمان والصلاح فإن قلت الشكر لله عز وجل لفظ وفعل ذاتي ، فكيف يكون إصلاحاً الجواب من جهات :

الأولى : الشكر لله شاهد على الإيمان ، وقد ورد على لسان سليمان النبي ﴿ وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ ﴾ ^(١) ولم يرد لفظ ﴿أَوْزِعْنِي﴾ في القرآن إلا مرتين.

والآية الثانية قوله تعالى ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنْسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفَصَالُهِ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٢).

ومعنى ﴿أَوْزِعْنِي﴾ أي الهمني ووفقني وأزح عني الموانع التي قد تحول دون الشكر لله ، لذا لما شغلت الخيل الجياد سليمان عن صلاة النافلة التفت وقال ﴿أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ﴾ إذ ورد في التنزيل ﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُدَ سُلَيْمَانَ نِعَمَ الْعَبْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾ * إِذْ عَرَضَ عَلَيْهِ بِالْعَشِيِّ الصَّافِنَاتُ الْجِيَادُ * فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ * رُدُّوهَا عَلَيَّ

(١) سورة النمل ١٩.

(٢) سورة الأحقاف ١٥.

﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾^(١) وفي قوله تعالى ﴿فَطَفِقَ مَسْحًا بِالسُّوقِ وَالْأَعْنَاقِ﴾ وجهان:

الأول : أنه أخذ يمسح على عراقيبها وأعناقها لفرط حبه لها قالها ابن عباس^(٢).

الثاني : لأنه انشغل بها عن الصلاة ضرب أعناقها ، وهو جائز لأنها من مأكولة اللحم والمختار هو الأول.

(غَزَا سُلَيْمَانُ أَهْلَ دِمَشْقَ وَنَصِييْنِ وَأَصَابَ أَلْفَ فَرَسٍ وَقِيلَ : أَصَابَهَا أَبُوهُ مِنَ الْعِمَالِقَةِ فَوَرِثَهَا مِنْهُ وَقِيلَ : خَرَجْتُ مِنَ الْبَحْرِ لَهَا أَجْنَحَةٌ فَقَعَدَ يَوْمًا بَعْدَ مَا صَلَّى الظُّهْرَ عَلَى كُرْسِيِّهِ فَاسْتَعْرَضَهَا فَلَمْ تَزَلْ تُعْرَضُ عَلَيْهِ حَتَّى غَرَبَتِ الشَّمْسُ وَغَفَلَ عَنِ الْعَصْرِ أَوْ عَنْ وَرْدِ كَانِ لَهُ مِنَ الذِّكْرِ وَقَتْنُذٍ وَتَهْيِيؤِهِ فَلَمْ يَعْلَمْهُ فَاعْتَمَ لَمَّا فَاتَهُ فَاسْتَرَدَّهَا فَعَقَرَهَا تَقَرُّبًا لِلَّهِ تَعَالَى وَبَقِيَ مَائَةٌ فَمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ مِنَ الْجِيَادِ فَمَنْ نَسَلَهَا وَقِيلَ : لَمَّا عَقَرَهَا أَبَدَلَهُ اللَّهُ خَيْرًا مِنْهَا وَهِيَ الرِّيحُ تُجْرِي بِأَمْرِهِ ﴿فَقَالَ إِنِّي أَحْبَبْتُ حُبَّ الْخَيْرِ عَنْ ذِكْرِ رَبِّي﴾^(٣) ، قاله عليه الصلاة والسلام عند غروب الشمس اعترافاً بما صدر عنه من الاشتغال بها عن الصلاة وندماً عليه وتمهيداً لما يعقبه من الأمر بردها وعقرها^(٤).

الثانية : الشكر لله صلاح للذات وتهذيب للسان ، وذكر الله عز وجل بصيغة الشاء مع الإقرار بعظيم فضله سبحانه ، ليكون من معاني الزيادة في

(١) سورة ص ٣٣.

(٢) النكت والعيون ٤٩١/٣.

(٣) سورة ص ٣٢.

(٤) تفسير أبي السعود ٤٧٧/٥.

قوله تعالى ﴿لَئِنْ شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ﴾^(١) الزيادة في الشكر وحسن المنطق والمندوحة في الوقت ، ومقدمات الشكر لله وضروب العبادة ، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْدَهُ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(٢).

وعن عبد الله بن بسر ، أن أعرابياً قال لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن شرائع الإسلام قد كثرت علي فأنبئني بشيء أتشبث به ، فقال : لا يزال لسانك رطبا من ذكر الله^(٣).

الثالثة : إنه إصلاح للنفس وعصمة من الزلل.

الرابعة : الشكر لله من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

الخامسة : قيام العبد بالشكر لله حضاً للآخرين لمحاكاته .

السادسة : الشكر لله عز وجل دعوة للناس للتدبر في النعم الإلهية ، والآيات الكونية التي سخرها الله عز وجل للأجيال المتعاقبة ، قال تعالى ﴿وَسَخَّرَ لَكُم مَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مِنْهُ إِنْ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤).

السابعة : إختيار الشكر لله عز وجل تنمية للملكة الشكر عند العباد فهو هداية ، ودعوة للرشاد.

(١) سورة ابراهيم ٧.

(٢) سورة الأنعام ٩٠.

(٣) المستدرک علی الصحيحین ٢٦٩/٤.

(٤) سورة الجاثية ١٣.

وسياتي قانون (الأنبياء أئمة في الشكر) وقد اثنى الله عز وجل على نوح فقال ﴿إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا﴾^(١)، ومدح إبراهيم فقال تعالى ﴿شَاكِرًا لِّأَنْعَمِهِ اجْتَبَاهُ وَهَدَاهُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾^(٢).

وعن ابن مسعود عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من أعطى أربعاً أعطي أربعاً ، وتفسير ذلك في كتاب الله من أعطي الذكر ذكره الله لأن الله يقول {اذكروني أذكركم}^(٣).

ومن أعطي الدعاء أعطي الإجابة لأن الله يقول {ادعوني أستجب لكم}^(٤)، ومن أعطي الشكر أعطي الزيادة لأن الله يقول {لئن شكرتم لأزيدنكم}^(٥)، ومن أعطي الاستغفار أعطي المغفرة لأن الله يقول {استغفروا ربكم إنه كان غفاراً}^{(٦)(٧)}.

وأخرج عن أبي الجلد قال : قرأت في مَسَاءَلَةِ داود عليه السلام أنه قال: أي رب كيف لي أن أشكرك ، وأنا لا أصل إلى شكرك الا بنعمتك؟ قال : فأتاه الوحي : إن يا داود أليس تعلم أن الذي بك من النعم مني؟ قال : قال داود عليه السلام : إلهي لو أن لكل شعرة مني لسانين يسبحانك الليل والنهار والدهر كله ، ما قضيت حق نعمة واحدة من نعمك علي^(٨).

(١) سورة الإسراء ٣.

(٢) سورة النحل ١٢١.

(٣) سورة البقرة ١٥٢.

(٤) سورة غافر ٦٠.

(٥) سورة إبراهيم ٧.

(٦) سورة نوح ١٠.

(٧) الدر المنثور ١/٢٩٦.

(٨) الدر المنثور ٨/٢٢٥.

وأخرج أحمد والبيهقي في شعب الإيمان عن المغيرة بن عتبة^(١)، قال : قال داود عليه السلام : يا رب هل بات أحد من خلقك الليلة أطول ذكراً لك مني ، فأوحى الله إليه : نعم . الضفدع ، وأنزل الله تعالى على داود عليه السلام {اعملوا آل داود شكراً}^(٢).

فقال داود عليه السلام : يا رب كيف أطيق شكرك وأنت الذي تنعم علي ثم ترزقني على النعمة الشكر . فالنعمة منك ، والشكر منك ، فكيف أطيق شكرك، قال : يا داود الآن عرفتني حق معرفتي^(٣).

الثامنة : في الشكر لله عز وجل حجة على الذين كفروا والذين امتنعوا عن دفع الزكاة وقالوا (إن الله فقير) .
ويحتمل زمان هذه الحجة وجوهاً :

الأول : إنه حجة على الذين كفروا أيام التوجه بالشكر لله عز وجل .

الثاني : إنه حجة على الذين كفروا في عالم الدنيا .

الثالث : فيه حجة عليهم في عالم الآخرة.

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَقَالُوا لَجُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٤)، الجواب نعم ، من جهات :

الأولى : تشهد حاسة السمع عند الكافر على سماعها الشكر لله عز وجل من الناس ، وهو من أسرار تلاوة كل مسلم ومسلمة القرآن في الصلوات اليومية الخمس فيسمع الناس المسلم يتلوها وهو في حال خشوع

(١) المغيرة بن عتبة بن النهاس وقيل النحاس من أهل الكوفة يروي عن سعيد بن جبيرة جبيرة وموسى بن طلحة.

(٢) سورة سبأ ١٣.

(٣) الدر المنثور ٢٢٥/٨.

(٤) سورة فصلت ٢١.

وخضوع فتكون هذه التلاوة موعظة وحجة عليهم ، ودعوة للإيمان ، قال تعالى ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدَاهُمْ أَقْتَدِهْ قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾^(١).

الثانية : ميل النفس نفس ذات الكافر إلى الشكر لله عز وجل لولا غلبة النفس الشهوية وتزيين الشيطان لسوء الفعل.

الثالثة : يشهد جلد الكافر على قوله (إن الله فقير) وعلى امتناعه عن إعانة الفقراء.

الحمد لله الذي جعل الشكر له سبحانه مدرسة الحياة الدنيا ، والصراط المستقيم في الدنيا ، لذا أنعم الله عز وجل على المسلمين بتلاوة قوله تعالى ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٢) سبع عشرة مرة في اليوم واليلة بتلاوة سورة الفاتحة في كل ركعة على نحو الوجوب العيني على كل مكلف ذكراً كان أو أنثى .

وهل تلاوة المسلم القرآن في الصلاة من الشكر لله عز وجل أم أنه واجب وقد لا تتضمن الآية القرآنية لفظ الشكر والحمد لله .
الجواب هو الأول ، فكل تلاوة لكلمة من القرآن هو من الشكر لله عز وجل.

وقد تفضل الله عز وجل وجعل بقراءة كل حرف من القرآن عشر حسنات إذ ورد عن عوف بن مالك عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم من قرأ حرفاً من القرآن كتب الله له به حسنة . لا أقول {بسم الله}^(٣) ،

(١) سورة الأنعام ٩٠.

(٢) سورة الفاتحة ٦.

(٣) سورة الفاتحة ١.

ولكن باء ، وسين ، وميم ، ولا أقول {الم} ^(١) ولكن الألف ، واللام ، والميم ^(٢).

وفي الحديث أعلاه شاهد على أن البسملة آية من القرآن بدليل ذكر النبي (بسم الله) ولا يضر بهذا الإستقراء ورود ﴿بِسْمِ اللَّهِ مَجْرَاهَا وَمُرْسَاهَا﴾ ^(٣) ، لأن البسملة أقرب في الإستدلال ويدل عليه قوله صلى الله عليه وآله وسلم و(الم) أي في أول سورة البقرة وما فيه من الترغيب وليس البسملة من سورة الفاتحة وحدها.

ومن الإعجاز تضمن آيات سورة الفاتحة الشكر لله عز وجل ، وعن الإمام علي عليه السلام قال : فاتحة الكتاب أعطاه الله محمدا صلى الله عليه وآله وأمه ، بدأ فيها بالحمد والثناء عليه ، ثم ثنى بالدعاء لله عز وجل : ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول : قال الله عز وجل : قسمت الحمد بيني وبين عبدي : فنصفها لي ، ونصفها لعبدي ، ولعبدي ما سأل ، إذا قال العبد : (بسم الله الرحمن الرحيم) ^(٤) قال الله عز وجل : بدأ عبدي باسمي حق علي أن أتم له أموره ، وأبارك له في أحواله . فإذا قال : (الحمد لله رب العالمين) ^(٥) قال الله عز وجل : حمد لي عبدي ، وعلم أن النعم التي له من عندي ، والبلايا التي اندفعت عنه بتطولي ، أشهدكم أنني أضعف له نعم الدنيا إلى نعيم الآخرة ، وأدفع عنه بلايا الآخرة ، كما دفعت عنه بلايا الدنيا.

(١) سورة البقرة ١.

(٢) الدر المنثور ١/١٥.

(٣) سورة هود ٤١.

(٤) سورة الفاتحة ١.

(٥) سورة الفاتحة ٢.

فإذا قال (الرحمن الرحيم) ^(١) قال الله عز وجل: شهد لي بأني الرحمن الرحيم اشهدكم لاوفرن من رحمتي حظه، ولاجزلن من عطائي نصيبه، فإذا قال (مالك يوم الدين) ^(٢) قال الله عز وجل: اشهدكم كما اعترف بأني أنا المالك ليوم الدين، لاسهلن يوم الحساب حسابه، ولا تقبلن حسناته، ولا تجاوزن عن سيئاته. فإذا قال العبد: (إياك نعبد) قال الله عز وجل: صدق عبدي إياي يعبد، لاثنين عن عبادته ثوابا يغبطه كل من خالفه في عبادته لي، فإذا قال (وإياك نستعين) ^(٣) قال الله عز وجل بي استعان وإلى التجأ، اشهدكم لاعينته على أمره ولاغيثه في شدايده، ولاخذن بيده يوم القيامة عند نوائبه.

وإذا قال (اهدنا الصراط المستقيم) ^(٤)، إلى آخرها، قال الله عز وجل: هذا لعبدي ولعبدي ما سأل، قد استجبت لعبدي، وأعطيته ما أمل، وآمنت به مما منه وجل. قيل: يا أمير المؤمنين أخبرنا عن (بسم الله الرحمن الرحيم) أهي من فاتحة الكتاب.

قال: نعم، كان رسول الله صلى الله عليه وآله يقرأها ويعدها آية منها، ويقول: فاتحة الكتاب هي السبع المثاني، فضلت ببسم الله الرحمن الرحيم، وهي الآية السابعة منها ^(٥).

الحمد لله الذي علم بالقلم ليكون هذا التعليم نوع طريق لتوارث سنن العبادة لله عز وجل، وسيلاً للهداية والصلاح، وفي قوله تعالى ﴿الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ﴾ ^(١)، من جهة التقدير وجوه.

(١) سورة الفاتحة ٣.

(٢) سورة الفاتحة ٤.

(٣) سورة الفاتحة ٦.

(٤) سورة الفاتحة ٦.

(٥) البحار ٥٩/٨٢.

الأول : علم الله بالقلم آدم وذريته .

الثاني : الله الذي علم بالقلم نعمة منه تعالى .

الثالث : الله الذي علم بالقلم لتسخير الموجودات .

الرابع : الله الذي علم بالقلم لتدوين كتب التنزيل .

ولم يغادر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحياة الدنيا إلا وقد جمع القرآن في القرآن والجلد وجرائد النخل والسعف ونحوها ، (عن أنس قال: جمع القرآن على عهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم أربعة، كلهم من الأنصار؛ أبي بن كعب، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد. ف قيل له: من أبو زيد؟ قال: أحد عمومتي. وفي لفظ للبخاري عن أنس قال: مات النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يجمع القرآن غير أربعة؛ أبو الدرداء، ومعاذ بن جبل، وزيد بن ثابت، وأبو زيد، ونحن ورثناه.

وأبو زيد هذا ليس بمشهور؛ لأنه مات قديماً، وقد ذكره في أهل بدر، وقال بعضهم: سعيد بن عبيد. ومعنى قول أنس: "ولم يجمع القرآن". يعني من الأنصار سوى هؤلاء، وإلا فمن المهاجرين جماعة كانوا يجمعون القرآن^(١) ومنهم الإمام علي عليه السلام وعبد الله بن مسعود .

لقد أراد المشركون الطعن والتشكيك بالفرائض العبادية وصدّ الناس عن إتيانها ، فلم يكتفوا بالإمتناع عن دفع الزكاة إنما أظهروا السخرية ، وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ يريدون بهذا الإستخفاف بالتنزيل فكانهم يسألون سؤالاً أنكارياً وهو كيف ينزل الله كتاباً يقول فيه أنه فقير وأنه يسألنا أن نقرضه ، إنما يجب أن يزيد علينا بالرزق والأموال وييقينا أغنياء ويعطي الفقراء من فضله ، وتناسوا أن آيات من القرآن تأمر بدفع الزكاة الواجبة

(١) سورة العلق ٤.

(٢) تفسير ابن كثير ١/٢٤٠.

والمستحبة والعامة كزكاة الأموال والخاصة كزكاة الفطر ، وإن كلمة القرض تذكير بالآخرة والحساب فيها ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(١).

لقد أرادوها فتنة بالسعي إلى إرتداد بعض المسلمين فالآية من مصاديق قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تَطِيعُوا الَّذِينَ كَفَرُوا يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ فَتَنْقَلِبُوا خَاسِرِينَ﴾^(٢).

فمن إعجاز الجمع بين آيات القرآن فضح قول الظالمين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) وكيف أنه دعوة لإرتداد طائفة من المسلمين من جهات: الأولى : التشكيك بنزول آيات القرآن .

الثانية : الجدال والمغالطة في مضامين آيات القرآن ، فكيف يسأل الله القرض وله ملك السموات والأرض .

الثالثة : إرادة صرف المسلمين عن التدبر في إعجاز القرآن .
الرابعة : إخبار الظالمين بأنهم أغنياء ، ولو كانوا على الباطل لما كانوا أغنياء ، ولم يعلموا أن الدنيا دار امتحان ، وقال تعالى ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا آمُورُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَأَنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ﴾^(٤).

الخامسة : التعريض بالمسلمين الفقراء ، وكأنهم يقولون أن الأصل هو الملازمة بين الإيمان والغنى .

لقد تجلت للكفار حقيقة وهي توالي دخول الناس الإسلام ، وإزدياد عدد المسلمين والمسلمات يوماً بعد يوم ، فسارعوا إلى نعت النبي صلى الله

(١) سورة البقرة ٤٣.

(٢) سورة آل عمران ١٤٩.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة الأنفال ٢٨.

عليه وآله وسلم بأنه ساحر وأنه مجنون ومعلم ونحوها ، ثم تعدوا على التنزيل بصيغة الإستهزاء والتعريض ، وكأنهم يقولون : هل الله فقير واحتاج إلينا .

لقد أراد الكفار إثارة الفتن والهرج ، لذا ورد (عن معقل بن يسار قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : العمل في الهرج والفتنة كالهجرة إلي) ^(١).

وأصل الهرج الكثرة والإتساع ، وهو في الإصطلاح الشغب والغوغاء والفتنة ، وحصول الضرر العشوائي .

ليكون من معاني قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ^(٢) درء الفتنة من جهات :

الأولى : عصمة المسلمين من الإفتتان بقول الذين كفروا بأن الله فقير ، وما يفترونه على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والتنزيل ، لقد قال الذين كفروا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فنزل القرآن بدم هذا القول ، وفضح الذين كفروا ، وتحذير المسلمين من كل قول مريب يقولونه أو يقوله المنافقون .

الثانية : ذات تلاوة المسلمين لآيات القرآن واقية من الفتنة .

الثالثة : تفقه المسلمين في الدين ، ومعرفة ما يقوله الذين كفروا والجاحدون وخبث وسوء نواياهم .

الرابعة : عصمة المسلمين من الإرتداد .

ومن خصائص رسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الملازمة بين بين البعثة النبوية والأمر للناس بدخول الإسلام ، ويدل عليه إسلام خديجة في ذات يوم الاثنين الذي بعث فيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم

(١) المعجم الصغير / الطبراني ٧٢/٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

وإسلام الإمام علي عليه السلام في اليوم التالي ، لبيان صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم بمبادرة أقرب الناس إليه إلى دخول الإسلام ، وهل يدل كون أول من أسلم امرأة على أن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لم يبعث بالسيف والقتال ، الجواب نعم .

(عن زيد بن ارقم قال: كان أول من أسلم علي بن أبي طالب .

وعن ابن عباس قال: علي أول من أسلم بعد خديجة .^(١)

ومما يتصف به إسلام خديجة أمور :

الأول : مؤازرة خديجة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وشد عزيمته ، وتلقي الأحكام عنه بالقبول وبقاؤها قريبة منه في الليل والنهار .

الثاني : التخفيف عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم خاصة مع الأذى الذي يلقاه من قريش .

الثالث : إنفاق خديجة أموالها في الدعوة إلى الله ونصرة نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

(عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ جَعْفَرٍ بْنِ أَبِي طَالِبٍ قَالَ : قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ أَمَرْتُ أَنْ أُبَشِّرَ خَدِيجَةَ بَيْتٍ مِنْ قَصَبٍ لَا صَخَبَ فِيهِ وَلَا نَصَبٍ قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : الْقَصَبُ هَاهُنَا : اللَّؤْلُؤُ الْمَجُوفُ ، قَالَ ابْنُ هِشَامٍ : وَحَدَّثَنِي مَنْ أَثَقَّ بِهِ أَنَّ جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ أَتَى رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ أَقْرِئْ خَدِيجَةَ السَّلَامَ مِنْ رَبِّهَا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ يَا خَدِيجَةُ هَذَا جَبْرِيلُ يُقْرِئُكَ السَّلَامَ مِنْ رَبِّكَ فَقَالَتْ خَدِيجَةُ اللَّهُ السَّلَامُ وَمِنْهُ السَّلَامُ وَعَلَى جَبْرِيلَ السَّلَامُ)^(٢) .

الرابع : لقد كان لخديجة شأن ومنزلة رفيعة عند قريش رجالاً ونساءً ، خاصة مع عملها بالتجارة بصدق وكثرة أموالها فاسلامها دعوة لهم

(١) ذخائر العقبى / أحمد بن عبد الله الطبري ت ٦٩٤ هجرية ٥٥/١ .

(٢) الروض الأنف ٤١٤/١ .

للإسلام ، وزجر لرؤساء الكفر عن إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولا يعلم ما لمبادرة خديجة والإمام علي لدخول الإسلام من موضوعية في دخول الناس الإسلام ، وكف شطر من أذى قريش إلا الله عز وجل.

وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : أربع نسوة سيدات عالمهن : مريم بنت عمران ، وآسية بنت مزاحم ، وخديجة بنت خويلد ، وفاطمة بنت محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وأفضلهن عالماً فاطمة^(١).

وهل لمسارعة خديجة بتصديق النبي صلى الله عليه وآله وسلم ودخولها الإسلام وتحملها الأذى وشدة الحصار لإيمانها شأن في نيل هذه المرتبة الرفيعة الجواب نعم.

ومن اللطف الإلهي تقريب الناس لمنازل الإيمان بالحجة والبرهان ، وكل آية من القرآن من مصاديق هذا التقريب سواء بشارة أو إنذاراً ، أو بياناً لحكم أو أمراً أو نهياً.

ومنه قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلُهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ، الآية التي اختص بصلتها مع الآية السابقة لها هذا الجزء وهو التسعون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) لتكون إنذاراً من حبس الحقوق الشرعية ، وترغيباً بإخراج الزكاة والخمس ودفعها إلى المستحقين ، والله عز وجل غني عنها وعن أهلها ، ولكنها رحمة بالناس جميعاً ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ

(١) الدر المنثور ٣٢١/٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

وَالْمَسَاكِينَ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ^(١).

الحمد لله الغني الذي لا تنفذ خزائنه ، ينفق منها كيف يشاء ، وأمر الناس بالدعاء للرزق الكريم وللنهل منها ، قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(٢)، وقال تعالى ﴿وَلِلَّهِ خَزَائِنُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ﴾^(٣).

وهل يختص عدم الفقاهاة في المقام بالمنافقين ، الجواب لا إنما تشمل الكافرين والجاحدين الذين ذكرتهم آية البحث بالذم لقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) فالذي عنده خزائن السموات والأرض هو الذي ينفرد وحده بالغنى ، وإنما صار هؤلاء أغنياء بفضل من الله عز وجل . ولم يقيد الله عز وجل موضوع الدعاء ، ولم يجعل قيوداً ومقدمات للدعاء ، ولو دار الأمر بين الإستجابة الكلية أم الجزئية . فالصحيح هو الأول وهو من مصاديق الغنى المطلق لله عز وجل ، وهل يشمل الأمر من الله بالدعاء الذين قالوا : إن الله فقير ، أم أنهم خارجون بالتخصص ، الجواب هو الأول .

وهل توجههم بالدعاء إلى الله نسخ وقص لقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ . وهل يستجيب الله عز وجل لهم ، الجواب نعم ، وهذه الإستجابة من غناه سبحانه ، ودعوة للناس للتنزه عن التعدي في القول والفعل .

(١) سورة التوبة ٦٠ .

(٢) سورة المنافقون ٨ .

(٣) سورة التوبة ٦٠ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

الحمد لله الذي خلق الناس لعبادته ، وليعمروا الأرض بالذكر والتسبيح لطفاً منه تعالى بكل من:

الأول : الناس.

الثاني : الأرض.

الثالث : الملائكة والخلائق ، وأصلح الله عز وجل الجنة للمتقين الذين يخشون الله عز وجل بالغيب ليكونوا خالدين فيها ، وأعدّ النار للذين كفروا ومنهم الذين ذكرتهم آية البحث بقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَمَنْ خُنُّ أَعْيَاءٌ﴾.

الحمد لله الذي أنزل الكتب السماوية ، وكل كتاب يهدي الى الجنة وهو من مصاديق الصراط المستقيم ، وأنعم الله عز وجل على المسلمين والمسلمات بأن أنزل القرآن وأمر كل واحد منهم ذكراً أو أنثى بتلاوته سبع عشرة في اليوم واللييلة وعلى نحو الوجوب العيني.

لقد نزل القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ولم ينزل على غيره من البشر ، وكان الواسطة جبرئيل الملك لعظيم منزلته وشأنه عند الله ، قال تعالى ﴿نَزَّلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ﴾ * عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ^(١) ، أي على قلبك يا محمد وليس على قلب شخص آخر من أجيال الناس المتعاقبة في الأرض.

وأن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان في حال دفاع واضطرار وأن المعارك التي دفعها الله ورسوله ولم تقع أكثر من المعارك التي وقعت ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢).

(١) سورة الشعراء ١٩٣-١٩٤.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

ثم جاء هذا الجزء وهو الثاني والتسعون بعد المائة وهو خاص بالصلة بين الآية ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١)، والتي جاء الجزء التاسع والثمانون بعد المائة من تفسيرنا خاصاً بالبيان والتفسير لهذه الآية ومضامينها القدسية ، وبين الآية التالية لها وهو قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَنٌ أُغْنِيَاءُ سَنَكُتُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢).

في علم جديد بأن يختص جزء كامل في الصلة بين آيتين متجاورتين مع استقلال كل آية منهما في هذا السفر والتفسير بجزء خاص بها. وسيأتي الجزء التالي إن شاء الله خاصاً بتفسير الآية أعلاه. لقد صدرت عدة أجزاء في الصلة بين الآيات وهذه الأجزاء هي :

الأول : الجزء الخامس العشرون بعد المائة ويختص بصلة ١٥٢ التي قبلها.

الثاني : الجزء السادس والعشرون بعد المائة ويختص بصلة شطر من الآية ١٥٣ بشطر من الآية ١٥١.

الثالث : الجزء السابع والعشرون بعد المائة ويختص بصلة شطر من الآية ١٥٤ بشطر من الآية ١٥٣.

الرابع : الجزء الواحد والخمسون بعد المائة يختص بصلة شطر من الآية ١٦١ بشطر من الآية ١٦٤ .

ومن أسرار الصلة بين آية السياق وآية البحث إتحاد الموضوع والتباين في المرتبة بين الذين ذكرتهم آية السياق والذين ذكرتهم آية البحث ، إذ

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

تذكر آية السياق وبصيغة الذم الذين يسكون الحقوق الشرعية المتعلقة بهم وبيان عقوبتهم في الآخرة بصيرورة ما حبسوه من المال طوقاً في أعناقهم يوم القيامة ، أما آية البحث فقد تضمنت ذكر وتوثيق قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١) والنسبة بين الذين ذكرتهم الآيتين هي العموم والخصوص المطلق فأهل آية السياق أعم وأكثر .

وهل يمكن القول أن من (الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء)^(٢) ، يدفعون الزكاة والخمس ، ومع هذا فانهم يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣) الجواب لا دليل عليه ، بيان استحقاقهم الذم في القرآن ونزول العذاب بهم يوم القيامة .

ومن إعجاز القرآن وذات النسبة بين عقاب الذين ذكرتهم آية السياق والذين ذكرتهم آية البحث لبيان قانون وهو أن العذاب في الآخرة على حجم ومقدار المعصية قال تعالى ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا﴾^(٤) . ولعل بعض الذين بخلوا بالحق الشرعي من الذين ذكرتهم آية السياق صاروا سبباً للذين تعدوا في القول على مقام الربوبية من الذي ذكرتهم آية البحث ، ومع هذا فان الآية لم تذكر هذه السببية كعلة لإقامة الحجة على الذين كفروا أو لزيادة العقاب عليهم ، لأن الأصل والفطرة عدم افتتان الإنسان بالفعل الباطل والمعصية الظاهرة قال تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ﴾^(٥) ، (عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

(٤) سورة الأنعام ١٦٠ .

(٥) سورة البقرة ٢١٣ .

الله عليه وآله وسلم : كل مولد يولد على الفطرة حتى يعبر عنه لسانه ، فإذا عبر عنه لسانه إما شاكراً وإما كفوراً والله تعالى أعلم^(١).

وفي الحديث دلالة على موضوعية القول في تعيين سنخية الإنسان ، وقد قال الجاحدون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) وفيه دلالة على كفرهم .

فالأمر بالزكاة والإنفاق في سبيل الله جلي وبسيط بحيث يدركه كل انسان ، ومحاكاة الممتنع عن دفعها ليس سبباً لتخفيف العقاب إلا ان يشاء الله .

الحمد لله الذي رزق الإنسان العقل وجعله فيصلاً ، وآلة تلقي الخطاب السماوي ، وأنزل القرآن ليخاطب العقول والألباب ، وإذا أعرض العقل عن آية تنزل آيات متوالية لجذبه إلى منازل الهدى والإيمان ، وهو من أسرار نزول القرآن نجوماً وحسب الوقائع والأحداث .

وجاء هذا الجزء من التفسير لبيان الصلة بين آيتين كل واحدة منهما تتعلق بفعل صادر من الذين حبسوا الحقوق الشرعية ، وبخلوا بالجزء اليسير الذي جعله الله حقاً للفقراء ونوع أمانة شرعية في أموالهم .

وابتدأت آية البحث بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ

فَقِيرٌ﴾^(٣) مما يدل على أن نزول الآية الكريمة بعد صدور هذا القول منهم

والآية عون على تعيين أصحاب هذا القول من جهات :

الأولى : تعقب نزول آية البحث لصدور القول منهم ، ولو دار الأمر

بين تعقب نزول الآية لقوله ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) وبين الإرجاء وتأخر زمان

نزول الآية فالأصل هو الأول.

(١) الدر المنثور ١٠/١٦٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

الثانية : مناسبة الموضوع ، عند الدعوة إلى دفع الزكاة ، والحقوق الشرعية ، وأوان وجوب الزكاة ، ومنه مجئ السعاة لقبض الزكوات.

الثالثة : حاجة الفقراء لأموال الزكاة ، وهل في الآية تأليب للفقراء على الأغنياء ، الجواب لا ، وهو من إعجاز القرآن في بناء مجتمع آمن مستقر.

إذ يرضى الفقراء بمواساتهم من جهات :

الأولى : إخبار آية البحث بأن الله عز وجل قد سمع قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.

الثانية : نزول القرآن بكتابة قول الجاحدين بنعمة الله ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَنٌ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) وهذا النزول ظاهر في التخويف والوعيد.

الثالثة : مجئ القرآن بالدعوة والأمر لعموم المسلمين بالصبر ، وليس من حصر لموضوع الصبر إنما هو مطلق ويتغشى أيام الحياة ، ويمكن تسمية الدنيا بأنها (دار الصبر) وقد تقدم الكلام فيه ، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَتَازَعَوْا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رَیْحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾^(٣).

الرابعة : نزول القرآن بالإخبار عن عقوبة الذين جحدوا في الآخرة ، مع تعيين هذه العقوبة بما يبعث المواساة في قلوب الفقراء ، ويجعل الناس يمتنعون عن قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ من وجوه:

الأول : الأغنياء وأصحاب الأموال ، فمن خصائص العقل أنه لا يشتري العذاب الأخرى بكلمة تجري على اللسان تتضمن التعدي على مقام الربوبية.

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الأنفال ٤٦.

الثاني : إحتراز ونفرة عامة الناس من قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ لأن هذا القول ظلم للنفس.

الثالث : التبرأ العام مما يقوله الكفار ، وجعل كل انسان يقول ان أصبحت غنياً وطلب مني دفع الزكاة فلا أقول (ان الله فقير وأنا غني) وفي التنزيل ﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَرْتُمْهُمْ فَأَرْضِيَهُمُ اللَّهُ قَرْضًا حَسَنًا لَّا يَكْفِرُونَ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَدَخَلْنَكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ﴾^(١).

الرابع : رضا الفقراء بما هم عليه من حال الفقر والفاقة ، إذ يشكرون الله عز وجل على عدم بلوغهم حال الغنى التي يصدر عنها قول الغرور والعتو وهو الطغيان في الفعل ، وفي التنزيل ﴿وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا﴾^(٢).

الحمد لله الذي ابتلى الناس بالغنى والفقر، وجعل كلا منهما طريقاً إلى الجنة أو إلى النار ، فلذا لاذ المسلمون برحمة الله ، وسألوا الله الهداية إلى التوفيق في هذا الإبتلاء إذ يشترك الغني والفقير منهم بتلاوة ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) سبع عشرة مرة في الصلاة اليومية ، وهذه التلاوة سابقة لفريضة الزكاة ، إذ نزلت سورة الفاتحة في السنين الأولى للدعوة في مكة ، بينما نزلت فريضة الزكاة في السنة الثانية للهجرة ، لتكون من مصاديق الهداية في المقام على وجوه :

(١) سورة المائدة ١٢.

(٢) سورة المائدة ٦٤.

(٣) سورة الفاتحة ٦.

الوجه الأول : تفضل الله عز وجل بانزال فريضة الزكاة وما فيها من شآبيب الرحمة للمسلمين والمسلمات من جهات :

الأولى : نزول الزكاة رحمة للأغنياء ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (ثلاث من فعلهن فقد طعم طعم الإيمان. من عبد الله تعالى وحده بأنه لا إله إلا الله.

وأدى زكاة ماله طيبة بها نفسه رافدة عليه في كل عام ، ولم يعط الهرمة^(١) ، ولا الذرقة ، ولا الشرط ، ولا الهيمة ، ولا المريضة ، ولكن من أوسط أموالكم ، إن الله تعالى لم يسألكم خيره ، ولم يأمركم بشره. وزكى عبد نفسه ، فقال رجل : وما تزكية المرء نفسه ؟ قال : يعلم أن الله عز وجل معه حيث كان)^(٢).

الثانية : في الأمر الإلهي بالزكاة رحمة بالفقراء ، وهي عون ومدد لهم.

الثالثة : نزول فرض الزكاة لإصلاح للمجتمعات وباعث للإستقرار فيها ، ومنع من وقوع جنايات وجرائم ، فيكون من مصاديق ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(٣) ، إنتفاع الناس جميعاً من الزكاة تشريعاً وامثالاً لما فيها من الحرب على السرقة والإبتزاز والخطف والقتل وإثارة الفتن من جهات :

الأولى : الأمر الإلهي بالزكاة ، قال تعالى ﴿فَأَقِمْوُا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَى وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾^(٤).

(١) الهرمة أي الضعيفة الطاعنة في السن .

(٢) الأحاد والمثاني لابن ابي عاصم ٢٣٣/٣ .

(٣) سورة الفاتحة ٦ .

(٤) سورة الحج ٧٨ .

الثانية : دلالة فرض الزكاة على بلوغ طائفة من المسلمين حال السعة والغنى.

الثالثة : بذل الأغنياء المال قرابة الى الله ، وإعانة ومواساة للفقراء وهو من مصاديق التكافل الإجتماعي في الإسلام ، ومن عمومات قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(١).

الوجه الثاني : مصاحبة فريضة الصلاة لأيام البعثة النبوية الأولى والنسبة بين إقامة الصلاة وأداء الزكاة من جهة المكلفين هي العموم والخصوص المطلق ، فكل من تجب عليه الزكاة تجب عليه الصلاة ، ولكن ليس كل من تجب عليه الصلاة تجب عليه الزكاة لعدم تحقق النصاب عنده ، لذا فمن معاني التساوي ونفي الطبقات في المجتمع قد يستلم الفقير الزكاة من الغني ثم يقف أمامه في صفوف الصلاة ، بل قد يكون هذا الفقير هو إمام الجماعة وفيه شواهد كثيرة في كل زمان وبلد ، نعم لا تصح زكاة غير الهاشمي الواجبة على الهاشمي.

الوجه الثالث : نزول فرض الصلاة بعد الهجرة النبوية شاهد على أمور :

أولاً : تحسن الحالة المعاشية للمسلمين.

ثانياً : بشارة السعة والغنى عند المسلمين ، وفي ذات السنة الثانية للهجرة التي نزلت فيها فريضة الزكاة وقعت معركة بدر باصرار من رؤساء جيش الكفار فجاءت الغنائم دفعة واحدة ، وصار بدل وعوض سبعين أسيراً منهم يأتي على دفعات ، وأخرج ابن المنذر عن قتادة في قوله {تريدون عرض الدنيا}^(٢) قال : أراد أصحاب محمد صلى الله عليه وآله

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة الأنفال ٦٧.

وسلم يوم بدر الفداء ، فقادوهم بأربعة آلاف أربعة آلاف^(١) ، والمراد أربعة آلاف درهم ، مع عفو النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عن عدد منهم وجعل بعضهم معلمين لأولاد الأنصار.

ثالثاً : إرادة تكامل أحكام الشريعة بنزول الفرائض على نحو التدرج إلى أن نزل قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٢).

وأيهما أكثر الذين يمثلون لأمر الله بدفع الزكاة أم الذين يقولون (ان الله فقير) الجواب هو الأول ، وقد اندثر هذا القول بنزول آية البحث وانقرض أهله بين تائب ، مستحي منه ومغادر للدنيا قهراً ، ولكن الآية القرآنية ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ بقيت حرزاً من جهات :
الأولى : صدود الناس عن الذين قالوا (ان الله فقير).

الثانية : إنقطاع التوارث بخصوص قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ لبيان قانون وهو عدم اهلية القول والفعل الذي يتضمن التعدي على مقام الربوبية للتوارث ، وفي التنزيل ﴿وَقَالَ مُوسَىٰ إِنَّ تَكْفُرُوا أَنْتُمْ وَمَنْ فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ حَمِيدٌ﴾^(٣).

وهل من معاني قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ الوارد في آية السياق بشارة محق وزوال قول (ان الله فقير ونحن أغنياء) من الأرض ، الجواب نعم وفيه مواساة للمسلمين ، وبيان لقانون وهو أن الآية القرآنية أعظم سلاح في التاريخ ، وليس فيه إنفاق أو قتال وهو من مصاديق

(١) الدر المنثور ٤/٤٩٤.

(٢) سورة المائدة ٣.

(٣) سورة ابراهيم ٨.

احتجاج الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(١)، عندما انكروا خلافة الإنسان في الأرض لأنه ﴿يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢)، الإحتجاج في المقام مجئ الآية القرآنية على الفساد فتسأصله من غير سفك دماء أو قتال.

الثالثة : إحتراز وتنزه المسلمين والناس جميعاً من قول (ان الله فقير).
الرابعة : شهادة الآية على أن الله يسمع أقوال الناس ، ويتفضل فينزل القرآن بما ينزه الناس عن القول القبيح.

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم دخول الكثير من أبناء الكفار الإسلام قبل آبائهم ، ويلحق به أن أبناء الأغنياء لا يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

ونزلت آية البحث ليتبرأ الأبناء من آبائهم الأغنياء الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فيرثون أموالهم ، ولكنهم لا يرثون منهم التعدي على مقام الربوبية ، ولا الغرور والتبخر بالمال ، فقد رأوا كيف أن آباءهم أدعوا الغنى فلحقهم الفقر والهلاك والخروج من الدنيا وترك الأموال لغيرهم قهراً مع شدة حرصهم على الدنيا ، وحبهم لها ، وتمنيهم عدم مغادرتها ، قال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ النَّاسِ عَلَى حَيَاةٍ﴾^(٣).

ليكون دفع الزكاة على وجوه :

الأول : إصلاح النفس لمغادرة الدنيا.

الثاني : تهيئة الذات للقاء الله.

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٩٦.

الثالث : إنه مناسبة للتدبر في الحياة الدنيا.

الرابع : إنه باعث للسكينة في النفس بالوقاية بالزكاة من تذوق عذاب الحريق الذي ذكرته آية البحث في خاتمتها .

ومن الإعجاز في نظم آيات القرآن مجئ الآية التالية لآية البحث بذات موضوعها وبياناً لعلّة نزول العذاب بهم في الآخرة ، قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِمَا قَدَّمْتُمْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَالِمٍ لِّلْعَبِيدِ﴾^(١) .

(وعن طلحة بن عبيد الله قال : جاء رجل إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من أهل نجد ثائر الرأس ، يسمع دوي صوته ولا يفهم ما يقول ، حتى دنا فإذا هو يسأل عن الإسلام ، فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خمس صلوات في اليوم والليلة قال : هل عليّ غيرهنّ؟

قال : لا إلّا أن تتطوع قال صلى الله عليه وآله وسلم : وصيام شهر رمضان قال : هل عليّ غيره؟

قال : لا ، إلّا أن تتطوع وذكر له عليه الصلاة والسلام الزكاة ،

قال : هل عليّ غيرها؟

قال : لا ، إلّا أن تتطوع فأدبر الرجل وهو يقول : والله لا أزيد على

هذا ولا أنقص منه ،

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أفلح إن صدق)^(٢).

لقد أيقن الأبناء أن آباءهم لم يكونوا أغنياء ، إذ غادروا الدنيا قهراً من غير أن يحملوا من متاعها شيئاً إلا الكفن ، والذي لا يملك إلا الكفن لا

(١) سورة آل عمران ١٨٢.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ١٧/٢.

يصدق عليه أنه غني ، وحتى الكفن لا يقدر على التصرف فيه ، وهو عرضة للتلف وفي بعض الأزمنة كانت الأكفان تسرق.

قال تعالى ﴿وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلَّا كُفُورًا﴾^(١) ولقد أمر الله عز وجل بالزكاة ، وتذكر آية البحث مصاديق

مصاديق من الكفر صدرت من قول جاحدين ، وهي :

الأول : الإمتناع عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية .

الثاني : قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

الثالث : قول ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

وهل القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) كفر أم فسوق ، الجواب أنه جامع للأمرين ، فلا تعارض بينهما لما في هذا القول القبيح من الجحود والصدود وشواهد القبح وأسباب الذم لأهله فان ذكر الله عز وجل له في آية البحث لطف بالناس جميعاً ، لما في هذا الذكر من مسائل :

الأولى : تحدي الآية الكريمة للجاحدين بأن الله عز وجل قد سمع كلامهم ، وهو غير راض عنهم .

الثانية : إذا لم يرض الله على فرد أو جماعة أو طائفة فان الملائكة لا يرضون عليه ، وكأن الآية تقول للملائكة استعدوا لعذاب الجاحدين .

الثالثة : تعاون الناس في الثناء على مقام الربوبية والتنزه عن قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ولو أرادت الملائكة أن تدعو للناس جميعاً للتنزه عن قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وأن يعجل الله العقوبة للذين قالوه ، وأن لا ينقص من أموالهم فهل يؤذن لهم .

(١) سورة الإسراء ٨٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

المختار نعم ، وهو من أسرار إخبار الله عز وجل الملائكة عن خلق آدم ، واجتنابهم عن فساد طائفة من ذريته ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ ﴾^(١) قال ﴿ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾^(٢).

ولعل لدعاء الملائكة موضوعية في نزول آية البحث ليكون من علم الله عز وجل في المقام أمور :

الأول : إمهال الملائكة أصحاب القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ . وإرجاء كتابة قولهم هذا عسى أن يتوبوا ، بينما يبادر الملائكة لكتابة عمل الصالحات ، ليكون من معاني قوله تعالى ﴿ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا ﴾ وجوه :

أولاً : الإذن للملائكة بالتريث والإمهال في كتابة المعصية ، قال تعالى ﴿ مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴾^(٣).

ثانياً : لا يأذن الله للملائكة بكتابة المعصية الا بعد إمهال .

ثالثاً : ترفع الملائكة خبر المعصية ولكن الله عز وجل يؤخر كتابتها.

الثاني : توسل الملائكة بالله عز وجل ليكف ويمتنع الذين كفروا ومنعوا الزكاة عن قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

الثالث : دعوة الملائكة وسؤالهم الله عز وجل بأن يخرج جميع الأغنياء زكاة أموالهم .

الرابع : بيان مصاديق لقوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُ الْكِتَابِ﴾^(١) ، وفيه مسائل :

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة ق ١٨.

الأولى : محو أفراد كثيرة من قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

ويحتمل أوان هذا المحو وجوهاً :

الأول : قبل نزول آية البحث .

الثاني : بعد نزول آية البحث .

الثالث : الفرد الجامع لما قبل وبعد نزول آية البحث .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وهو من فضل الله على الناس لما فيه من صيغة الإطلاق .

الثانية : تضاؤل ونقص عدد القائلين : إن الله فقير ، وهو من مصاديق

﴿يُنْحُوا اللَّهَ مَا يَشَاءُ﴾^(١) ، إذ يشمل عالم الأقوال والأفعال وكذا الأعمار والأشخاص زيادة ونقصاناً ، وهل يشمل المحو مفاهيم الكفر ، الجواب نعم .

(عن أم سلمة : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان يكثر في دعائه أن يقول : اللهم مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك . قلت : يا رسول الله وإن القلوب لتتقلب .

قال : نعم . ما من خلق الله من بشر من بني آدم إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله ، فإن شاء الله أقامه ، وإن شاء أزاعه . فنسأل الله ربنا أن لا يزيغ قلوبنا بعد إذ هدانا ، ونسأله أن يهب لنا من لدنه رحمة إنه هو الوهاب .

قلت : يا رسول الله ألا تعلمني دعوة أدعو بها لنفسي . قال : بلى . قولي اللهم رب النبي محمد اغفر لي ذنبي ، وأذهب غيظ قلبي ، وأجرني من مضلات الفتن ما أحيتني .

(١) سورة الرعد ٣٩

(٢) سورة الرعد ٣٩ .

وأخرج ابن أبي شيبة وأحمد وابن مردويه عن عائشة قالت : كان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كثيراً ما يدعو : يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك .

قلت : يا رسول الله ما أكثر ما تدعو بهذا الدعاء! فقال : ليس من قلب إلا وهو بين أصبعين من أصابع الرحمن ، إذا شاء أن يقيمه أقامه ، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه .

أما تسمعين قوله تعالى { ربنا لا تزغ قلوبنا بعد إذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب } (١) (٢) .

ومن إعجاز القرآن تذكيره بالموت وعالم ما بعده من الحساب والجزاء ، وقد ذكر (ملك الموت) في القرآن مرة واحدة قال تعالى ﴿قُلْ يَوَفَّاكُمْ مَلَكُ الْمَوْتِ الَّذِي وُكِّلَ بِكُمْ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُمْ تُرْجَعُونَ﴾ (٣) .

ويدل هذا الاتحاد في الذكر زيارته على الإنسان مرة واحدة يقبض فيها روحه لتكون بداية عالم الحساب من غير عمل ، وهو أول مراحل الرجوع إلى الله عز وجل .

وكان ملك الموت يزور الأنبياء ويتحدث معهم ، وقد يأتي في عالم الرؤيا لبعض الناس إنذاراً ودعوة للإستعداد للآخرة ، وعن الأعمش عن خيثمة قال : كان ملك الموت صديقاً لسليمان بن داود عليهما السلام ، فأتاه ذات يوم .

فقال : يا ملك الموت تأتي الدار تأخذ أهلها كلهم وتذر الدويرة إلى جنبهم لا تأخذ منهم أحداً قال : ما أنا بأعلم بذلك منك ، إنما أكون تحت العرش فتلقى إلي صكاك فيها أسماء .

(١) سورة آل عمران ٨ .

(٢) الدر المنثور ٢/٢٨٦ .

(٣) سورة السجدة ١١ .

فجاء ذات يوم وعنده صديق له ، فنظر إليه ملك الموت فتبسم ثم ذهب ، قال : فقال الرجل : من هذا يا نبي الله ، قال : هذا ملك الموت ، قال : لقد رأيته يتبسم حين نظر إلي ، فمر الريح فلتلقني بالهند ، فأمرها ، فألقته بالهند ، فعاد ملك الموت إلى سليمان فقال : أمرت أن أقبضه بالهند فرأيته عندك^(١).

وذكر أحد الأدباء (أنه جاءه بدمشق في سنة نيف وسبعين وأربعمائة أبو العلاء بن العين زربي باكياً حزيناً، فسأله عن حاله، فقال: إنني عملت في المنام أشعاراً كثيرة، لما أهذي به في اليقظة، فما حفظت منها شيئاً، وقد رأيت ملك الموت عليه السلام في هذه الليلة الماضية وهو يقول لي: أنا ضيفك فعملت في المنام هذين البيتين وحفظتهما وهما:

قضى الله أن أقضي وتقضى منيتي ... ولم أقض في الدنيا مناي ومنيتي
فلله ضيف زارني فقريته ... حياتي فولى طاعناً حين ولت
قال: ثم إنه خرج عني، فوصلني خبره بعد يومين أو ثلاثة أنه مات إلى رحمة الله تعالى^(٢).

وهناك مسألتان :

الأولى : هل يأتي ملك الموت في عالم الرؤيا بأذن الله أم باجتهاد منه .

الثانية : تحتل رؤية ملك الموت في المنام وجوهاً :

الأول : إنها خاصة بالمؤمنين .

الثاني : هي للناس كافة .

الثالث : من رؤيا ملك الموت ما هو أضغاث أحلام .

وأما المسألة الأولى فصحيح أن عالم الرؤيا والمنام أدنى رتبة من عالم اليقظة ، إلا أن ملك الموت لا يزور أحداً في المقام إلا بأذن من الله عز

(١) الإبانة الكبرى ٤/٤٤٦.

(٢) بغية الطلب في تاريخ حلب ٤/٣٦١.

وجل ، لأن هذه الزيارة رحمة ونعمة وذكرى وبشارة أو إنذار ، وهي مناسبة للدعاء والصدقة ودفع الزكاة والحقوق الشرعية التي هي نوع طريق لمحو الإنذار ودفع الأجل قال تعالى ﴿ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِنْدَهُ ﴾^(١).

وأما المسألة الثانية فالمختار هو الثاني لأن زيارة ملك الموت في المنام أو ما يدل على هذه الزيارة رحمة من عند الله تصيب البر والفاجر ، كما أنها بلاغ وحجة ، قال تعالى ﴿ فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ ﴾^(٢).

وهل يمكن أن تكون رؤيا ملك الموت من أضغاث الأحلام ، ومما يفكر به الإنسان في اليقظة فيراه في المنام ، الجواب لا ، فان رؤية الملك في المنام حق .

الثالثة : محو جدال ومغالطة الذين كفروا ، فمن إعجاز آية البحث أنها تمنع وجود الناصر للذين يقولون ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَخَنٌ أُغْنِيَاءُ ﴾^(٣) فمن خصائص الآية القرآنية إتصافها بصفات وخصائص كريمة في آن واحد منها جهات :

الأولى : قانون الآية القرآنية داعية إلى التوبة والإنابة .

الثانية : قانون بيان الآية القرآنية لصدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الثالثة : قانون دفاع الآية القرآنية عن سنة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

الرابعة : قانون نصررة الآية القرآنية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم.

(١) سورة الأنعام ٢.

(٢) سورة الأنعام ١٤٩.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

وهل يلزم الدور في المقام ، الجواب لا ، لإمتناع الموضوع عن مسألة الدور ، فكل نصرة من القرآن للنبي نفع للقرآن وللنبي والمسلمين ، وكذا كل نصرة من النبي .

ليأتي النصر للمسلمين في معركة بدر ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِدُرِّ وَاتُّمُّدْتُمْ أُولَئِكَ﴾^(١) وفي هذا النصر مدد وعون لآيات القرآن .

الخامسة : قانون شهادة ذات الآية القرآنية على التضاد بينها وبين الإرهاب .

لقد امتنعت طائفة من الناس عن دفع الحقوق الشرعية ، وعن إعطاء الفقراء ما كتب الله لهم في أموال الأغنياء ، ولم يقفوا عند هذا الإمتناع إنما صاروا يتعرضون لمقام الربوبية ، ويؤذون النبي صلى الله عليه وآله وسلم والصحابة بقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) .

فأنزل الله عز وجل آية البحث مواساة للنبي صلى الله عليه وآله وسلم ، فحجبوا عن أنفسهم رحمة الله ، وصاروا محرومين من السكينة والأمن ، وان أظهروا الغرور والزهو ، فليس كل نسيم يشبه نسيم السحر . الحمد لله سامع كل صوت ، وكل كلمة ينطق بها العباد من غير أن تختلط عنده الأصوات .

الحمد لله الذي جعل سماعه لكلام الناس رحمة بهم وسيلاً إلى هدايتهم ، ومنه قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٣) إذ

(١) سورة آل عمران ١٢٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

أنه رحمة بالناس جميعاً بلحاظ أن الآية القرآنية موعظة وتذكير ، قال تعالى ﴿فَذَكِّرْ إِن نَّبَعْتُ الذِّكْرَى﴾^(١).

الحمد لله الذي يذكر في التنزيل ما يقوله أو يفعله الناس من القول والفعل الحسن ليكون ثروة وتركه وصراطاً يدرك الناس حلاوته ، وتصيبيهم الغبطة في إتيانه أو سماعه ، وفي التنزيل ﴿الَّذِينَ يَسْتَعِينُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾^(٢).

ويذكر الله عز وجل في القرآن الفعل والقول القبيح الصادر من الذين كفروا لبيان تعديهم وظلمهم لأنفسهم ، واستحقاق نزول العذاب بهم ، ومنه ما ورد في آية البحث إذ اختصت بذكر قول جماعة ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) وعلة هذا القول أن الله أمرهم بأن يدفع الزكاة الذين تفضل الله عز وجل عليهم بالغنى وكثرة الأموال فاستجابت أمة ، وامتنعت طائفة .

وذكرت الآية السابقة لآية البحث هذه الطائفة وبلغه الذم في قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَا لَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٤) أي ولا يظن الذين يمتنعون عن دفع الزكاة مع وجوبها عليهم فيه نفع لهم أو هو سبب لزيادة أموالهم إنما هو شر وأذى لهم في النشأتين ، وهذا الإمتناع فعل وأمر وجودي ظاهر للناس ، فمن ضروب الإبتلاء

(١) سورة الأعلى ٩.

(٢) سورة الزمر ١٨.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) سورة آل عمران ١٨٠.

والإختبار في الحياة الدنيا معرفة الناس بالذي يدفع الزكاة ، والذي يساعد الفقراء ، ويقضي حوائج الناس وان كان انفاقه سراً ، وكأنه من مصاديق قوله تعالى ﴿مَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَتَتْ سَنَعًا سَابِلًا فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾^(١) وكذا فان الله يفصح في التنزيل الذي يمتنع عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية .

الحمد لله الذي جعل كلاً من الدنيا والآخرة داراً لذكره وتسبيحه ، فبعث الأنبياء من بين الناس ليكونوا الأسوة في ذكر الله والثناء عليه والشكر له سبحانه ، ولم يغادروا الدنيا إلا وهناك أمة تحاكيهم وتقتفي أثرهم بالشكر لله تعالى (عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : قال الله عز وجل : يا ابن آدم إذا ذكرتني في نفسك ذكرتك في نفسي ، وإن ذكرتني في ملأ ذكرتك في ملأ من الملائكة . أو قال : في ملأ خير منهم ، وإن دنوت مني شبراً دنوت منك باعاً ، وإن أتيتني تمشي أتيتك بهرولة .

وأخرج الطبراني عن معاذ بن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال الله عز وجل ذكره : لا يذكرني أحد في نفسه إلا ذكرتني في ملأ من ملائكتي ، ولا يذكرني في ملأ إلا ذكرتني في الرفيق الأعلى)^(٢).

الحمد لله الذي أنعم عليّ بصدور الجزء التاسع والثمانين بعد المائة خاصاً بتفسير قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

(١) سورة البقرة ٢٦١.

(٢) الدر المنثور ١/٢٩٧.

وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ^(١) ثم جاء هذا الجزء لبيان صلتها مع آية البحث لتكون فيه فيوضات مستحدثة في تفسير ذات الآية أعلاه ، ومقدمة وجزء من تفسير آية البحث ، وهو قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) .

وذكرت آية السياق فضل الله على الأغنياء ، وصيرورته سبباً لتعلق الزكاة في مالهم ، ولكنهم بخلوا بذات مقدار الزكاة ، والذي لا يختص صرفه بالفقراء انما تتعدد الأصناف والوجوه التي تصرف فيها لقوله تعالى ﴿إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةُ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنَاءَ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنْ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(٣) .

ولم تذكر آية البحث لفظ فضل الله ، ولكن مضامينها تدل عليه ، فقول الجاحدين ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ حجة وشاهد على جمعهم الأموال بفضل من الله عليهم في الأبدان والمندوحة في الوقت وفرص العمل وتهئية مقدماته ، وإزاحة الموانع دون الكسب .

وتقدير الجمع بين الآيتين بخصوص فضل الله على وجوه :

الأول : ونحن أغنياء بفضل الله .

الثاني : ونحن أغنياء بما آتانا الله من فضله .

الثالث : ونحن فقراء إلى الله مع ما عندنا من الغنى .

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة التوبة ٦٠ .

الحمد لله الذي ﴿اللَّهُ نَزَلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُثَشَّاهًا مَثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ﴾ (١) الحمد لله الذي قرب الناس لطاعته لطفاً منه وألان قلوبهم ، وجعل جلودهم تقشعر لذكره ، وبعث الشوق في النفوس للغوص في معاني آيات القرآن ، وليغرف العلماء من بحر جود فضله ، وعن الإمام علي عليه السلام قال ، قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (خيركم من تعلم القرآن وعلمه) (٢).

وأشرقت أجزاء هذا التفسير المتابعة بفيض ومدد من الله عز وجل إذ يصدر الجزء الواحد والتسعون بعد المائة في الصلة بين آيتين متجاورتين من سورة آل عمران ، ولو اتبع العلماء في الأجيال القادمة وإلى يوم القيامة ذات المنهجية وبعمل مؤسساتي بأن تشترك الاختصاصات العلمية في تفسير الآية القرآنية لبلغت أجزاء تفسيرهم ملايين الأجزاء حتى على فرض صدور شرط من هذه الأجزاء بصلة آية مع آيتين أو ثلاثة من القرآن ، وهو من رشحات قوله تعالى ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مَدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ (٣).

وكأن الرقم أعلاه افتراضي لبيان أن علوم القرآن من اللامتناهي . أما تفسيري للقرآن هذا فان أجزاءه كلها معدودة ، وهو لطف ونعمة من عند الله عز وجل تفضل بها علي ، وأتطلع إلى دعائكم بالتوفيق بتأليف أجزاء

(١) سورة الزمر ٢٣.

(٢) القضاعي / مسند الشهاب ٣٧٥/٤.

(٣) سورة الكهف ١٠٩.

أخرى منه قبل حلول الأجل ، قال تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَيُرْسِلُ عَلَيْكُمْ حَفَظَةً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَ أَحَدَكُمْ الْمَوْتُ تَوَفَّتْهُ رُسُلُنَا وَهُمْ لَا يُفِرُّونَ﴾^(١).

وصدر الجزء التسعون بعد المائة والحمد لله ، ويختص بتفسير الآية ١٨١ من سورة آل عمران .

لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار امتحان وابتلاء ، وليس من حصر لضروب الإبتلاء والأختيار في الدنيا ، ومنه الغنى والفقر واستدامة أو تبدل أي منهما ، وهل في قوله تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاوُلَهَا بَنِيَ النَّاسُ﴾^(٢) إنذار للأغنياء الذين ييخلون بالزكاة والحق الشرعي ، الجواب نعم ، وكل من آية السياق والبحث إنذار لهم أيضاً ودعوة لهم للتوبة ، قال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُثَبِّتَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ * وَاللَّهُ يُرِيدُ أَنْ يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَنْ تَمِيلُوا مِيلًا عَظِيمًا﴾^(٣).

وورد اصطلاحان في هذا الجزء :

الأول : آية السياق ، والمراد الآية (١٨٠) من سورة آل عمران.

الثاني : آية البحث ، والمراد الآية (١٨١).

لقد ذكرت آية السياق تباهي الجاحدين بكثرة أموالهم وبلوغهم مرتبة الغنى ، وقد ورد الإنذار والزجر في القرآن والسنة (عن أنس قال : قال

(١) سورة الأنعام ٦١.

(٢) سورة آل عمران ١٤٠.

(٣) سورة النساء ٢٦-٢٧.

رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ليس الغنى عن كثرة العرض ، إنما الغنى غنى النفس^(١).

ومن غنى النفس المبادرة إلى الإنفاق في سبيل الله ، وتعاهد سلامة النفس والبدن في الدنيا والآخرة باخراج الزكاة والحقوق الشرعية ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا تُنذِرُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَمَنْ تَزَكَّى فَإِنَّمَا يَتَزَكَّى لِنَفْسِهِ وَالِىَ اللَّهُ الْمَصِيرُ ﴾^(٢).

حرف في ١٥ ذي الحجة ١٤٤٠

٢٠١٩/٨/١٦

مكة المكرمة

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٦٠/١٦.

(٢) سورة فاطر ١٨.

قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ الآية ١٨١.

في سياق الآيات

، صلة هذه الآية بالآيات المجاورة على شعبتين .
الشعبة الأولى : صلة هذه الآية بالآيات المجاورة السابقة لها ، وهي على وجوه منها ^(١) :

صلة هذه الآية بالآية السابقة ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا أَنَاءَهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرٌ لَّهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخَلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ^(٢) وفيه مسائل :

المسألة الأولى : ابتدأت آية السياق بدم الذين كفروا لبخلهم وامتناعهم عن دفع الحقوق الشرعية ، وفيها توبيخ لهم لأنهم يتنعون عن التصديق الواجب ، ويظنون أن هذا الإمتناع والبخل هو خير لهم .
وفي هذا الإخبار معجزة غيرية للقرآن بأنه يلاحق ظن الذين كفروا فيفضحه ويطله إذ أن الظن كيفية نفسانية لا يعلمها إلا الله عز وجل .
هم يظنون أن حبس الحقوق وعدم إخراجها من ملكيتهم نافع لهم ، من جهات .

الأولى : النماء في المال .

(١) يختص هذا الجزء بالصلة بين آية البحث والآية السابقة .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

الثانية : اللجوء للمال المدخر عند الحاجة.

الثالثة : السكينة عند حال الإمتلاء والشراء .

فنزلت آية السياق لتتفي هذه الوجوه مجتمعة ومتفرقة ، وهو من إعجاز الآية القرآنية لما فيها من التحدي بخصوص حال الذين كفروا المالية والنفسية ، ولحوق الأذى بهم بسبب خزن وحبس هذه الأموال .

وهل يتعلق قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾^(١) بمجموع أموال الذين كفروا ، لأن التلبس بالكفر سبب لصيرورة مال الكافر أذى وشرأ ، الجواب القدر المتيقن من الآية هو خصوص الحقوق الشرعية التي يحبسها صاحبها ، وهل يشمل المؤمن الذي يحبس الحقوق الشرعية لأصالة الإطلاق ، وأن كل من يحبس الزكاة يطوق عنقه بشجاع أفعى يوم القيامة أم أنها لا تشمل المؤمن ، المختار هو الثاني .

فان قلت قد ورد قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن كَثِيرًا مِنْ الْأَحْبَارِ وَالرُّهْبَانِ لَيَأْكُلُونَ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ﴾^(٢) والجواب اختلف في عموم أو تخصيص هذه الآية كما ورد عن ابن عمر أنه قال : (إنما كان هذا قبل أن تنزل الزكاة فلما نزلت جعلها الله تطهير الأموال).^(٣)

وأخبرت آية البحث عن قانون وهو أن الله عز وجل سامع للأقوال ، وعالم بالأحوال .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة التوبة ٣٤.

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ١٣٤/٦.

المسألة الثانية : من معاني الجمع بين الآيتين فيها ما يدعيه البخلاء بالحقوق الشرعية في سبيل الله بان الله عز وجل فقير وهم أغنياء وفي التنزيل ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ وَلَهُ أَجْرٌ كَرِيمٌ﴾ (١) .

ولما نزلت الآية أعلاه قال بعضهم (يا محمد) افتقر ربك يسأل عباده فانزل الله آية البحث ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُّ أُغْنِيَاءُ﴾ (٢) وروي عن ابن عباس (٣) .

ومن إعجاز القرآن الغيري تحقق الإمتثال لمنطوق الآية القرآنية حال نزولها ليتوارث المسلمون هذا الإمتثال فورد (عن ابن مسعود وأبي أمامة وزيد بن أسلم دخل حديث بعضهم في بعض قالوا : نزلت {مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا} (٤) .

فلما نزلت قال أبو الدحداح : فداك أبي وأمي يا رسول الله ،
 إن الله يستقرض وهو غني عن القرض ،
 قال : نعم ،
 يريد أن يدخلكم الجنة قال : فإني إن أقرضت ربي قرضاً تضمن لي الجنة؟

قال : نعم ، من تصدق بصدقة فله مثلها في الجنة ،
 قال : فزوجي أم الدحداح معي .
 قال : نعم قال (وصبيان) الدحداح معي .
 قال : نعم .

(١) سورة الحديد ١١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٢/٢١٣.

(٤) سورة البقرة ٢٤٥.

قال : ناولني يدك فناوله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يده
فقال : إن لي حديقتين إحداهما بالسافلة والأخرى بالعالية،
والله لا أملك غيرهما وجعلتهما قرضاً لله عز وجل،
فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إجعل إحداهما لله عز
وجل والأخرى معيشة لك ولعيالك قال : فاشهدك يا رسول الله أنني
جعلت غيرهما لله تعالى وهو حائط فيه ستمائة نخلة،
قال : يجزيك الله إذا به بالجنة.

فانطلق أبو الدحداح حتى أتى أم الدحداح وهي مع صبيانها في
الحديقة تدور تحت النخل فأنشأ يقول :

هداك ربي سبيل الرشاد
إلى سبيل الخير والسداد
قرضني من الحائط لي بالواد
فقد مضى قرضاً إلى التناد
أقرضته الله على اعتماد
بالطوع لا من ولا ارتداد
إلا رجاء الضعف في المعاد
فارتحلي بالنفس والأولاد
والبر لا شك فخير زاد
قدمه المرؤ إلى المعاد

قالت أم الدحداح : ربح بيعك،
بارك الله لك فيما اشتريت،
فأنشأ أبو الدحداح يقول :
مثلك أجدي ما لديه ونصح
إن لك الحظ إذا الحق وضع

قد متع الله عيالي ومنح
 بالعجوة السوداء والزهو البلح
 والعبد يسعى وله ما قد كدح
 طول (الليالي) وعليه ما اجترح
 ثم أقبلت أم الدحداح على صبيانها تخرج ما في أفواههم وتنفض ما في
 أكمامهم حتى أفضت إلى الحائط الآخر فقال النبي صلى الله عليه وآله
 وسلم كم من عذق رداح،
 ودار فياح في الجنة لأبي الدحداح^(١).

لقد أظهر المسلمون حسن الطاعة بخصوص وجوب الزكاة ، وأبدى
 المشركون المعصية كما في آية السياق ، أما آية البحث فأنها توثق المعصية
 القولية من قبل المشركين.

وهل الذين ييخلون بالحقوق الشرعية هم أنفسهم الذين قالوا إن الله
 فقير ونحن أغنياء ، المختار هو نسبة العموم والخصوص المطلق ، فالذين
 ييخلون بما آتاهم الله عز وجل من فضله أعم .

ومن اللطف الإلهي ورحمة الله في ضروب الإبتلاء في الحياة الدنيا
 وجود فصل بين فعل وآخر ، ويمهل الله عز وجل العبد على المعصية
 الأولى والثانية إلى ما يشاء سبحانه .

وأنعم الله عز وجل على الناس بالتنزيل بشارة وإنذاراً ووعداً
 ووعيداً ، ومن إعجاز القرآن بيان الذنب والمعصية ثم ذكر عقوبته ، وفيه
 مسائل :

الأولى : دعوة الناس للتدارك والإنابة .

الثانية : بعث الأمل في النفوس .

الثالثة : حمل الناس على الإقرار باليوم الآخر .

الرابعة : معرفة الناس بالملازمة بين الأفعال وجزائها .
 لقد ذكرت آية السياق لفظ الجلالة مرتين ومن جهتين :
الأولى : بيان فضل الله عز وجل على الناس عامة وأرباب الأموال خاصة .

الثانية : إحاطة الله عز وجل علماً بكل ما يفعله الناس .
 ومن الإعجاز في كل منهما ترغيب الناس بالعمل الصالح والمساورة
 في الخيرات ، فما يدفعه الإنسان زكاة وصدقة إنما هو من فضل الله ، وهو
 سبحانه الذي يخلفه ، وما دام الله عز وجل يعلم ما يفعله الناس .
 فان إخراج الزكاة وسيلة ورجاء لنزول رحمته ، لتبدأ آية السياق بالذم
 للذين يخلوا بالزكاة ، وتختتم بالبعث على إخراجها وعدم حبسها ، وفي
 التنزيل ﴿وَهُوَ الَّذِي يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَعْفُو عَنِ السَّيِّئَاتِ وَيَعْلَمُ مَا
 تَفْعَلُونَ﴾^(١).

المسألة الثالثة : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار فضله وإحسانه
 ، ليكون هذا الفضل مقدمة ومرآة لعظيم الفضل الإلهي على الناس في
 الآخرة (عن سلمان عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : خلق الله
 يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، منها رحمة يتراحم بها الخلق
 وتسع وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة)^(٢).
 وتبين آية السياق قانوناً وهو أن المعصية لا تحجب فضل الله عز وجل
 واستدامة هذا الفضل ترى لماذا يستديم هذا الفضل مع المعصية وحجب
 الحقوق الشرعية ، الجواب من وجوه :

(١) سورة الشورى ٢٥.

(٢) الدر المنثور ٣٦/٤.

الأول : قانون ملازمة فضل الله للخلافة في الأرض ، لقد أبى الله عز وجل إلا أن يتصل فضله على الناس في الحياة الدنيا .

الثاني : لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إختبار وامتحان ، فيفضل الله عز وجل على الناس ليشكروه ويؤدوا الفرائض ، ولكن الظالمين تغويهم زينة الحياة الدنيا ، فلا ينظرون منها ، إنما ينظرون إليها ، فجاءت كل من آية البحث والسياق لزرهم ودعوتهم للتوبة والإنابة .

الثالث : من صفات الله عز وجل أنه ذو الفضل العظيم ويمكن القول بقانون من جهات :

الأولى : قانون نعمة الخلق والنشأة فضل عظيم على الناس .

الثانية : قانون لله عز وجل فضل عظيم على الإنسان في كل يوم ، إذ يعجز الإنسان عن إدراك واحصاء فضل الله عز وجل عليه في أي يوم من أيام حياته وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَإِنْ نَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾^(١).

الرابعة : قانون كل آية من القرآن فضل عظيم من الله عز وجل ، وهذا الفضل من جهات :

الأولى : نزول الآية القرآنية .

الثانية : انحصار ونزول آيات القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دون غيره من الناس ، ليترشح عنه قانون وهو إنقطاع نزول القرآن بمغادرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى . ومن الإعجاز الغيري للقرآن عدم إدعاء أحد بعد النبي صلى الله عليه وآله وسلم نزول القرآن عليه ، وقد أدعى مسيلمة الكذاب أنه أشرك في أمر النبوة في أيام النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبعد وفاته وأخذ يسجع منه قوله (لقد أنعم الله على الحبلى أخرج منها نسمة تسعى من بين صفاق وحشا).

وأحل لأصحابه الخمر والزنا ووضع عنهم الصلاة وهو مع ذلك يشهد لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه نبي^(١).

الثالثة : حفظ الآية القرآنية من التحريف ، سواء في رسمها أو في تلاوتها أو دلالتها ومعانيها .

الرابعة : تسخير أمة في كل زمان تعمل بأحكام الآية القرآنية ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٢) ومن فضل الله إزدياد أعداد أفراد هذه الأمة كل يوم ، وإتساع جغرافية الأرض التي يذكرون الله فيها خمس مرات في اليوم، قال تعالى ﴿وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾^(٣).

الخامسة : النفع العظيم لتلاوة الآية القرآنية .

السادسة : ومن هذا النفع بحث آية البحث الناس على دفع الحقوق الشرعية وعدم حبسها ، فتأتي آية السياق للإنذار والوعيد ، وتأتي آيات لبيان الأجر والثواب العظيم على دفع الحقوق الشرعية ، قال تعالى ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَقْرِضُوا اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا وَمَا تُقَدِّمُوا لَأَنْفُسِكُمْ مِنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِنْدَ اللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا﴾^(٤) إذ تدل الآية أعلاه على أن القرض في المقام أعم من الزكاة ليشمل الصدقات المستحبة والإحسان والأمر بالزكاة والحث على المعروف والنهي عن المنكر .

والقرض لغة هو القطع ، أما في الإصطلاح فهو السلف إذ يقطع المتصدق جزء من ماله ليدفعه إلى الفقير والمحتاج ، فيكون قرضاً وسلفاً مع

(١) عيون الأثر ٢/٢٨٤.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) سورة طه ١٤.

(٤) سورة المزمل ٢٠.

الله ، وهل ينحصر جزاؤه في الآخرة ، الجواب لا ، إنما يكون ثوابه في الدنيا والآخرة .

المسألة الرابعة : جاءت كل من آية البحث والسياق بصيغة الجملة الخبرية لبيان قانون وهو استدامة كل من :

الأول : سمع الله عز وجل لكل ما يقوله الناس ، ومن أسمائه تعالى (السميع) .

الثاني : من مصاديق صفة السميع لله عز وجل أمور :

أولاً : حضور كل ما سمعه الله عز وجل في عنده في الزمن الماضي .

ثانياً : يسمع الله عز وجل الأصوات والأقوال التي تصدر في آن واحد من أهل الأرض ويفصل ويميز بينها من غير عناء أو تعب ، قال تعالى ﴿وَمَا مَسْتَمِينَ لُغُوبٍ﴾^(١) في رد على الذين قالوا إن الله تعالى بدأ خلق العالم يوم الأحد ، وفرغ منه يوم الجمعة ، واستراح يوم السبت إنما خلق الله السموات والأرض بالكاف والنون .

(عن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إن الله تعالى فرغ من خلقه في ستة أيام . أولهن يوم الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، خلق يوم الأحد السموات ، وخلق يوم الاثنين الشمس والقمر ، وخلق يوم الثلاثاء دواب البحر ودواب الأرض وفجر الأنهار وقوت الأقوات ، وخلق الأشجار يوم الأربعاء ، وخلق يوم الخميس الجنة والنار ، وخلق آدم عليه السلام يوم الجمعة ، ثم أقبل على الأمر يوم السبت)^(٢) .

(١) سورة ق ٨٣ .

(٢) الدر المنثور ٣٣/٩ .

ثالثاً : الله عز وجل سميع للأصوات التي تصدر وسوف تصدر من الناس في الدنيا والآخرة .

فإن قلت يتعلق موضوع هذا السمع بصفة العلم وأنه تعالى عالم بالأصوات والأقوال التي ينطقها الناس فيما بعد .

والجواب لا تعارض بين الأمرين فهو سبحانه عالم بها وسامع لها على نحو التفصيل إذ تحضر عنده ذات الأصوات وأصحابها إلى جانب علم الله عز وجل بها قبل أن تصدر من الناس .

الثالثة : يسمع الله عز وجل تلاوة المسلمين لآية السياق والبحث وتعدد منافع هذه التلاوة من جهات :

الأولى : تحريض المؤمنين والمؤمنات على إخراج الحقوق الشرعية وترغيبهم بالسعي إلى الثواب.

الثانية : بيان قانون وهو ما عند الناس من النعم من فضل الله .

الثالثة : جعل الناس يستحضرون عالم الآخرة وعذاب الذين كفروا فيها .

الرابعة : بعث النفرة من البخل وحبس الحقوق .

المسألة الخامسة : جمعت كل من الآيتين بين الإخبار عن سوء قول أو فعل وبين سوء العاقبة الذي يترتب عليه ، لبيان قانون وهو أن القرآن جاء بدم الفعل القبيح مع بيان العقاب الذي يستحقه ، وفيه حجة ودعوة للتوبة والإنابة .

وهل من صلة بين البخل بالحقوق الشرعية وبين قول ﴿إِنَّ اللَّهَ

فَقِيرٌ﴾^(١) الجواب نعم ، لإتحاد الموضوع وهو نزول الأمر الإلهي بالصدقة والإنفاق في سبيل الله ، ومقابلة طائفة من الناس هذا الأمر بالإمتناع عن

الإِنْفَاقَ وَالْبَذْلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، قَالَ تَعَالَى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾^(١).

وتبين آية الصدقات أعلاه قانوناً وهو ﴿إِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٢) ، وأنه يأمر بالإِنْفَاق لإِعَانَةِ الْفُقَرَاءِ وَالْمُحْتَاجِينَ .

وفي هذه الإِعَانَةِ دَعْوَةٌ لَهُمْ لِلْإِيمَانِ وَالرِّضَا بِحَيَاةِ الزَّهْدِ وَالتَّقْدِيرِ قَالَ تَعَالَى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾^(٣).

ترى ما هي النسبة بين الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله وبين الذين ﴿قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٤) الجواب فيه وجوه :

الأول : التساوي بين الاثنين ، فالذين ييخلون ويمنعون الزكاة هم أنفسهم الذين يقولون إن الله فقير .

الثاني : نسبة العموم والخصوص من وجه ليكون المذكور في الآية على شعب :

الأولى : طائفة تحبس الحقوق الشرعية ، وتمتنع عن دفعها ولكنهم لا يقولون بأن الله فقير .

(١) سورة التوبة ٦٠ .

(٢) سورة آل عمران ٩٧ .

(٣) سورة الزمر ٥٢ .

(٤) سورة آل عمران ١٨١ .

الثانية : طائفة تقول بأن الله فقير ولكنهم يخرجون الزكاة والحقوق الشرعية ، ولا ينحصر الأمر بالزكاة بخصوص المسلمين إذ ورد عن عيسى عليه السلام في التنزيل ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(١).

الثالثة : وجود مادة إلتقاء بين الطوائف بوجود طائفة منهم تجمع الخصال المذمومة في الآيتين ، طائفة تمتنع عن دفع الحقوق الشرعية ، وتقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢).

الثالث : نسبة العموم والخصوص المطلق ، وفيه شعبتان :
الأولى : الذين ييخلون بما آتاهم الله أعم وأكثر من الذين يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣).

الثانية : الذين يقولون إن الله فقير أكثر وأعم من الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله .

الرابع : نسبة التباين وأن الذين تذكروهم آية السياق وتصفهم بالبخل في الإنفاق الشرعي غير الذين تذكروهم آية البحث وتخبر عن سوء كلامهم وافترائهم الكذب .

والمختار هو الشعبة الأولى من الوجه الثالث أعلاه فصحيح أن البخل في الحقوق وحبسها وعدم دفعها إلى أهلها المستحقين لها ظلم للنفس والغير إلا ان القول بأن الله فقير أشد ظلماً وتعدياً .

ومع أنه يتضمن الإقرار بوجود الخالق ، وبربوبيته وذكره باسم الجلالة (الله) إلا أنه يتضمن الجحود والإنكار لصفة الله عز وجل وهي غناه عن العالمين .

(١) سورة مريم ٣١.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

المسألة السادسة : أخبرت آية البحث عن قانون وهو أن الله عز وجل يسمع أقوال الناس ، وأنه سبحانه لا يجعلها تذهب هباء ، بل تكتبها ملائكته ويحفظها الله عز وجل لتكون حاضرة يوم القيامة ويكون من معاني قوله تعالى ﴿فَاللَّهُ خَيْرٌ حَافِظًا وَهُوَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ﴾^(١) ، إن الله عز وجل يحفظ الأفعال والأعمال لتكون حاضرة يوم القيامة ، ومنها دفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله .

وجاءت آية البحث والسياق ليتوب الذين يخلون بالحقوق ، والذين يمتنعون عن دفعها لمستحقيها ، وليثبت الذين يواظبون على دفعها ، ويأمرون بدفعها ويشكرون الله عز وجل على دفعها ، ومن الإعجاز في الفرائض والسنن العبادية إدراك العبد للنفع الخاص والعام حال أدائها ، وبعث الطمأنينة في نفسه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَيَزَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾^(٢) .

ومن سمع الله عز وجل للأقوال بلحاظ آية السياق وجوه :

الأول : يسمع الله كلام دافع الزكاة المصاحب لدفعه له .

الثاني : يسمع الله شكر دافع الزكاة له على التوفيق لإخراجها ودفعها إلى المستحقين ، وفي دفع الزكاة إزالة الكرب عن مهموم وإعانة لمحتاج ، وهو من مكارم الأخلاق ، وإحلال السعادة محل البؤس والشقاء ، وإزاحة الهم والحزن .

(١) سورة يوسف ٦٤ .

(٢) سورة الفتح ٤ .

(عن أنس بن مالك قال كان لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعوات لا يدعهن كان يقول اللهم إني أعوذ بك من الهم والحزن والعجز والكسل والبخل والجبن وغلبة الرجال) (١).

الثالث : يسمع الله عز وجل المناجاة بين المسلمين لدفع الزكاة والتعاون فيه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُمْ رَابِعُهُمْ وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُمْ سَادِسُهُمْ وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ وَلَا أَكْثَرُ إِلَّا هُمْ مَعَهُمْ أَيْنَ مَا كَانُوا ثُمَّ يَنْتَبِهُنَّ بِمَا عَمِلُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ (٢).

الرابع : يسمع الله عز وجل قول الفقير قبل وبعد تلقي الزكاة وإعانة الغني له.

وهل أداء العبادات البدنية مما يسمعه الله الجواب نعم ، ومن الإعجاز في المقام جزئية قراءة القرآن في كل ركعة من ركعات الصلاة.

(عن أبي هريرة قال : كنت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يحدث أصحابه؛ إذ دخل رجل يصلي،

وافتح الصلاة،

وتعوذ،

ثم قال : { الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ } . فسمع النبي { صلى الله عليه وسلم } فقال : يا رجل،

قطعت على نفسك الصلاة،

أما علمت أن { بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ } من الحمد؟

فمن تركها فقد ترك آية،

(١) النسائي / السنن الكبرى ٤/٤٤٨.

(٢) سورة المجادلة ٧.

ومن ترك آية منه فقد قطعت عليه صلاته. لا تكون الصلاة إلا بفاتحة الكتاب، ومن ترك آية فقد بطلت صلاته. (١).

ومن معاني الجمع بين آية البحث وآية السياق أمور :

الأول : بعث المؤمنين على قول الصدق وحث بعضهم بعضاً على دفع

الزكاة ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (٢).

الثاني : طرد الغفلة عن المؤمنين بخصوص الزكاة ، ودفعها فقد يكون المسلم عازماً على دفع الزكاة ، ويستعد له بغبطة ورضا ، ولكن حين تحقق النصاب ، وحلول أوان الزكاة ينشغل عنها ، أو يدفع بعضها أو يقوم بدفع الصدقة المستحبة وليس الزكاة الواجبة .

فجاءت كل من آية السياق والبحث لحثه على أداء الزكاة ودفع الخمس ، وهو من مصاديق فضل الله بسلامة المؤمنين من الغفلة ، وعمومات قوله تعالى ﴿نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ بِمَا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ هَذَا الْقُرْآنَ وَإِنْ كُنْتَ مِنْ قُلُوبِنَا الْغَافِلِينَ﴾ (٣).

الثالث : إبلاغ المسلمين والمسلمات بأن الله عز وجل يسمع كلامهم فيما يخص الزكاة وإخراج الحقوق الشرعية من جهات :

الأولى : تلاوة المسلمين لآية البحث والسياق.

الثانية : تناهي المسلمين عن محاكاة الذين يخسئون بما آتاهم الله من فضله.

الثالثة : استحضار المسلم والمسلمة لقانون من الإرادة التكوينية وهو أن الله عز وجل لم يخلق الناس ويتركهم وشأنهم إنما يسمع كلامهم ويرى

(١) سورة المجادلة ٧.

(٢) سورة الفتح ٤.

(٣) سورة يوسف ٣.

مكانهم وما يفعلون أو يوثق ويكتب سبحانه أفعالهم ، قال تعالى ﴿أَحْسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لَا يُفْتَنُونَ﴾^(١).

ليبان قانون وهو كل آية من القرآن نوع تفقه للمسلمين في الدين فأن سأل بعضهم أن مجموع آيات القرآن أو جمع عدد منها تفقه في الدين أم أن تلاوة كل آية قرآنية والتدبر في معانيها ودلالاتها تفقه في الدين على نحو مستقل .

الجواب هو الثاني ، وهو من الإعجاز الغيري للآية القرآنية وليكون من فلسفة تلاوة كل مسلم ومسلمة آيات القرآن في الصلاة اليومية أمور :
الأول : قراءة القرآن في الصلاة تفقه في الدين .

الثاني : تجدد العلوم المستنبطة من القرآن كل يوم وليلة ، وهو من الشواهد على أن القرآن معجزة عقلية متجددة إلى يوم القيامة ينهل من ذخائره المسلمون كل يوم ، وهو من الشواهد على قوله تعالى ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢).

(ما روى عن الحرث أنه قال : دخلت المسجد فإذا الناس قد وقعوا في الأحاديث ،

فأتيت علياً كرم الله وجهه فقلت : ألا ترى أن الناس قد وقعوا في الأحاديث؟

فقال : وقد فعلوا؟

فقلت : نعم،

فقال : أما أني سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

إنها ستكون فتنة قال : قلت : فما الخروج منها يا رسول الله؟

(١) سورة العنكبوت ٢.

(٢) سورة النحل ٨٩.

قال : كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل ليس بالهزل،

من تركه من جبار قصمه الله ومن ابتغى الهدى في غيره أضله الله، فهو حبل الله المتين وهو الذكر الحكيم وهو الصراط المستقيم وهو الذي لا تزيف به الأهواء ولا تلتبس به الألسن ولا يشبع منه العلماء ولا يخلق عن كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه وهو الذي لم تنته الجن إذا سمعته إلا أن قالوا { سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا }^(١).

من قال به صدق ومن عمل به أجر ومن حكم به عدل ومن دعا إليه هدى إلى صراط مستقيم خذها إليك يا أعور^(٢).

الثالث : بعث المسلمين على أداء الزكاة والقيام بالصيام وحج بيت الله الحرام .

الرابع : كل آية من القرآن تذكير بوجوب عبادة الله ، ودعوة لإستحضار عالم الآخرة والحساب فيها .

ومن مصاديق سور الموجبة الكلية (كل) الوارد في الآية أعلاه من سورة النحل إحاطة علوم القرآن بمستحدثات المسائل وبما يجعل العلماء يستقرأون ويستنبطون الحكم الشرعي منه ، وتلقي عامة المسلمين لهذا الإستنباط بالقبول والرضا لنضيف علماً جديداً وهو أن الأحكام المستقراة من القرآن لا تنحصر بالعلماء إنما تكون تلاوة كل مسلم ومسلمة للقرآن في الصلاة مرآة وحرزاً وفقاهة ورقياً على العلماء في استنباطهم ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾^(٣).

(١) سورة الجن ١.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٢١٤/٣.

(٣) سورة آل عمران ١١٠.

ومن الإعجاز والغايات الحميدة في وجوب تلاوة كل مسلم ومسلمة القرآن سبع عشرة مرة في الصلاة اليومية وجوباً عينياً ليصير المسلمين مؤهلين لمقامات الإطلاع على كيفية استنباط العلماء للمسائل الشرعية ، وملائمتها لآيات القرآن .

فان قلت قد ورد قوله تعالى ﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾^(١).

والجواب لا تدل هذه الآية على حصر التفقه في علوم الدين بطائفة من العلماء ، إنما تعني الإمامة والإختصاص والتفرغ للفقهِ وأحكامه مع مقامات المعرفة التي صار عليها المسلمون بتلاوة القرآن والتدبر في آياته ومعانيها وما تحتويه في ثناياها من الفيوضات الربانية ، ويدل عليه الإطلاق في قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(٢) ، وهذا الإطلاق شامل للجهات والأشخاص وكيفية الفعل .

ويحتمل تقدير الآية أعلاه على وجوه :

الأول : كل آية من القرآن تهدي للتي هي أقوم .

الثاني : بعض آيات القرآن يهدي للتي هي أقوم وبعضها الآخر تهدي للتي هي أقوم باجتماعها مع آيات قرآنية أخرى .

الثالث : الجمع بين كل آيتين أو ثلاثة من القرآن يهدي للتي هي أقوم^(٣).

(١) سورة التوبة ١٢٢.

(٢) سورة الإسراء ٩.

(٣) أنظر الجزء العشرين بعد المائة الذي جاء صلة الآية (١٥٢) بالآية التي قبلها من سورة آل عمران .

الرابع : القدر المتيقن من الآية والجمود على النص ، وأن القرآن
بمجموع آياته يهدي للتي هي أقوم.

الخامس : تهدي الآية القرآنية للأقوم بخصوص موضوع محصور .
والمختار هو الأول وأن كل آية من القرآن تهدي للتي هي أقوم ، إذن
ما هي الحجة والبرهان على هداية كل من آية البحث والسياق للتي هي
أقوم الجواب أما آية البحث فانها تهدي للتي هي أقوم من وجوه :
الأول : إختيار القول الخالي من شوائب الضلالة .

الثاني : إجتنب الرذائل .

الثالث : لما أخبرت آية البحث عن علم الله عز وجل بما يقوله الناس ،
وسخطه تعالى على الذين يقولون السوء ويتعدون على مقام الإلوهية
بحوداً منهم بالنعم فان المسلمين والذين ينصتون إلى آيات القرآن يجتنبون
قول السوء قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ
وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾^(١).

وهو من أسرار تلاوة المسلمين لآيات القرآن في الصلاة ، والجهر
بالتلاوة في صلاة الصبح والمغرب والعشاء ليستمع كل من :
الأول : المسلم الذي قرأ ذات الآية ، فيكون هذا الإستماع تأكيد
لتلاوته ..

الثاني : المسلم الذي لم يتل هذه الآية فيكون الإستماع تذكيراً له ،
بالمضامين القدسية الآية القرآنية ، وهو من الإعجاز في قوله تعالى ﴿وَإِذَا
قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٢).

(١) سورة النساء ١٤٨.

(٢) سورة الأعراف ٢٠٤ .

الثالث : الذي لم يصل من أهل الكتاب وغيرهم لبيان أن آيات القرآن التي تتجلى في الصلاة شاهد على إعجاز في الصلاة شاهد على إعجاز القرآن وباعث على الصلاح ، ومن خصائص الشرائع السماوية التقاؤها في أمور :

الأول : درء المفسد.

الثاني : جلب المنافع.

الثالث : وجوب العبادة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ

الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١).

الرابع : الإيمان بالله والرسل والملائكة.

الخامس : الإقرار باليوم الآخر ، وعالم الحساب.

ولو استمع الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) للمسلمين وهم يتلون آية البحث في الصلاة فهل يكفون عن هذا القول القبيح ، الجواب نعم ، ولو على نحو الموجبة الجزئية ، فمن معاني آية البحث وخطابها للذين قالوا هذا القول وجوه :

الأول : بيان قبح القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣).

الثاني : دعوة الذين قالوا هذا القول إلى التوبة والكف عنه .

الثالث : إخبار الناس بأن الله عز وجل يسمع ويحصى ما يقولون ، وأنه سبحانه لا يرضى بصدور القول السيئ منهم ، وفي التنزيل ﴿لَا يَجِبُ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظَلَمَ﴾^(٤).

(١) سورة الذاريات ٥٦.

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

وقيل نزلت الآية أعلاه في رجل ضاف قوماً فلم يطعموه فأصبح شاكياً منهم ، فعوتب على هذا الشكاية فنزلت هذه الآية نصرة له ، وقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ من الجهر بالسوء لذا نزلت آية البحث للزجر عنه .

المسألة السابعة : ذكرت آية السياق تطويق أعناق الذين ييخلون بالحقوق الشرعية بشجاع فلكل واحد منهم هناك أفعى ينتظره ليטوق رقبته ويكون ملازماً له ، يسأله أن يخفف عنه أو أن يتركه لساعة يستريح فيها ، ولكن هذا الأفعى مأمور بعدم مفارقة البخل بحق الله وحق الفقراء .

وذكرت آية البحث الذين ييخلون بما آتاهم الله من المال والرزق الوفير ، ويفترون ويكذبون ، ويدعون ما ليس لهم بأن يقولوا (نحن اغنياء) مما يدل على أن عقوبتهم يوم القيامة أشد وأمر من عقوبة الذين يقفون عند البخل بالحق الشرعي ، إذ يجمع الذين ذكرتهم آية البحث البخل الذي ذكرته آية السياق إلى جانب الإفتراء والتكذيب والظلم مع هذا البخل مما يدل على أن عقوبة تطويق الأعناق بالأفاعي لا تخطئهم ، فهي تشملهم إلى جانب عقوبة أخرى ، وأيهما أشد عقوبة البخل بالحقوق الشرعية أم القول إن الله فقير وهم أغنياء فيه وجوه :

الأول : عقوبة البخل بالحقوق الشرعية هي الأشد والأمر .

الثاني : عقوبة التعدي على مقام الربوبية وقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) ،

هي الأشد ، إذ يرى الناس جميعاً يوم القيامة مصاديق لامتناهية لما ورد في التنزيل ﴿لَمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٢) .

(١) سورة النساء ١٤٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة غافر ١٦ .

الثالث : التساوي في العقوبة بين الذين ذكرتهم آية السياق والذين ذكرتهم آية البحث .

والصحيح هو الثاني ، وهو من الإعجاز في نظم آيات القرآن ومجئ آية البحث وهي الآية التي تذكر قول الجحود بأن الله عز وجل فقير بعد آية السياق التي تدم وتلوم الذين ييخلون بما أنعم الله عز وجل عليهم من حقه تعالى بالرزق الوفير ، وفي هذا النعمة دعوة لهم للتزهد عن البخل بالزكاة والصدقات ، وعدم التعدي في القول والفعل .

المسألة الثامنة : لقد ذكرت كل من آية البحث والسياق عالم الآخرة ويوم القيامة ، وهو من الإعجاز في كل منهما ، بحيث تذكر سوء فعل ومعصية ، وما يترتب عليها من العقاب في الآخرة .

لقد ذكرت آية السياق عالم الآخرة من جهات :
الأولى : ذكر يوم القيامة بالاسم وسمي يوم القيامة لقيام الناس للحساب .

الثانية : بيان عاقبة الذين ييخلون بحجب الحقوق الشرعية بقوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾^(١) ، لبيان قانون وهو أن كل ذنب ومعصية له عقوبة خاصة يوم القيامة وأن الله عز وجل جعل عقوبة البخل بالحقوق الشرعي يوم القيامة تطويق العنق بأفعى ويحتمل هذا الأفعى وجوهاً :

الأول : إنه من المخلوقات في الحياة الدنيا إذ تحضر الحيوانات أيضاً في المحشر للشهادة والإقتصاص ، وهو على شعبتين :

الأولى : يخصص أفعى للذي ييخل في الحقوق الشرعية مما كان مخلوقاً في زمانه .

الثانية : يخصص أفعى لكل من ييخل بالحقوق الشرعية من غير الزمان الذي خلق منه .

الثاني : إنه مخلوق خاص يوم القيامة ليقوم بوظيفة ، وهي تطويق عنق الذي بخل بالحقوق الشرعية .

الثالث : إنما يطوق الذي يبخل بالحقوق بذات ماله الذي تعلق به الزكاة والحق الشرعي لأن الآية تقول ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾^(١).

الرابع : ما يبخل به صاحب الحق الشرعي ويمتنع عن دفعه إلى مستحقه يكون شجاعاً وأفعى يطوق به .

والمختار هو الأخير أعلاه وجاء بالتنزيل ﴿هَذَا مَا كَنَزْتُمْ لِأَنفُسِكُمْ فَذُوقُوا مَا كُنْتُمْ تَكْذِبُونَ﴾^(٢).

فان قيل قد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : شجاع ، والجواب هذا صحيح ، ويكون الجمع بين ظاهر الآية وبين قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم أعلاه هو صيرورة المال والحق الشرعي المحبوس شجاعاً وعن (أبي هريرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل يوم القيامة شجاعاً من نار فيكوي بها جبهته وجبينه وظهره في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة حتى يقضى بين الناس)^(٣).

الثالثة : بيان آية السياق لقانون وهو ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٤)، فليس من مالك أو وريث يوم القيامة إلا الله سبحانه ، وفيه شاهد على عجز الناس يوم القيامة عن العمل وتسخير الأموال وبذلها .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة التوبة ٣٥.

(٣) السنن الكبرى للنسائي ٤٩٨/٦.

(٤) سورة الحديد ١٠.

فمن يخل بالزكاة والحقوق الشرعية في الحياة الدنيا يعجز عن التدارك والتعويض يوم القيامة لأنه ليس عندهم مال .

وتقدير الآية : ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله التدارك والإنفاق في الآخرة لأنه ليس عندهم مال ولا يستطيعون الإقتراض ولا ينتظرون ميراثاً لأن ملك السموات والأرض وميراثها كله لله عز وجل ، ويمكن التقدير في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، على وجوه :

الأول : والله عز وجل ميراث السماء الأولى .

الثاني : والله عز وجل ميراث السماء الثانية .

الثالثة : والله عز وجل ميراث السماء الثالثة .

الرابعة : والله عز وجل ميراث السماء الرابعة .

الخامسة : والله عز وجل ميراث السماء الخامسة .

السادسة : والله عز وجل ميراث السماء السادسة .

السابعة : والله عز وجل ميراث السماء السابعة .

الثامنة : والله عز وجل ميراث الأرض وما عليها .

سواء أعطى الناس الزكاة والخمس أو إمتنعوا عنه فإنه يعود إلى الله عز وجل .

الرابعة : إختتام آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢)، لما

فيه من الإنذار والوعيد وحضور أعمال العباد يوم القيامة بين يدي الله عز وجل .

(١) سورة الحديد ١٠.

(٢) سورة البقرة ٢٣٤.

عن ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : من اتبع كتاب الله هداه الله من الضلالة ، ووقاه سوء الحساب يوم القيامة ، وذلك أن الله عز وجل يقول : (فمن اتبع هداي فلا يضل ولا يشقى)^(١).

أما آية البحث فقد ذكرت يوم القيامة من جهتين :

الأولى : (ونقول) إذ أخبرت آية البحث عن قول الله عز وجل (ونقول ذوقوا) فيكون هذا القول يوم القيامة حجة ، وفيه بيان مسألة وهي معرفة المسلمين في الحياة الدنيا بما يقوله الله تعالى للجاحدين يوم القيامة وهو من علوم الغيب التي اطلع الله عز وجل المسلمين عليها .

الثانية : ذكرت آية البحث (عذاب الحريق) فهذا العذاب يكون في الآخرة ، ويكون تقدير الآية على وجوه :

الأول : ونقول ذوقوا عذاب الحريق لأنكم قلتم إن الله فقير .

الثاني : ونقول ذوقوا عذاب الحريق لأنكم قلتم إن الله فقير ونحن أغنياء ، ولو قالوا نحن أغنياء من غير ذكر نقول (إن الله فقير) فهل يضرهم هذا القول ، الجواب نعم ، إذا كان بإرادة التطاول والتعدي على مقام الربوبية ، والغرور والتجبر.

الثالث : ونقول ذوقوا عذاب الحريق لقتلكم الأنبياء ، وفيه تحذير وانذار لمشركي قريش ، ولمنعهم من خطط اغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وبذلهم الأموال من أجل قتله .

ومن خصائص الآية القرآنية التي تتضمن الوعيد أنها تشفي صدور المؤمنين ، وكأن الآيات التي تحث المسلمين على الصبر إنما تدعوهم لتحمل أذى المشركين والظلم والجور الذي يأتي من ناحيتهم ليلقوا العذاب يوم القيامة .

ويكون من وجوه تقدير قوله تعالى ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾^(١)، في خطاب وأمر من الله عز وجل إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم : اصبر حتى ترى العذاب يتغشى الذين كفروا.

ويكون الخطاب من الله عز وجل للمسلمين (اصبروا) أي أصبروا حتى ترون وقوع الذين كفروا في عذاب الحريق .

المسألة التاسعة : إبتدأت كل من آية البحث السياق بصيغة التأكيد ، فابتدأت آية البحث باللوم في قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِّ﴾^(٢) إذ ذهب النحويون للقول بأن اللام لام القسم ، والمختار أنها لام لام الإبتداء ، ومن معاني لام القسم انها تفيد التأكيد والقطع ، وكذا إبتدأت آية السياق بنهي الذين ييخلون بالحقوق الشرعية عن الظن والإعتقاد بأن الإمتناع ينفعهم ، إنما هو ضرر محض .

وتبين آية السياق وجود طائفة تبخل بالحقوق الشرعية مما يدل على بلوغ الأمر بالتكاليف لهم وأنهم تلقوها بالجدال والإمتناع من الإمتثال ، لقد امتنعوا عن أداء الصلاة والصيام والزكاة ، فجاءت آية البحث بمفهومها بوجوب دفع الحقوق .

ولتخبر الآية الذين يحبسونها بما ينتظرهم من العذاب بالتطويق بأفعى في أعناقهم وكذا آية البحث انها إبتدأت باخبار الله سبحانه عن سماعه لقول الذين امتنعوا عن دفع الزكوات والحقوق الشرعية فأخبرت الآية سوء عذابهم .

(١) سورة الأعراف ١٢٨.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

المسألة العاشرة : ذكرت آية السياق فضل الله عز وجل بقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) ويحتمل المقصود من فضل الله في آية السياق وجوهاً :

الأول : عامة رزق الناس ممن وسع الله عليه أو ضيق عليه ، قال تعالى ﴿اللَّهُ يَسْطُرُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾^(٢).

الثاني : إرادة الرزق الزائد عن المؤونة والحاجة مما تتعلق به الزكاة .

الثالث : الرزق غير المكتوب ، وكان الرزق على شعبتين :

الأولى : الرزق المقدر والمكتوب للإنسان ، وهو في رحم أمه ، وقبل أن يولد .

الثانية : الرزق غير المكتوب ، والذي يأتي لطفاً وجوداً من عند الله عز وجل ، فمن صفات الله عز وجل أنه يؤتي فضله كل مخلوق ، أي يرزقه ما يستحق وزيادة وهذه الزيادة أضعاف الإستحقاق ، وهي من أسرار التوارث بين الناس ، فتجد بعضهم يكثر من الإنفاق على نفسه وعياله ، ومع هذا تكون عنده أموال طائلة ، يفكر بايجاد طريق وكيفية لصرفها ولكنها تتضاعف وتتراكم فتفضل الله عز وجل وأمره بالزكاة والإنفاق في سبيل الله ، لتكون الزكاة ومقدارها من فضل الله عز وجل على الفقراء أنفسهم .

فيكون تقدير آية السياق : ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله يحجب فضله على الفقراء الذي جعل الله عز وجل شطرا منه يجري على أيديهم ، ولكنهم أمسكوا أيديهم فأبطأ عن الفقراء حقهم ، وحجبه الذين بخلوا به لذا فان إخبار الآية بأن هذا البخل شر لهم لما فيه من أمور :

(١) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٢) سورة الرعد ٢٦ .

الأول : الإمتناع عن الإمتثال لأمر الله.

الثاني : حبس الحقوق الشرعية عن أهلها .

الثالث : الإضرار بالفقراء يمنع وصول فضل الله إليهم مما كتبه في مال الأغنياء ، وعندما يحجب الأغنياء هذا الحق عن الفقراء فهل يرزقهم الله من فضله بما يعوض ما حبسه الأغنياء .

الجواب نعم ، لذا ورد في ذم الذين كفروا قوله تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ﴾^(١) والذين تذكرهم آية البحث يذمون أنفسهم من جهات وهي:

الأولى : قولهم ان الله فقير.

الثانية : نسبتهم الى الغنى ، ومن معاني الجمع بين قول ان الله فقير ، ونحن اغنياء ، قصدهم بأن غناهم يجهدهم وتديبرهم وسعيهم ، وأن الغنى لا يفارقهم ، وهم ميتون .

ومن أسماء الله عز وجل الباقي فهو الذي يبقى بعد فناء كل شئ ، وهو ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾^(٢).

الثالثة : سماع الله عز وجل لقبيح القول الذي ينطقون به وهو خلاف علة خلقهم ، قال سبحانه ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِعِبَادُونَ﴾^(٣) ولكنهم اختاروا الجحود .

الرابعة : كتابة الله عز وجل وتدوين الملائكة لقولهم إن الله فقير ونحن أغنياء .

الخامسة : إمتناع الذين جحدوا عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية .

(١) سورة آل عمران ٦٩ .

(٢) سورة الحديد ٣ .

(٣) سورة الذاريات ٥٦ .

المسألة الحادية عشرة : اختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١) ، وهل قول الجاحدين (ان الله فقير) من العمل المقصود في خاتمة آية السياق ، أم أن القدر المتيقن في الآية هو سخرية الأفعال ، دون الأقوال ، الجواب هو الأول ، وبين العمل والقول في المقام عموم وخصوص مطلق ، فكل قول هو عمل وليس العكس ، وتقدير خاتمة آية السياق بحسب مضامين آية البحث على وجوه :

الأول : قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ نوع عمل.

الثاني : قولهم ﴿نَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ عمل ، وينعكس على عالم الفعل للجاحدين.

الثالث : قتل الأنبياء بغير حق.

الرابع : الأعمال وعامة أفعال الذين كفروا ، وأقوالهم الأخرى التي تشير إليها آية البحث بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكُفُّ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ، وتقدير الآية :

الأول : لقد سمع الله كل أقوال الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء.

الثاني : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء وكل أقوالهم الأخرى.

الثالث : لقد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء ويسمع ما يقولون.

(١) سورة البقرة ٢٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

ويعلم الله عز وجل عمل وعاقبة كل إنسان ولو كان الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء يتوبون إلى الله عز وجل فهل يذكر القرآن قولهم هذا أم يستره ، الجواب هو الأول إذ أن ذات آية البحث سبب لتوبتهم وصلاحهم.

ويحتمل عدد وكثرة ﴿الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء﴾ وبعد نزول آية البحث وجوهاً :

الأول : عدد الذين قالوا (ان الله فقير ونحن أغنياء) قبل وبعد نزول آية البحث هو ذاته نفس العدد.

الثاني : عدد الذين ﴿قَالُوا إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١) بعد نزول آية البحث أقل من عددهم قبل نزولها.

الثالث : عدد الذين ﴿قَالُوا إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ بعد نزول آية البحث أكثر من عددهم قبل نزولها ، عناداً واستكباراً ، ولبلوغ الأبناء ، ومحاكاتهم الآباء في أقوالهم ، وفي التنزيل ﴿فَلَمَّا آتَاهُمُ مِنْ فَضْلِهِ بَخِلُوا بِهِ وَتَوَلَّوْا وَهُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٢).

الرابع : انقطاع الذين قالوا ﴿قَالُوا إِنْ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) بعد نزول آية البحث .

والمختار هو الثاني أعلاه ، إذ صار عددهم في نقصان وهو من الإعجاز الغيري للآية القرآنية ، فلا بد أن يكون للآية أثر ظاهر وجلي ، خاصة وأن الآية أخبرت عن سماع الله عز وجل لقولهم ، ودلالة هذا

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة التوبة ٧٦.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

الإخبار عن سخط الله عليهم ، ثم أن الناس جميعاً يدركون قانوناً وهو أن الله عز وجل هو الغني .

لقد تضمن القرآن الحث على الصبر والرضا بما قسم الله ، وزجرهم عن اتباع النفس الشهوية ، قال تعالى ﴿وَمَنْ جَاهَدْ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(١).

لقد نزلت آية البحث لفضح الجاحدين ، وهي دعوة للناس جميعاً لإستهجان قولهم ، وعدم الرضا عليهم ومن معاني آية البحث أنهم كانوا يجهرون بقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ويحتمل حالهم بعد نزول آية البحث وجوهاً :

الأول : ذات الإجهار في قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾.

الثاني : قيامهم بالجدال والمغالطة وكيف أنهم أغنياء ، وأن الله عز وجل سألهم أن يقرضوه من مالهم ، قال تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَاعِفَهُ لَهُ أَضْعَافًا كَثِيرَةً وَاللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾^(٢).

الثالث : الكف عن الإجهار بقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ، والمختار هو الثالث أعلاه ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣).

ومن ملك الله المطلق تصحيح عالم الأقوال وجعلها تتصف بالصلاح ، وتهذيب الألسن واستئصال الأقوال القبيحة .

(١) سورة العنكبوت ٦.

(٢) سورة البقرة ٢٤٥.

(٣) سورة آل عمران ١٨٩.

ومن الإعجاز في تلاوة كل مسلم ومسلمة القرآن سبع عشرة مرة في الصلاة والجهر في أكثر ركعات الصلاة غلبة قول الحق على الباطل وفضح الكذب والإفتراء على الله ، لتصل آية البحث إلى كل المجتمعات وتنفذ إلى شغاف القلوب ، وتقرب الناس إلى سبل الإيمان وتدعو ﴿الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ إلى التوبة والإنابة وتجعلهم في حال استحياء وندامة على قولهم .

بحث عقائدي

لقد ورد ذكر لفظ الجلالة ثلاث مرات في آية السياق من جهات :
الأولى : ما عند الناس من النعم فضل من الله عز وجل ، والنسبة بين فضل الله في الدنيا وبين النعم هو العموم والخصوص المطلق ، ففضل الله أعظم وأكبر ، وفي التنزيل ﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ﴾^(١) .

إن الهداية والإقتداء بالأنبياء فضل من عند الله ، وهو خير مما يجمع من الأموال وحطام الدنيا ، ومن خصائص الآية القرآنية أنها تبعث على التقوى وتقود الإنسان نحو سبل الهداية (عن ابن عباس أن النبي عليه السلام كان إذا قرأ هذه الآية : فألهمها فجورها وتقواها)^(٢) .

رفع صوته : اللهم آت نفسي تقواها ، أنت وليها ومولاها ، وأنت خير من زكّاها)^(٣) .

الثانية : بيان قانون البخل بالحقوق الشرعية لم يمنع توالي الفضل من عند الله سبحانه .

(١) سورة يونس ٥٨ .

(٢) سورة الشمس ٨ .

(٣) النكت والعيون ٤/٤٢٤ .

وفيه تأديب للناس بأن كثرة النعم عند الكافر لا تعني أنه غني بجهده وسعيه إنما هو من فضل الله ، ليكون قوله تعالى ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(١) ، مقدمة لمضامين آية البحث ، وما فيها من التوبيخ للذين يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢).

وكان آية السياق تقول لهم إنما أنتم أغنياء بفضل الله ، ولولا فضله لما كنتم أغنياء وهو الذي خلقكم وانشأكم في الأرحام ، ويدفع عنكم أسباب الأذى ولا يخرجكم من دائرة احسانه ولطفه، قال تعالى ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾^(٣).

و(عن ابن مسعود وناس من الصحابة . في قوله { هو الذي يصوركم في الأرحام كيف يشاء }^(٤) قالوا : إذا وقعت النطفة في الأرحام طارت في الجسد أربعين يوماً ، ثم تكون علقة أربعين يوماً ، ثم تكون مضغة أربعين يوماً . فإذا بلغ أن يخلق ، بعث الله ملكاً يصورها فيأتي الملك بتراب بين اصبعيه ، فيخلط فيه المضغة ، ثم يعجنه بها ، ثم يصوره كما يؤمر ، ثم يقول أذكر أم أنثى ، أشقي أم سعيد ، وما رزقه ، وما عمره ، وما أثره ، وما مصائبه ، فيقول الله . . . ويكتب الملك . فإذا مات ذلك الجسد دفن حيث أخذ ذلك التراب)^(٥).

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الرعد ١١.

(٤) سورة آل عمران ٦.

(٥) الدر المنثور ٢/٢٧٧.

وهل الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية من السعادة لأنه حفظ وإمسك للمال أم أنه من الشقاوة لأنه معصية ، الجواب هو الثاني ، وهو مصيبة تحل بالفرد باختياره .

فجاءت آية البحث والسياق لإنتقاذ الناس من هذه المصيبة بيعتهم على دفع الزكاة والإلتفاق في سبيل الله ، ومن فضل الله ان الإنسان حالماً يدفع الحقوق الشرعية يرى البركة في ماله وبدنه وتصرف عنه المصيبة والبلاء .

الثالثة : بيان قانون من الإرادة التكوينية وهو أن كل ما في الأرض والسموات يعود ميراثه لله عز وجل إذ ينقطع القول بين الناس بالنفخ في الصور ، وتدرك الملائكة هذا القانون فليس عندهم طمع ولا يقع بينهم خلاف وخصومة على ملك أو أرض أو زراعات ، وهل يتمنى الملائكة أن تكون عندهم أموال فيخرجون زكاتها ، الجواب لا دليل عليه ، فمن خصائص الملائكة إنقطاعهم للتسبيح والعبادة ، قال تعالى ﴿وَكَمْ مِنْ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ * يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ لَا يَفْتُرُونَ﴾^(١) ولا يستحسرون أي لا يتعبون ولا يملون ولا ينقطعون عن العبادة ، وعندما احتجوا على خلافة الإنسان احتجوا بقيامهم بالتسبيح والتقديس ، كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾^(٢).

وفيه احتجاج على الذين يخلون بالحقوق الشرعية ، وكأن الآية تقول لهم :

الأول : إذ كان ميراث السموات والأرض لله عز وجل فلماذا هذه الشحة والمنع للحقوق الشرعية .

(١) سورة الأنبياء ١٩-٢٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

الثاني : ميراث السموات والأرض لله عز وجل وليس لأبنائكم وذرائعكم ، قال تعالى ﴿ إِنَّا نَحْنُ نُزِثُ الْأَرْضَ وَمَنْ عَلَيْهَا ﴾^(١).

الثالث : لله عز وجل ميراث السموات والأرض فليصله انفاقكم في سبيل الله ، وإخراجكم الحقوق الشرعية .

الرابع : من خصائص الحياة الدنيا أن الإنسان يغادرها قهراً وليس له إلا عمله .

وكما تحت الآية على إخراج الزكاة ودفعها إلى المستحقين ، وتبين قانوناً وهو أن ميراث الأرض كلها لله عز وجل ، جاء القرآن بقوانين الميراث ومراتبه بما يمنع من الفرقة والاجتهاد خلاف النص ، وحث المسلمين على عدم غبن الوارث أو حرمانه من التركة (عن أنس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من قطع ميراث وارثه قطع الله ميراثه من الجنة يوم القيامة .

وأخرج البيهقي في البعث من وجه ثالث عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : من قطع ميراثاً فرضه الله ورسوله قطع الله به ميراثه من الجنة)^(٢).

الرابعة : اختتمت آية السياق بقانون وهو إحاطة الله عز وجل علماً بأحوال الناس وما يلائمهم وما يصلح أمورهم ، لقوله تعالى ﴿ وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَكْمُلُونَ ﴾^(٣) ، لبيان أن الله عز وجل أنعم على الناس جميعاً بفضله وإحسانه وهو يعلم أن شطراً من أصحاب الأموال يمتنعون عن دفع

(١) سورة مريم ٤٠.

(٢) الدر المنثور ٥٥/٢.

(٣) سورة آل عمران ١٥٣.

الزكوات ولا ينفقون في سبيل الله ويظنون أن هذا الإمتناع خير لهم ، ترى ما هي مصاديق الخير التي يظنها هؤلاء ، فيه وجوه :

الأول : بقاء مال الزكاة ملكاً لذات الشخص ما دام لم يخرجها ويدفعها للمستضعفين الذين هم في عوز وفاقه .

الثاني : إدخار المال لساعة الحاجة ، واحتمال العوز والفاقه .

الثالث : ترك المال للذرية إرثاً .

الرابع : توظيف المال المحجوب عن الفقراء في الشراء والتجارة والكسب .

الخامس : التفاخر والتباهي بكثرة المال ، وفي التنزيل ﴿وَقَالُوا لَنْحْنُ أَكْثَرُ

أَمْوَالًا وَأَوْلَادًا﴾^(١) ولو يعلمون بقانون وهو أن دفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله باب للتفاخر بالحق في الدنيا والآخرة ، فما شرع الله عز وجل الأحكام إلا لمنفعة العباد ، ومصالح الخلق ولدفع المضار عنهم .

وقيل ليس من علة غائبة لأفعال الله عز وجل لأن الغرض غاية يستلزم تحقق الكمال بتنجز الغرض وأن الله عز وجل منزّه عن النقص والحاجة إلى الغرض ، ولا أصل لهذا التعليل لما ثبت بأن الله عز وجل غني وغناه مطلق ، إنما تكون المقاصد لأجل مصلحة الخلق في النشاطين ، وهو الذي تدل عليه آية البحث والسياق ، وفي التنزيل ﴿مَنْ أَجَلَ ذَلِكَ كُتِبْنَا

عَلَىٰ بَنِي إِسْرَآئِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَهُمْ رَسُولُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنِ

كثيراً منهم بعد ذلك في الأرض لمُسْرِفُونَ ﴿١١﴾ ولم يرد لفظ ﴿أَجَلِ ذَلِكَ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

السادس : الخشية من الفقر والحاجة الطارئة .

ليكون من معاني ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾ ^(١٢) ، بلحاظ الوجه الأول أعلاه فإن حبس المال الزكوي سبب للإصابة بالعوز والفاقة ، وأن إخراجه ودفعه للمستحقين وصرفه في الوجوه الشرعية وسيلة مباركة لدفع العوز والفقر ، والمرض ، والآفة السماوية والأرضية ، وهو من الإعجاز بتسمية الزكاة لأن معناها النماء والزيادة مع أنها إخراج للمال وإصابة المال الشخصي بالنقص الظاهر .

وهل ينحصر النماء بدفع الزكاة بذات المال أم هو أعم ، المختار هو الثاني ، ففي الزكاة والخمس منافع عظيمة منها :

الأول : إطالة عمر دافع الزكاة لما في دفعها من الطمأنينة والرضا عن الذات ، والفضل من الله .

الثاني : راحة البال وحال السكينة ، وهو أمر جلي يدركه الإنسان حالما يدفع الحقوق الشرعية .

الثالث : نزول شآبيب الرحمة بطاعة الله بدفع الزكاة وبيان أن أحكام الشريعة رحمة ولطف من الله (عن أبي أمامة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن الله بعثني رحمة للعالمين وهدى للمتقين .
وأخرج أحمد وأبو داود والطبراني ، عن سلمان : أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : أيما رجل من أمتي سببته سبة في غضبي ،

(١) سورة المائدة ٣٢ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

أو لعنته لعنة ، فإنما أنا رجل من ولد آدم أغضب كما تغضبون ، وإنما بعثني رحمة للعالمين ، وأجعلها عليه صلاة يوم القيامة.

وأخرج البيهقي في الدلائل ، عن أبي هريرة قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنما أنا رحمة مهداة^(١).

الرابع : السلامة من الأدران ، فإن قلت قد يصاب دافع الزكاة بالمرض ، والجواب هذا صحيح ، وقد مرض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلا أن الذي يدفع من المرض بالزكاة أكثر من الذي يصيب دافع الزكاة وذريته .

الزكاة عقيدة ومنهاج

لقد وصف الذين تذكروهم آية البحث أنفسهم بأنهم أغنياء ، أي عندهم وفرة من المال ولكن آية السياق تؤكد بأن الأموال التي عندهم هي من فضل الله عز وجل لبيان مسألة وهي إن الله عز وجل ليس فقيراً وهو الذي ينعم على الناس ، وينهاهم عن الكفر ، قال تعالى ﴿إِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنْكُمْ وَلَا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ﴾^(٢) .

وهل دفع الزكاة من الأمانات التي ورد ذكرها بقوله تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(٣) ، الجواب نعم .

وإذا كان الذين جحدوا يظنون أن الغنى بالمال فإن غنى الله عز وجل مطلق من جهات :

الأول : غنى الله عز وجل في أفراد الزمان الطولية كلها الماضي والحاضر والمستقبل .

(١) الدر المنثور ١١٢/٧.

(٢) سورة الزمر ٧.

(٣) سورة النسا ٥٨.

الثاني : غنى الله عز وجل قبل وبعد أن يخلق الخلائق .

الثالث : الله عز وجل هو الغني عن أي شئ ، إذ أن الحاجة من خصائص عالم الإمكان ، والله عز وجل واجب الوجود ، هو خالق عالم الإمكان وغني عنه .

فإن قلت قد ورد قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) ، والجواب من القوانين الثابتة أن الله عز وجل غني عن عبادة الخلائق له ، مع وجوبها عليهم ، وعبادتهم لله عز وجل لله خير لهم في النشاطين ويكون تقدير الآية أعلاه على وجوه :

الأول : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون لينالوا الثواب العظيم .

الثاني : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون فيدفع عنهم البلاء .

الثالث : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ليفوزوا بالإقامة الدائمة في النعيم .

والعبادة بلغة لتحقيق غايات حميدة لنفع الناس مجتمعين ومتفرقين .

الرابع : وما خلقت الجن والإنس ليفسدوا في الأرض أو ليسفكوا الدماء إنما خلقتهم للعبادة .

الخامس : وما خلقت الجن والإنس للإرهاب وافشاء القتل إنما بعثتهم للإيمان والتصديق بالأنبياء .

السادس : وما خلقت الجن والإنس ليكفروا ويحسدوا بالنبوات إنما

خلقتهم ليعبدون ، قال تعالى ﴿إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ أَنْفُسَكُمْ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا﴾^(٢) .

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) سورة الإسراء ٧ .

إذ ورد لفظ (يعبدون) جامعاً مانعاً ، جامعاً لفعل الخيرات واتيان الواجبات والمستحبات ، ومانعاً من إرتكاب المعاصي والسيئات ، وفي الحديث القدسي عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم (ابن آدم تفرغ لعبادتي ، أملأ صدرك غنى ، وأسد فقرك ، وإلا تفعل ، ملأت صدرك شغلاً ، ولم أسد فقرك) ^(١).

السابع : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون لا للبخل بما آتاهم الله عز وجل.

الثامن : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون لا ليقولوا إن الله فقير .
التاسع : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون لفقرهم وفاقتهم فاغنيهم ، ولكن الذين كفروا قالوا ﴿وَمَخْنُ أَعْنِيَاءُ﴾ ^(٢).

العاشر : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون بذات الكيفية التي أمرتهم بها بواسطة الأنبياء والتنزيل .
الحادي عشر : وما خلقت الجن والإنس لاستعين بهم ، كما هو حال الناس في الدنيا إذ يسخر الملوك والسادات العبيد في الزراعة والصناعة وضروب الكسب .

لذا جاءت الآية التالية بغنى الله عن الرزق والإطعام ، إذ قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَنْ يُطْعَمُوا﴾ ^(٣).

والجن : جنس من الخلائق يستتر عن أعين الناس ، ويأتيهم رزقهم من عند الله عز وجل ليقروا بالعبودية له سبحانه طوعاً وقهراً .

(١) الدر المنثور ٣٠٣/٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة الذاريات ٥٦-٥٧ .

وبدل أن يبادر الذين كفروا إلى التوبة والإنابة ويتحلوا بصبغة الإيمان فإن فريقاً منهم قاموا بحبس الحقوق الشرعية وفريقاً قالوا إن الله فقير . وهل يعلم الناس أنهم خلقوا للعبادة ، الجواب نعم ، إذ أخذ الله عز وجل العهد على الناس في عالم الذر ، وأقام الحجة عليهم بواسطة النبوة والتنزيل ، وما رزقهم من العقل ، وآتاهم من النعم الظاهرة والباطنة ، ومنها آية البحث والسياق في ذم الذين كفروا ، وبيان قبح حبسهم الزكاة ، قال تعالى ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا أَنْ تَقُولُوا يَوْمَ الْقِيَامَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَذَا غَافِلِينَ ۝﴾^(١).

ومن إعجاز القرآن أن كل آية منه تدعو الناس إلى عبادة الله عز وجل ومنه آية البحث والسياق ، إذ تبين كل واحدة منهما القبح الذاتي والغيري لحبس الحقوق ، ولقول الزور والجحود .

تتضمن كل من آية السياق والبحث في مفهومها شكر الله عز وجل للمؤمنين الذين يخرجون الزكاة ويدخلون السرور إلى قلوب الفقراء ويصبح دفعهم الزكاة إلى الفقراء عوناً لهم في عبادتهم لله عز وجل ، ويكون تقدير آية (ليعبدون) في المقام على وجوه :

الأول : وما خلقت الجن والإنس إلا ليدفعوا الزكاة وهل على الجن زكاة ، أم أن هذا الحكم خاص بالناس وحدهم لوجود المكاسب عندهم ، ووجود طائفة منهم أغنياء ، وأخرى على الضد منها فقراء .

المختار هو الثاني ، فحكم الزكاة لخلافة الإنسان في الأرض وورد في التنزيل على لسان الجن ﴿وَأَنَّا مِنَّا الصَّالِحُونَ وَمِنَّا دُونَ ذَلِكَ كُنَّا طَرَائِقَ قَدَرًا﴾^(١).

الثاني : وما خلقت الجن والإنس ليقول الجاحدون ان الله فقير ونحن أغنياء .

الثالث : وما خلقت الجن والإنس إلا ليتلقى الفقراء الصدقة والعون من الأغنياء فيحتسب هذا التلقي عبادة ، وهو مقدمة لمصاديق أخرى من العبادة ، فدفع الزكاة عون في أداء الفرائض لكل من :

الأول : دافع الزكاة .

الثاني : أسرة دافع الزكاة .

الثالث : متلقي الزكاة هو وأسرته .

الرابع : الذي يرى ويسمع بدفع الزكاة .

لتكون العبادة بالزكاة مدرسة في الأخلاق ، وتنمية للملكة الصلاح ، وهو من مصاديق قول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم (بعثت لأتمم مكارم الاخلاق)^(٢) .

وفي الترغيب بالزكاة ودفعها قال تعالى ﴿خُذُ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ

عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾^(٣) . ويحتمل المراد من العفو في الآية أعلاه وجهين :

أولا : العفو والتجاوز عن السيئة بخصوص أخلاق وأعمال الناس وبه قال مجاهد وابن الزبير^(٤) (عن جابر قال : لما نزلت هذه الآية { خذ العفو

(١) سورة الجن ١١.

(٢) الكشف والبيان للثعلبي ٣٣٢/٢٣.

(٣) سورة الأعراف ١٩٩.

(٤) الكشف والبيان للثعلبي ٤٩٧/٥.

وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين { قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم يا جبريل ما تأويل هذه الآية؟ .

قال : حتى أسأل . فصعد ثم نزل فقال : يا محمد إن الله يأمرك أن تصفح عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك . فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم : ألا ادلكم على أشرف أخلاق الدنيا والآخرة؟ قالوا : وما ذاك يا رسول الله؟ .

قال : تعفو عمن ظلمك ، وتعطي من حرمك ، وتصل من قطعك . وأخرج ابن مردويه عن قيس بن سعد بن عبادة قال : لما نظر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى حمزة بن عبد المطلب قال والله لأمثلن بسبعين منهم . فجاءه جبريل بهذه الآية { خذ الغفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين } فقال : يا جبريل ما هذا؟ قال : لا أدري . . . ! ثم عاد فقال : إن الله يأمرك أن تعفو عمن ظلمك ، وتصل من قطعك ، وتعطي من حرمك ^(١) .

ثانياً : ما عفا وزاد من أموال الناس مما فضل عن نفقة العيال ، هذا قبل آية الصدقات فلما نزلت آية الصدقات وفريضة الزكاة نسخت هذه الآية ، وفي قوله تعالى ﴿وَأَعْرَضَ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ ^(٢) أي مشركي قريش ، وقيل نسختها آية السيف ، والمختار ان الآية غير منسوخة .

(قال الإمام جعفر الصادق عليه السلام : أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وآله وسلم بمكارم الأخلاق وليس في القرآن آية أجمع لمكارم الأخلاق من هذه الآية) ^(٣) .

(١) الدر المنثور ٤/٣٩٢ .

(٢) سورة الأعراف ١٩٩ .

(٣) الكشف والبيان للثعلبي ٥/٤٩٧ .

ويرى الغني صبر الفقير على الجوع والفقر فيتعظ منه ، ويحس الفقير بإقامة الغني عن عبادة الله عز وجل وإخراجه الزكاة طاعة وخضوعاً لله عز وجل وامثالاً لأوامره فيحرص على عبادة الله عز وجل ويسخر النعم التي عنده في مرضاة الله عز وجل فيقتبس منه ما فيه الخير والصلاح ، وهل هو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾^(١) الجواب نعم بلحاظ وقانون وهو أن الله عز وجل يهيئ للناس مقدمات وأسباب العبادة والصلاح .

الرابع : وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون بالأسباب والمدد الذي أنعم به عليهم في المال الزكوي وزيادة الرزق على المؤونة بفضل وإحسان من عند الله عز وجل .

ومن الإعجاز في آية السياق إخبارها عن كون مقدار الزكاة الذي يخرجها صاحبه هو من فضل الله عز وجل عليه .

ترى لماذا قالت آية السياق ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) ، وذكرت خصوص فضل الله عز وجل ، الجواب أن المال الزكوي ومقدار الخمس جزء من فضل كثير أنعم به الله عز وجل على العبد غير مكتوب له من الرزق

ولقد ورد ذات النص بخصوص شهداء معركة بدر ومعركة أحد بقوله تعالى ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيُسَبِّحُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يُلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(٣) .

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٧٠ .

ولم تذكر الآية أعلاه ماهية حياة الشهداء في عالم البرزخ وكيفية رزقهم ، وبينت آية أخرى عجز الناس عن إدراك سنخية هذه الحياة والشعور بها ، لقوله تعالى ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلْ أَحْيَاءُ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾^(١).

ليبان عظيم النعمة على الأغنياء في الدنيا بأن رزقهم الله من فضله وإحسانه مما يلزم الشكر لله عز وجل باخراج الزكاة .
ويكون المال الذي عند العبد على أقسام :

الأول : مال ورزق يحتاج إليه في الضرورات والواجبات والمستحبات .
الثاني : الرزق النافلة عند الإنسان والزائد منها ينفق على نفسه وعياله فتكون عنده وفرة وزيادة ، وهو من أسرار أنظمة الميراث بين الناس وهو الوفرة ظاهرة وحلية في كل زمان .

الثالث : ما يأتي للإنسان بفضل من الله عز وجل مما لا يكون بالحسبان .

الرابع : حق الله ومن الناس من يكتم النعم التي رزقهم الله ويجعله مقدمة للإمتناع عن دفع الزكاة والصدقات ، وهو من الجحود والكف كما يدل عليه قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(٢).

لقد أخبرت آية السياق بأن الإمتناع عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية أمر ضار بأصحابه وهو شر لهم ويجلب لهم الأذى ، أما دفع الزكاة فإنه خير محض لصاحبه وذويه لعدم إجتمع الضدين ، وإذ أخبرت آية السياق عن كون الإمتناع عن دفع الزكاة شراً لأصحابه فإنها تدل في مفهومها على

(١) سورة البقرة ١٥٤.

(٢) سورة النساء ٣٧.

أن دفع الزكاة خير محض ، ونفع دائم ، ولا يختص الدليل عليه بمفهوم آية السياق إنما يدل على كون دفع الزكاة خيراً الكتاب والسنة ، ومن الآيات في المقام قوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ (١) .

أما السنة النبوية فقد ورد ﴿ عن ابن عباس : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم بعث معاذاً إلى اليمن فقال : إنك ستأتي قوماً أهل كتاب ، فإذا جئتهم فادعهم إلى أن يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله ، فإن هم أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله قد فرض عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لذلك فاعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة تؤخذ من أغنيائهم فترد على فقرائهم ، فإن هم أطاعوا لذلك فأياك وكرائم أموالهم ، واتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب ﴾ (٢) .

ومن أنكر وجوب الزكاة كحديث العهد بالإسلام ، أو أنه لم يطلع على أدلة الوجوب ، يبين له وجوبها ، وكيف أن أدلته ظاهرة في الكتاب والسنة وعليها الإجماع ، أما من منعها بخلاً مع إقراره بوجوبها فيؤمر بدفعها مع بيان منافعها له في النشأتين ، وهو الذي تدل عليه آية البحث والسياق منطقاً ومفهوماً ، وقيل تؤخذ منه قهراً ، ومنهم من أضاف التعزير .

وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال (ما من صاحب ذهب ولا فضة لا يؤدي حقها إلا جعلت له يوم القيامة صفائح ، ثم أحمي عليها في نار جهنم ، ثم يَكْوَى بها جبينه وجبهته وظهره في يوم كان مقداره

(١) سورة التوبة ١٠٣ .

(٢) الدر المنثور ٩٣/٢ .

خمسین ألف سنة حتى يقضي بين الناس ، فيرى سبيله إما إلى الجنة أو إلى النار^(١).

قانون تحقق التدبر بالتلاوة طوعاً وقهراً

لقد جاءت الآيات والنصوص بلزوم التدبر في قراءة القرآن ، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢) ليكون هذا التدبر نوع طريق للعمل بمضامين آيات القرآن واستحضارها عند الشروع بالفعل ، ولو يقوم قارئ القرآن بالتلاوة من غير قصد التلاوة فهل يحصل تدبر فيها ومعها أم أنها قراءة لا تتعدى التلفظ بها وأوانها .

الجواب هو الأول لبيان قانون وهو لا بد من تحقق التدبر في قراءة القرآن طوعاً أو قهراً ، نعم هذا التدبر من الكلي المشكك الذي يكون على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً .

ترى هل هناك ضابطة في هذا التدبر من جهة الكم والكيف الجواب نعم ، إذ تدور سعة وكثرة واستدامة هذا التدبر مدار الإيمان ، ويحتمل مقدار وكيف هذا التدبر وجوهاً :

الأول : التساوي في مقدار وكيفية التدبر سواء في حال الضراء أو السراء .

الثاني : التدبر في آيات القرآن ودلالاتها في حال الرخاء والسعة أكثر منه في حال الشدة والضيق لأن الإنسان يكون في حال الرخاء سعيداً .

الثالث : حال الشدة والضراء سبب لزيادة التدبر في آيات القرآن والإتعاظ وإقتباس الدروس منها .

الرابع : التدبر في آيات القرآن فضل من الله عز وجل لا يختص بحال دون حال .

(١) الدر المنثور ٥٩/٥ .

(٢) سورة محمد ٢٤ .

والمختار هو الأخير لتكون التلاوة والتدبر في آيات القرآن شكراً لله عز وجل في حال الرخاء ، ومواساة ورجاء وأملاً في حال الشدة والضيق . ترى ما هي النسبة بين الذكر والتدبر ، الجواب هو العموم والخصوص المطلق فالذكر أعم ، والتدبر فرع الذكر ، وهو أيضاً نوع طريق إلى الذكر . وقد ورد لفظ ﴿يَتَذَبَّرُونَ﴾ مرتين في القرآن على نحو الإستفهام الإنكاري وبصيغة الغائب ، والباعث على التدبر ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(١) ، ولم يرد لفظ تتدبرون في القرآن بصيغة الخطاب . ولا يختص التدبر ببلاغة القرآن إنما يشمل لزوم التصديق والإيمان والتسليم بالإعجاز الغيري للقرآن فيما يخص الشهود والعيان والوقائع والأحداث ، وهو من أسرار موضوعية أسباب النزول في آيات القرآن ، ومنه التفكير في بيان القرآن لماهية الدنيا وإخباره عن الدار الباقية واستدامة الخلود فيها مع التضاد بين نعيم أهل الإيمان وعذاب الذين كفروا ومنهم الذين منعوا الحقوق الشرعية وقرنوا هذا المنع بقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ كما في آية البحث .

ومن التدبر التفكير ببيان القرآن لبدیع صنع الله وسعة علمه وصدق صدور القرآن من عند الله ، والشكر لله على فضله . والتدبر : التفكير في ماهية الشئ ودلالته والنظر في عاقبته . وجاءت الآية بصيغة الغائب ﴿أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ﴾ لتدل في مفهومها على أن المسلمين يتدبرون القرآن والمقاصد السامية فيه ، ويعملون بأحكامه

وسنته ، وتقدير قوله تعالى ﴿أَفَلَا يَتَذَكَّرُونَ الْقُرْآنَ﴾^(١) بلحاظ كل من آية البحث والسياق على وجوه :

الأول : أفلا يتدبرون كل آيات القرآن .

الثاني : إخبار القرآن عن عظيم فضل الله على الناس .

الثالث : بيان القرآن لقانون وهو أن اتخاذ العبد الجحود والكفر لا يحجب فضل الله عنه لقوله تعالى ﴿بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) وفيه شاهد بأن الله عز وجل هو الغني الرحيم ، فمع غنى الله عز وجل تكون رحمته ورأفته وحلمه .

الرابع : إخبار آية السياق عن خلجات النفوس وما يعيشه الإنسان من الظنون .

وذكر العبد لله عز وجل سبب للرزق الكريم وما فيه دفع أو رفع للمرض وهو أمر ظاهر في هذا الزمان فالذي يمتلك المال يستطيع علاج المرض شبه المستعصي في أحسن مستشفيات العالم .

وذكر الله عز وجل طريق للرزق الكريم، وجمع الأموال ، قال تعالى ﴿فَإِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا * إِنْ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا﴾^(٣) والذي يتعهد ذكر الله عز وجل يحرص على إخراج الزكاة والخمس المتعلق بماله فيكون هذا الإخراج طمأنينة وسكينة ، لبيان قانون وهو تحقق طمأنينة القلوب من وجوه :

(١) سورة محمد ٢٤.

(٢) سورة آل عمران ١٧٠.

(٣) سورة الشرح ٥-٦.

الأول : ذكر الله عز وجل حرز من مفاهيم الضلالة ، قال تعالى ﴿وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ﴾^(١) .

الثاني : تهذيب القول والفعل بذكر الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿أَتْلُمَا أُوحِيَ إِلَيْكَ مِنَ الْكِتَابِ وَأَقِمِ الصَّلَاةَ إِذَا الصَّلَاةُ نَهَتْكَ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ وَاللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَصْنَعُونَ﴾^(٢) .

الثالث : ذكر الله عز وجل سبب لحسن المعاملة مع الناس ، ومن الناس .

الرابع : ذكر الله واقية من الشيطان ، وأمن من مكروه وكيد ، قال تعالى ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَنْ يُوقِعَ بَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ فِي الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَعَنِ الصَّلَاةِ﴾^(٣) .

الخامس : الإجماع على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وذات ذكر الله عز وجل أمر بالمعروف ونهي عن المنكر ، والقيام بالأمر والنهي هذا سبب لطمأنينة القلوب ، ليكون من الإعجاز في أحكام الشريعة أن أياً من الفردين منها يهدي ويقود إلى الآخر من غير أن يلزم الدور بينهما خير محض ، قال تعالى ﴿لَا خَيْرَ فِي كَثِيرٍ مِنْ نَجْوَاهُمْ إِلَّا مَنْ أَمَرَ بِصَدَقَةٍ أَوْ مَعْرُوفٍ أَوْ إِصْلَاحٍ بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٤) .

(١) سورة الزمر ٤٥ .

(٢) سورة العنكبوت ٤٥ .

(٣) سورة المائدة ٩١ .

(٤) سورة النساء ١١٤ .

وتتضمن الآية أعلاه النذب والحث على الأمر بالزكاة ، والترغيب بالصدقة والإحسان ، وهل تلاوة آية البحث والسياق من الأمر بالصدقة ، الجواب نعم ، وهو من إعجاز القرآن إذ تكون الآية القرآنية من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر .

بحث كلامي

لقد ذكرت آية السياق فضل الله على الذين جمعوا الأموال ثم امتنعوا من اخراج زكاتها والتصدق منها ، بينما أثنى الله على المؤمنين الصابرين بقوله تعالى ﴿فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يُلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾^(١) ، وذكرت آية البحث فضل الله وبالدلالة والأثر والقرينة لقول الذين جحدوا بنعمة الثروة والمال (ونحن اغنياء) فلم يصبحوا اغنياء إلا بفضل الله تعالى ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾^(٢).

ترى لماذا جعلهم الله عز وجل أغنياء حتى تهادوا في الغي وقالوا هذا القول ، الجواب من وجوه :

الأول : إنه من غنى الله عز وجل عن العباد وأن أي قول أو فعل لن يضره الله به شيئاً .

الثاني : بيان مصداق لقانون الإبتلاء والإمتحان في الدنيا ، وتخلف طائفة من الناس عن النجاح فيه .

(١) سورة آل عمران ١٧٠.

(٢) سورة الذاريات ٥٨.

الثالث : إقامة الحجة على الذين كفروا وأهل العناد بأن الله عز وجل ينعم عليهم النعم العظيمة ، ولكنهم يظهرون الجحود بها.

الرابع : بعث الناس على الإعتاظ ونبذ القول السيئ .

الخامس : تأكيد قانون وهو حاجة الناس لبعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول آيات القرآن ، ومن منافع التنزيل إصلاح اللألسن ، وتهذيب المنطق ، وجعله نقياً خالياً من عبارات الجحود والتعدي على مقام الإلهوية .

السادس : إرادة اصلاح المجتمعات ، وتقويم الإعوجاج ، فنزلت آية تبين ضروب الضلالة في قول أو فعل ليجتنبه الناس إلى يوم القيامة.

لقد أدعى فرعون وحمود ونحوهما الربوبية فابتلاهم الله بالهلاك المبالغت ، وأزال ملكهم ، قال تعالى ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾^(١) ، ليأتي التنزيل ويوثق إدعاءهم هذا ويبين بطش الله عز وجل بهم الى جانب نزول الآيات التي تؤكد الوجدانية ، وتنتهي عن مفاهيم الشرك الظاهر فانقطع القول بادعاء الربوبية إلى يوم القيامة .

فما من ملك أو سلطان إلا وهو يقر بالربوبية لله عز وجل ، وهو من بركات النبوة والتنزيل ، وحاجة الناس لهما مجتمعين ومتفرقين ، وجاءت آية البحث لاستئصال القول القبيح من ثلاث جهات كما يأتي في باب تفسير ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَنٌ أَعْيَاءُ﴾.

ومن معاني الجمع بين آية البحث والسياق بيان تمادي الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله في غيهم وتعديهم ليكون من اللطف الإلهي بالناس

نزول الآيات التي تحول دون الإفراط والزيادة في الافتراء والغرور ، إذ تفيد آية البحث تقريب الجاحدين بالنعم إلى سبل الرشاد ، وتدعوهم إلى الهداية وبيان قانون وهو وجوب إدراك الناس جميعاً إن الله (هو الغني الحميد) .

وهذا الإدراك رحمة بهم في النشاطين وهو باب لإصلاح الذرية.

ومن إعجاز آية البحث تأديب أجيال المسلمين والتسليم بأن الغنى المطلق لله عز وجل وحده ، وفيه دعوة لهم لسؤال الله حاجاتهم ، قال تعالى ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾^(١) .

وأخبر الله عز وجل عن وصول الصدقة الى يده تعالى قبل أن تصل الى يد الفقير لقوله تعالى ﴿الْمُيَلَّمُونَ أَنِ اللَّهُ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(٢) ، ليكون الفقير القانع الشاكر لله عز وجل غنياً بفضل الله ، وقد يسمي الذين قالوا (نحن اغنياء) فقراء محتاجين قال تعالى ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نَدَاؤُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(٣) .

ومن خصائص فضل الله أنه غير محبوب أو ممنوع عن أي عبد من الناس ، قال تعالى ﴿كَلَّا نَبْدُ هَؤُلَاءِ وَهَؤُلَاءِ مِنْ عَطَاءِ رَبِّكَ وَمَا كَانَ عَطَاءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا﴾^(٤) .

(١) سورة غافر ٦٠ .

(٢) سورة التوبة ١٠٤ .

(٣) سورة آل عمران ١٤٠ .

(٤) سورة الإسراء ٢٠ .

مما يمحق بالزكاة

ليس من حصر لما يمحوه من الأذى والضرر عن الناس ، ويكون من تقدير قوله تعالى ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(١) ، بخصوص دفع الزكاة والخمس وجوه :

الأول : يمحو الله الدرن ، ويثبت صحة البدن بدفع الزكاة .

الثاني : يمحو الله الخسارة وضياع الأموال ويثبت حال الغنى والسراء بدفع الزكاة والخمس .

الثالث : يمحو الله حال الذل والهوان ويثبت العز بدفع الزكاة والخمس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٢) .
الرابع : يمحو الله العوز والفاقة في مستقبل الأيام ويزيد من المال والثروة بدفع الزكاة .

الخامس : بدفع الزكاة يمحو الله العقوبة على المعصية ، ويثبت الأجر والثواب بدفع الزكاة والخمس .

السادس : يمحو الله حال الخوف والفرع ، ويثبت السكينة في النفس بدفع الزكاة والخمس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾^(٣) .

السابع : يمحو دفع الزكاة والخمس السرقة والتعدي على المال والبدن ويثبت سلامة الأموال والأبدان .

الثامن : يمحو دفع الزكاة السوء والأذى عن العرض والسمعة ، ويثبت العفة والطهارة .

(١) سورة الرعد ٣٩ .

(٢) سورة المنافقون ٨ .

(٣) سورة الرعد ٢٨ .

التاسع : يحو دفع الزكاة والخمس مقدمات المعصية ، ومن العصمة إمتناع المعصية .

فلو أراد الذي أخرج الحقوق الشرعية من ماله إرتكاب إثم كالزنا فإن الله عز وجل يمنع من مقدماته ، ولا تتحقق أسبابه ، وفيه نفع للطرف الآخر أيضاً ، كما في إلتفاف زليخا من عصمة يوسف عليه السلام بقوله تعالى ﴿ وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِ وَهَمَّ بِهَا لَوْلَا أَن رَّأَى بُرْهَانَ رَبِّهِ كَذَلِكَ لَنَصْرَفَ عَنْهُ السُّوءَ وَالْفَحْشَاءَ إِنَّهُ مِنْ عِبَادِنَا الْمُخْلَصِينَ ﴾ ^(١) .

ويتنزه الذي يخرج زكاة ماله عن الربا ، قال تعالى ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ ^(٢) .

ويرقى المؤمن بدفعه الحقوق الشرعية وبأدائه الفرائض إلى مرتبة المخلصين والذين يصرف عنهم الله عز وجل السوء والفحشاء ويثبت لهم فعل الصالحات .

العاشر : يحو الله بدفع الزكاة الفتن والخصومة والشجار عن الناس ، ويثبت الأمن والدعة والوفاق ، (قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يدفع الله العذاب بمن يُصَلِّي عَمَّنْ لَا يُصَلِّي ،

وبمن يُزَكِّي عَمَّنْ لَا يُزَكِّي ،

وبمن يصوم عَمَّنْ لَا يصوم ،

وبمن يحج عَمَّنْ لَا يحج ،

وبمن يجاهد عَمَّنْ لَا يجاهد. ولو اجتمعوا على ترك هذه الأشياء ما

ناظرهم الله طرفة عين. ثم تلا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم هذه

(١) سورة يوسف ٢٤ .

(٢) سورة آل عمران ١٣٠ .

الآية. وروى مالك بن عبيد عن أبيه عن جدّه إن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال : لولا عباد الله ركع وصية رضع، وبهائم رتع،

لصب عليكم العذاب صباً ثم لترضن رضا.
قال الثعلبي وأنشدني لنفسه :

لولا عباد للاله ركع
وصية من اليتامى رضع
ومهملات في الفلاة رتع
صب عليكم العذاب الأوجع

وروى محمد بن المنكدر عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} إن الله سبحانه ليصلح بصلاح الرجل ولده وولد ولده وأهل دويرته ودويرات حوله ولا يزالون في حفظ الله ما دام فيهم. وقال قتادة : يبتلي الله المؤمن بالكافر ويعافي الكافر بالمؤمن.

وعن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إن الله ليدفع بالمسلم الصالح عن مائة من أهل بيت من جيرانه البلاء،

ثم قرأ ابن عمر : { فَهَزُمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ }^(١) ^(٢).

الحادي عشر : يطرد الله الغفلة والجهالة ، ويثبت التدبر والهداية بدفع الزكاة.

(١) سورة البقرة ٢٥١.

(٢) الدر المنثور ٥٤/٢.

الثاني عشر : يحو الله الحسد والغضب واستحواذ النفس الغضبية ويثبت الحلم والصبر ، باتيان الفرائض العبادية وتستلزم إقامة الصلاة واتيان الزكاة الصبر والتحمل (وأخرج ابن مردويه عن أبي أيوب قال : وقف علينا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : هل لكم إلى ما يحو الله تعالى به الذنوب ويعظم به الأجر؟

فقلنا : نعم يا رسول الله قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة . قال : وهو قول الله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(١) ، فذلكم هو الرباط في المساجد.

وأخرج ابن جرير وابن حبان عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ألا أدلكم على ما يحو الله به الخطايا ويكفر به الذنوب؟ قلنا : بلى يا رسول الله . قال : إسباغ الوضوء على المكاره ، وكثرة الخطا إلى المساجد ، وانتظار الصلاة بعد الصلاة ، فذلكم الرباط^(٢).

وفي اعانة الفقراء وفق نظام سماوي معين حكمة وهدى .
(وأخرج ابن عساكر عن سليمان بن يسار قال : كتب عمر بن الخطاب إلى كعب الأحبار أن اختر لي المنازل . فكتب إليه يا أمير المؤمنين إنه بلغنا أن الأشياء اجتمعت فقال السخاء : أريد اليمن . فقال حسن الخلق : أنا معك .

وقال الجفاء : أريد الحجاز . فقال الفقر : أنا معك .
قال البأس : أريد الشام . فقال السيف : أنا معك .
وقال العلم : أريد العراق . فقال العقل : أنا معك .

(١) سورة آل عمران ٢٠٠.

(٢) الدر المنثور ٢٥/٣.

وقال الغنى : أريد مصر . فقال الذل : أنا معك . فاختر لنفسك يا أمير المؤمنين ، فلما ورد الكتاب على عمر قال : العراق إذن ، فالعراق إذن^(١) .

الثالث عشر : يمحوا الله الطبائع المذمومة ويثبت الأخلاق الحميدة بدفع الزكاة والخمس (عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : قال لي جبريل : قال الله تعالى : إن هذا الدين ارتضيته لنفسي ولا يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق فأكرموه بهما ما صحبتموه . وأخرج البيهقي وضعفه عن عبد الله بن جراد قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا ابتغيت المعروف فابتغوه في حسان الوجوه ، فوالله لا يلج النار إلا بخيل ، ولا يلج الجنة شحيح ، إن السخاء شجرة في الجنة تسمى السخاء ، وإن الشح شجرة في النار تسمى الشح)^(٢) .

ولا يتعلق هذا المحو بخصوص دافع الزكاة بل هو فيض على الناس جميعاً .

والمراد من الضمير ﴿هُوَ﴾ في ﴿بَلْ هُوَ شَرُّهُمْ﴾^(٣) وجوه :

الأول : البخل بالزكاة والحقوق الشرعية .

الثاني : مال الزكاة والخمس الذي يحبس الجاحدون عندهم .

الثالث : الظن بأن حبس الزكاة فيه نفع وخير لهم .

الرابع : تسخير أموال الزكاة المحبوسة في المعاملات وفي البيع والشراء .

الخامس : تراكم الأموال عند الجاحدين من غير دفع الزكاة .

السادس : الإصرار على الجحود وعدم دفع الزكاة .

ومن وجوه المحو والإثبات بلحاظ آية السياق والبحث وجوه :

(١) الدر المنثور ١/١٨٠ .

(٢) الدر المنثور ٩/٤٦٥ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

الأول : يحو الله ظن الذين كفروا أن حجب الزكاة خير لهم ، ويثبت حال البؤس عندهم ، والنشر الذي ينزل بهم بسبب هذا البخل .

الثاني : يحو الله سبحانه نفع الذين كفروا من بخلهم ، ويثبت فضله عليهم ، لأن فضله رحمة وإحسان لا يردده سوء فعل العبد .

الثالث : يحو الله تطويق أعناق الذين بخلوا بالزكاة عند توبتهم وإخراجهم ما يعلق بأموالهم من الزكاة ، وهل هذا المحو من مصاديق ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ مَثَلًا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾^(١) .

الجواب إنما المراد مضاعفة الثواب لعمل الصالحات ، ويكون المحو مصاحباً له وفضلاً من عند الله ، فمثلاً أن الذي دفع زكاته شكر الله عز وجل على إتيانه من فضله . ويثبت الحجة على البخل (عن أبي الدرداء ، عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما طلعت شمس ولا غربت إلا وبجنبتيها ملكان يناديان ، يسمع من على الأرض إلا الثقلين : أيها الناس ، هلموا إلى ربكم ، إن ما قل وكفى خير مما كثر وألهى ، ولا آبت إلا وبجنبتيها ملكان يناديان : اللهم من أنفق فأعطه خلفاً ، ومن أمسك فأعطه تلفاً)^(٢) .

الرابع : من معاني قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ التخويف والوعيد ، ليتجلى يوم القيامة المصداق الذي يدل على تثبيته وتحقق بأن يصير الذين يمتنعون الزكاة في شر وعذاب .

فمن مصاديق الشطر أعلاه من آية السياق وجوه :

الأول : بل هو شر لهم في الدنيا ، وهو على شعب متعددة منها :

(١) سورة الأنعام ١٦٠ .

(٢) المعجم الأوسط للطبراني ٤٥٧/٦ .

الأولى : بل هو شر لهم كل يوم .

الثانية : بل هو شر لهم في بيوتهم ، وكثرة المتاعب والكدورة فيها .

الثالثة : بل هو شر لهم في أبدانهم ، إذ يداهمهم المرض ويصعب عليهم العلاج والشفاء .

الخامسة : بل هو شر لهم في أموالهم ، إذ تنعدم البركة .

السادسة : بل هو شر لهم فيما ينفقون .

السابعة : بل هو شر لهم في مآكلهم وملبسهم .

الثامنة : بل هو شر لهم في أولادهم وذريتهم ، قال تعالى ﴿وَلْيَخْشَ

الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةَ ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا﴾^(١)
ومن تقوى الله الذي تذكره الآية أعلاه تعاهد الفرائض العبادية وإخراج الزكاة وإيصال حق الفقراء .

الثاني : بل هو شر لهم في عالم البرزخ وبعد الإمامة الأولى من

جهات:

الأولى : ضيق القبر .

الثانية : شدة الحساب الابتدائي في القبر .

الثالثة : حضور منكر ونكير وسؤالهم الميت (قال جابر بن عبد الله

الأنصاري : سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يقول : يبعث كل عبد في القبر على ما مات ، المؤمن على إيمانه ، والمنافق على نفاقه .

وأخرج ابن أبي عاصم في السنة وابن مردويه والبيهقي من طريق أبي

سفيان ، عن جابر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إذا وضع المؤمن في قبره ، أتاه ملكان فانتهراه ، فقام يهب كما يهب النائم ، فيقال له : من ربك .

فيقول : الله ربي والإسلام ديني ومحمد صلى الله عليه وسلم نبيي .
فينادي مناد ، أن صدق عبدي . فأفرشوه من الجنة وألبسوه من الجنة
فيقول: دعوني أخبر أهلي . فيقال له : اسكن .

وأخرج البيهقي في كتاب عذاب القبر ، عن ابن عباس قال : قال
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كيف أنت يا عمر إذا انتهى بك إلى
الأرض .

فحفر لك ثلاثة أذرع وشبر في ذراع وشبر ، ثم أتاك منكر ونكير
أسودان يجران شعرهما ، كأن أصواتهما الرعد القاصف ، وكأن أعينهما
البرق الخاطف ، يحفران الأرض بأنيا بهما فأجلساك فزعاً فتلتاك
وتوهلاك.

فقال : يا رسول الله ، وأنا يومئذ على ما أنا عليه؟ قال : نعم . قال :
أكفيكما بإذن الله يا رسول الله) (١).

الرابعة : عند دخول الإنسان القبر يرى مقعدة في الجنة أو في النار
بحسب عمله في الدنيا .

ومن معاني ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ أن الذي ييخل بالزكاة يرى عندما يدخل
القبر ما ينتظره من العذاب .

الثالث : بل هو شر لهم عند البعث من القبور وما بعد البعث ، وهو
الأشد شراً وضرراً لإستدامة العذاب يومئذ على الذين يمنعون الزكاة .

ومن الإعجاز في كل من آية البحث والسياق التذكير بحتمية بعث
الناس من قبورهم أحياء للوقوف بين يدي الله للحساب والثواب والجزاء

، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِّنْ تُرَابٍ﴾^(١).

ليكون من معاني المحو والإثبات محو ضروب من العذاب ، وتثبيت الوعد الكريم بالثواب والذي ورود بالقرآن ، ليكون من دلالات آية البحث والسياق انتفاع الناس جميعاً من مضامينهما لما في منطوقهما من الإنذار ودلالته على البشارة في عرصات يوم القيامة ومن مواطنه :

الأول : البعث .

الثاني : النشور .

الثالث : الحشر ، وجاءت سورة كاملة باسم سورة الحشر ، وفي التنزيل ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الْأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾^(٢) .

الرابع : العرض ، قال تعالى ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لَا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ﴾^(٣) .

الخامس : الحوض (عن أبي سعيد الخدري قال : سمعت رسول الله يقول : يا أيها الناس إني قد تركت فيكم خليفتين إن أخذتم بهما لن تضلوا بعدي،

أحدهما أكبر من الآخر كتاب الله جل جلاله من السماء وعترتي أهل بيتي،

ألا وإنهما لن يتفرقا حتى يردا عليّ الحوض)^(٤) .

السادس : الميزان .

(١) سورة الحج ٥.

(٢) سورة المؤمنون ٧٩.

(٣) سورة الحاقة ١٨.

(٤) الكشف والبيان للثعلبي ٢١٥/٣.

السابع : تطاير الكتب .

الثامن : الصراط الذي يضيق ويتسع بحسب عمل الإنسان الذي يعبر عليه ، ليكون أشد ضيقاً على الذين يصرون على الإمتناع عن أداء الفرائض العبادية تكبراً وجحوداً ، ليهوي بهم في نار جهنم ، قال تعالى ﴿أَحْشَرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ * مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ .

بحث فقهي

لقد نزلت فريضة الزكاة وكذا فريضة الصيام في السنة الثانية للهجرة وهل كان لفرض الزكاة موضوعية في دفع شرور المشركين عن المدينة ، الجواب نعم ، لوجوه :

الأول : يبعث دفع المسلمين الزكاة الفزع والخوف في قلوب المشركين .

الثاني : في الزكاة ترغيب للناس بدخول الإسلام .

الثالث : معرفة الناس جميعاً لحقيقة وهي أن الإسلام يحارب الفقر وأنه يقرب بين الطبقات وفئات المجتمع ، وفي الزكاة تكافل اجتماعي .

الرابع : إدراك المشركين استعداد عموم المسلمين للقتال دفاعاً عن النبوة والتنزيل ، فدفع الغني الزكاة شاهد على عدم تعلق قلبه بالمال وحب الدنيا وزينتها ، وتلقى الفقير الزكاة وفق أحكام الإسلام ضمان له ولأبنائه .

الخامس : في دفع الزكاة رفعة وعلو كعب للمسلمين وباعث لبث الشقاق والخصومة بين المشركين ، وهذه الخصومة برزخ دون مواصلتهم غزو المدينة وأطرافها .

السادس : دفع الزكاة سبب لهداية للمؤمنين والتعاون بينهم ، وإذا أراد الله عز وجل لأمة أو قوم خيراً رزقهم البصيرة ، وصرف عنهم الكيد والأذى .

السابع : تشريع الزكاة ، وامثال المسلمين لها ، طريق إلى الجنة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١) وهل يختص الأغنياء بالهداية والإمثال في أدائها ، وإخراج الحق الشرعي من أموالهم ، الجواب لا .

إنما تشمل الهداية في المقام المسلمين والمسلمات ، إذ تشمل فقراء المسلمين من جهات :

الأولى : الإستعداد العام للإمثال لدفع الزكاة لو كانوا من أصحاب الأموال ، وكم من فقير صار غنياً وقام بدفع الزكاة .

الثانية : قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بخصوص الزكاة والخمس .

الثالثة : تلاوة المسلمين لآيات الزكاة ، والآيات التي تدم ما فيها ومنها آية البحث والسياق ، و(عن جابر بن عبد الله أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : اتقوا الظلم فإن الظلم ظلمات يوم القيامة ، واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم حملهم على أن سفكوا دماءهم واستحلوا محارمهم)^(٢) .

و(قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : صلاح أول هذه الأمة بالزهد والتقوى وهلاك آخرها بالبخل والفجور)^(٣) .

الرابعة : دعاء وثناء الفقراء على دفع الزكاة .

(١) سورة الفاتحة ٦ .

(٢) الدر المنثور ٩/٤٦٣ .

(٣) الدر المنثور ٩/٤٦٤ .

ليكون من معاني قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(١)، إعانة المسلمين المسلمين لعمل ما فيه نفعهم في النشاطين ، وابتدأت آية البحث بدم الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٢)، لتدل في مفهومها على الشاء على المؤمنين من جهات :

الأولى : تلقي الأمر الإلهي بالزكاة بالقبول والرضا .

الثانية : التسليم العام من قبل المسلمين بأن حكم أداء الزكاة فرض نازل من عند الله عز وجل ، فيجب تعاهده وتوارثه .

الثالثة : لقد تنزه وتبرأ المسلمون من القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٣) ، بتلاوتهم لآية البحث ، وإذ كانت هذه الآية حجة على الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٤) ، فهل تلاوة المسلم لهذه الآية حجة عليهم أيضا ، الجواب نعم ، وهي حجة متجددة كل يوم ليكون من أسرار تلاوة كل مسلم ومسلمة آيات القرآن في الصلاة الحرب على قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٥) ، ودم وتويخ للذين قالوه وإنقطاع هذا القول إلى يوم القيامة فلا تجد بعد نزول آية البحث جمع يجهررون بقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾^(٦).

(١) سورة البقرة ٢٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

(٥) سورة آل عمران ١٨١.

(٦) سورة آل عمران ١٨١.

الترغيب بدفع الزكاة

من وجوه ترغيب القرآن بدفع الزكاة بيان قانون وهو أن الله عز وجل هو الذي يقبضها ، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾^(١).

ومن معاني ﴿يَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ﴾ في الآية أعلاه وجوه :

الأول : يقبض الصدقات .

الثاني : يقبل الصدقات ، وكأن الدفع وحده لا يكفي فلا بد من قصد القرية إلى الله ، فأخبر سبحانه أنه يقبل الصدقات مطلقاً ، وفيه بشارة وأمن ، ومنع من الشك والخشية من عدم قبول الله الصدقات .

الثالث : يأخذ الله الصدقات لينميها ويبارك فيها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾^(٢) (عن ابن عمر قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إن المؤمن يتصدق بالتمرة أو بعدلها من الطيب ولا يقبل الله إلا الطيب ، فتقع في يد الله فيريها له كما يربي أحدكم فصيله حتى تكون مثل التل العظيم ، ثم قرأ ﴿يَمْحَقُ اللَّهُ الرِّبَا وَيُزِيلُ الصَّدَقَاتِ﴾^(٣)(٤).

(١) سورة التوبة ١٠٤.

(٢) سورة البقرة ٢٧٦.

(٣) سورة البقرة ٢٧٦.

(٤) الدر المنثور ٢/٢٤٢.

وعن الإمام علي عليه السلام : إذا ناولتم السائل فليرد الذي يناوله يده إلى فيه فيقبلها فإن الله عز وجل يأخذها قبل أن تقع في يد السائل فانه عز وجل يأخذ الصدقات^(١).

أداء الزكاة نعمة

من القوانين الثابتة أن النعم التي عند الناس هي من فضل الله فأداء الزكاة والإنفاق في سبيل الله تعالى شكر له سبحانه ، والذين امتنعوا عن دفعها جحدوا بالربوبية ، قال تعالى ﴿وَمَا تَقْضُوا إِلَّا أَنْ أَعْثَاهُمْ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢).

وأداء كل مسلم ومسلمة للصلاة ، وتلاوتهم لآيات القرآن في كل ركعة من الصلاة ومضامين هذه الآيات شاهد على أن الله عز وجل هو الغني ، وأن ذم الجاحدين بآية البحث وتلاوة المسلمين لها دليل على أنهم هم الفقراء المحتاجون إلى رحمة الله وكذا الحال بالنسبة لذم القرآن للكافرين والمنافقين ، فان تلاوة المسلمين للآيات التي تذكهم توبيخ لهم ، وباعث للصغار في نفوسهم ، وفيه ترغيب بالتخلص من مستنقع الكفر والرحيل إلى رياض الهدى والإيمان.

وتدل تلاوة المسلمين القرآن في الصلاة على أن الإسلام انتشر بالحكمة والموعظة وعلى إنقطاع المسلمين والمسلمات إلى العبادة وقراءة القرآن ، مع الإرتقاء في المعارف الإلهية ببيان القرآن أحوال وأقوال الناس ، ومدح القرآن للقول الحسن وذم للقول القبيح من أجل استئصاله من الأرض ،

(١) البحار ٩٣/١٣٤.

(٢) سورة التوبة ٧٤.

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١)، وكان آية البحث تقول للناس أموراً :

الأول : إن الله يسمع كل قول.

الثاني : يا أيها الناس اجتنبوا القول الذي يسخط الله عز وجل .

الثالث : يا أيها الذين آمنوا قد كفاكم الله عز وجل أقوال الذين كفروا.

الرابع : يا أيها الذين آمنوا ادعوا إلى الله بتلاوة القرآن.

الخامس : يا أيها الذين آمنوا اشكروا الله عز وجل بأن أغناكم عن

الغزو والهجوم ، وفي التنزيل ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ ثُمَّ تَوَكَّلُوا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْكُمْ وَأَنتُمْ مُّعْرِضُونَ﴾^(٢).

وتدل الآية أعلاه في مفهومها على عدم الحاجة للغزو والهجوم ، وأن القول الحسن من المسلمين كاف لجذب الناس إلى الهدى والإيمان، وهناك مسائل :

الأولى : هل مضامين آية البحث من القول الحسن .

الثانية : هل تلاوة المسلمين لآية البحث من القول الحسن ، ولو تلا

المسلم هذه الآية على شخص أو جماعة فهل يصدق عليه أنه امتثل لقوله تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٣).

الثالثة : هل يشمل لفظ (الناس) في الآية أعلاه الذين قالوا إن الله

فقير.

الرابعة : هل يشمل لفظ (الناس) في الآية المسلمين فيما بينهم.

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) سورة البقرة ٨٣.

(٣) سورة البقرة ٨٣.

أما المسألة الأولى فالجواب إن مضامين آية البحث قول حسن بالذات والأثر والنفع العظيم ، ولا يختلف اثنان بأن آيات القرآن قول حسن ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا﴾^(١).

أما المسألة الثانية فإن تلاوة كل مسلم لآيات القرآن من القول الحسن ، ويطرح عنه قول حسن وهو على وجوه :

الأول : تعدد القول الحسن عن كل آية من القرآن.

الثاني : في تكرار تلاوة الآية القرآنية تعدد للقول الحسن المترشح والمتفرع عنها.

الثالث : القول الحسن المترشح عن الآية القرآنية باعث للرغبة في تلاوة القرآن ، قال تعالى ﴿وَرَتَّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾^(٢).

وتلاوة المسلمين لآية البحث من القول الحسن الذي أمر الله عز وجل به المسلمين ، لذا فرض الله عز وجل الصلاة اليومية على كل مسلم ومسلمة ، ومنها القراءة الجهرية ليحتسبها الله عز وجل للمسلم من المسلمة مصداقاً للإمثال لقوله تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٣) ، وفيه آية من التخفيف عن المسلمين بأن يأمرهم الله يأمر بفعل ثم يأمرهم بأمر آخر متجدد ويتجلى بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ﴾^(٤) ليقول ويفعل المسلمون الأمور الحسنة ، وما فيه امثال لهذا الأمر.

(١) سورة الزمر ٢٣.

(٢) سورة المزمل ٤.

(٣) سورة البقرة ٨٣.

(٤) سورة البقرة ٨٣.

ولو قرأها المسلم على أحد من الناس فانه قول حسن ، ودعوة لنبذ العنف والإرهاب ، لقد أراد الله بنزول آيات القرآن إصلاح النفوس ، وجذبها إلى ما فيه سعادتها ، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : قولوا للناس حسناً يكف أيديهم عنكم.

الثاني : ادعوا إلى مقامات الهدى والإيمان فقولوا للناس حسناً ، قال

تعالى ﴿وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾^(١).

الثالث : قولوا للناس حسناً بتلاوة آيات القرآن.

الرابع : قولوا للناس حسناً ، وهذا القول من خصال ﴿خَيْرُ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ

لِلنَّاسِ﴾^(٢).

الخامس : قولوا للناس حسناً تفوزون بالأجر والثواب ، وهل المراد

بالألف واللام في الناس الجنس أم العهد ، الصحيح هو الأول ، فالمراد الناس جميعاً ، وهو المروي عن الإمام الباقر عليه السلام^(٣).

السادس : قولوا للناس حسناً طاعة لله عز وجل ، ومن القول الحسن

في المقام وجوه :

الأول : تلاوة القرآن لقول لا إله إلا الله .

الثاني : الموعظة .

الثالث : الأمر بالمعروف .

الرابع : النهي عن المنكر .

الخامس : النصيحة .

(١) سورة فصلت ٣٤.

(٢) سورة آل عمران ١١٠.

(٣) أنظر تفسير ابن أبي حاتم ٢١٩/١.

السادس : المواساة .

السابع : إفشاء السلام (عَنْ أَسَدِ بْنِ وَدَاعَةَ أَنَّهُ كَانَ يَخْرُجُ مِنْ مَنْزِلِهِ فَلَا يَلْقَى يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا إِلَّا سَلَّمَ عَلَيْهِ، فَقِيلَ لَهُ: مَا شَأْنُكَ تَسَلِّمُ عَلَى الْيَهُودِيِّ وَالنَّصْرَانِيِّ؟ فَقَالَ: إِنَّ اللَّهَ يَقُولُ: " وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا " وَهُوَ السَّلَامُ، وَرَوَى عَنْ عَطَاءِ الْخُرَاسَانِيِّ نَحْوَ قَوْلِ أَسَدِ بْنِ وَدَاعَةَ)^(١).

الثامن : بيان الأوامر الإلهية بلطف .

التاسع : العفو والصفح .

العاشر : النهي عن قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

الحادي عشر : بيان قوانين أن الله تعالى هو الغني .

الثاني عشر : تأكيد فقر وفاقه وحاجة الناس لله عز وجل .

الثالث عشر : الترغيب بالعبادة وأداء الفرائض .

الرابع عشر : تجلي منافع أداء العبادات .

الخامس عشر : بيان معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم

ودلائل صدق نبوته .

السادس عشر : الشهادة بالحق وإجتنب قول الزور والكذب .

السابع عشر : دلالة قوله تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٢) في مفهومه على

لزوم الإمتناع عن الإضرار بالناس .

وأما المسألة الثالثة فإن لفظ (الناس) في الآية شامل للذين ذكرتهم آية

البحث وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ﴾^(٣)، وهؤلاء

محتاجون للقول الحسن والموعظة فقالوا (نحن أغنياء) إنما هم فقراء ،

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٣٢٠/١ .

(٢) البقرة ٨٣ .

(٣) سورة سبأ ٢٨ .

يحتاجون القول الحسن فجاءت الآية أعلاه رحمة بهم وبالمسلمين ، ولما خلق الله عز وجل آدم ، وأخبر الملائكة بأنه سبحانه ﴿جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١)، احتجوا بأمرين :

الأول : فساد طائفة من الناس في الأرض.

الثاني : القتل وسفك الدماء ، كما ورد في التنزيل ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢).

ومن إعجاز الآية أعلاه أنها ذكرت سفك الدماء ، ولم تذكر ذات القتل ، والنسبة بينهما العموم والخصوص فسفك الدماء أعم وأكثر ، ومنه جرح الغير والإعاقة وإصابة الأعضاء ورمي الرصاص ، لبيان رافة الملائكة بالناس وأنها تستهجن التعدي والظلم .

وهل يشمل احتجاجهم التعدي بالضرب وإحمرار أو أخضرار أو اسوداد محل الضرب ، أم أن القدر المتيقن هو سفك الدماء .

الجواب هو الأول ، وذكرت الملائكة الفرد الأعم والأكثر ضرراً ، فجاء الرد من عند الله عز وجل ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ومن علم الله عز وجل أمر الله للمسلمين بأن يقولوا للناس الكلام الحسن في الأمر والنهي والدعوة إلى الله عز وجل وبيان قبح السيئات والمعاصي ، وهل فيه دليل على أن كل آية من القرآن هي قول حسن الجواب نعم لذا فإن آية البحث خطاب سماوي حسن وأحسن موجه للذين (قالوا ان الله فقير) .

(١) سورة البقرة ٣٠.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

فمع أنهم تعدوا على مقام الربوبية ، وأسأوا إلى أنفسهم فان الله عز وجل لم يجعل لهم العقوبة ، إنما خاطبهم بقول حسن ببيان قبح قولهم ، وأمر المسلمين بتلاوة آية البحث ومخاطبتهم بالقول الحسن ومعاملتهم باللطف ، ومن علم الله أن إشاعة القول الحسن مانع من الغزو ، ومن الظلم .

وأما المسألة الرابعة فالجواب نعم ، إذ أن لفظ (الناس) سور الموجبة الكلية الشامل لجميع الناس ، وتقدير الآية بهذا الخصوص وقولوا لإخوانكم في الدين حسناً ، قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾^(١).

بحث كلامي

صفات المعاني

لقد جعل الله عز وجل القرآن ﴿ تَبَيَّنَا لِكُلِّ شَيْءٍ ﴾^(٢) ، وذكر فيها صفاته واسماءه الحسنی مع التباين بين صفاته وصفات الخلائق ، فقد يرد ذات الاسم السميع على الله عز وجل وعلى الإنسان ولكن صفات الله عز وجل لا يشبهه فيها أحد ، وفي التنزيل ﴿ لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ﴾^(٣) ، وقسمت صفاته تعالى إلى أقسام فيها :

الأول : الصفة النفسية وهو الوجود ، وهو عين الذات والخالق ، موجود على نحو أبدي سرمدي ، أما المخلوق فهو موجود بالمشيئة الإلهية وقد سبقه العدم ويلحقه طوعاً وقهراً.

الثانية : الصفات المعنوية.

الثالثة : الصفات الفعلية.

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة النحل ٨٩.

(٣) سورة الشورى ١١.

الرابعة : صفات المعنى .

وهناك تقسيم آخر من شعبتين :

الأولى : الصفات الذاتية : كالقدرة قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ

شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(١) ، والعلم والحياة.

الثاني : الصفات الفعلية ، كالخلق والرحمة والإحياء والإماتة ،

والرزق ، وفي التنزيل ﴿اللَّهُ لَطِيفٌ بِعِبَادِهِ يَرْزُقُ مَنْ يَشَاءُ وَهُوَ الْقَوِيُّ الْعَزِيزُ﴾^(٢) ،

وصفات المعاني سبعة وهي :

الأولى : القدرة ، وإجماع الملمين على أن الله عز وجل قادر ، والمراد

الشئ الجائز العقلي أما المستحيل العقلي فهو غير قابل للوجود إلا أن يشاء

الله ويجعله محلاً قابلاً لمتعلق القدرة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ

اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٣) .

فلا يعجز الله شئ لاستحالة النقص عليه سبحانه لأن العجز نقص ،

ومن صفات الله الكمال والجلال ، وصفات الله عز وجل ليست حالة فيه

، ولا هي مثله او شبيهة به أو خارجه عنه .

والله تعالى يوجد الشئ المعدوم، ويعدم الموجود .

أما البرهان النقلي فان الدلائل الكونية المستقرة والمتجددة والطارئة

وآيات القرآن بينت بجلاء صفة القدرة المطلقة لله عز وجل ، وهذا البيان

من أسباب جذب الناس للإيمان وتسليمهم بأن القرآن نزل من عند الله عز

وجل .

(١) سورة البقرة ٢٠ .

(٢) سورة الشورى ١٩ .

(٣) سورة البقرة ٢٠ .

وكل آية من القرآن كنز من كنوز علم الكلام ، ويختلف علماء الكلام هل صفات الله عز وجل عين ذاته كما عليه المعتزلة أم أن صفات الله غير الذات ، وهو مشهور المسلمين والخلاف صغروي وللإجماع الركب بأن قول صفات الله غير الله باطل لأن مسمى واجب الوجود عز وجل تدخل فيه صفاته بخلاف مسمى الذات .

وآيات القرآن تمنع من الخلاف في المقام ويفهم الناس معنى القدرة المطلقة لله عز وجل بالفطرة والإعتراف الذاتي بعجز العقول عن درك فهم عظيم قدرة الله .

وعن الإمام علي عليه السلام بيان لصفات الله عز وجل ومقام الربوبية المطلقة عندما (سأله ذعلب اليماني فقال: هل رأيت ربك يا أمير المؤمنين؟ فقال(عليه السلام): أفأعبدُ ما لا أرى ؟

قال: وكيف تراه؟

قال: لَا تُدْرِكُهُ الْعُيُونُ بِمُشَاهَدَةِ الْعِيَانِ، وَلَكِنْ تُدْرِكُهُ الْقُلُوبُ بِحَقَائِقِ الْإِيمَانِ، قَرِيبٌ مِنَ الْأَشْيَاءِ غَيْرِ مَلَامَسٍ، بَعِيدٌ مِنْهَا غَيْرِ مُبَايِنٍ، مُتَكَلِّمٌ بِلَا رَوِيَّةٍ، مُرِيدٌ بِلَا هِمَّةٍ، صَانِعٌ لَا بِجَارِحَةٍ، لَطِيفٌ لَا يُوصَفُ بِالْخَفَاءِ، كَبِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْجَفَاءِ، بَصِيرٌ لَا يُوصَفُ بِالْحَاسَةِ، رَحِيمٌ لَا يُوصَفُ بِالرَّقَةِ، تَعْنُو الْوُجُوهُ لِعَظَمَتِهِ، وَتَجِبُ الْقُلُوبُ مِنْ مَخَافَتِهِ^(١).

وذكر القرآن صفة القدرة للناس بقوله تعالى ﴿إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ قَبْلِ أَنْ تَقْدِرُوا عَلَيْهِمْ﴾^(٢) وهل هو مثل قوله ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾^(٣) وقوله تعالى

(١) نهج البلاغة ٣٤/١ .

(٢) سورة المائدة ٣٤ .

(٣) سورة فاطر ١٠ .

﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(١) بلحاظ اشتقاق عزة المؤمنين من عزة الله عز وجل .

الجواب فيه تفصيل ، فيفضل الله عز وجل على المؤمنين مجتمعين ومتفرقين بالمدد وأسباب النصر كما في معركة بدر ، قال تعالى ﴿إِذْ تَسْتَيْئُونَ رَبَّكُمْ فَأَسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّينَ﴾^(٢) وكما في معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية والعقلية .
الثانية : وصف الله نفسه بأنه حي ويختص الله عز وجل بصفة الحياة المطلقة السرمدية مثلما ينفرد بالربوبية المطلقة ، قال تعالى ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ﴾^(٣) ، وقال تعالى ﴿وَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ﴾^(٤) .

وهناك ملازمة بين الحياة الدائمة وبين الربوبية المطلقة لله عز وجل ووجوب عبادة الجن والإنس لله وانتفاء الشريك له في الدنيا في أفراد الزمان والعوالم الطولية والله عز وجل هو الذي يهب الحياة للمخلوقين ، ولا تستديم حياتهم لدقيقة إلا بإذن الله .

وأتصف خلق الإنسان بأن يحييه الله لعالم الاختيار والامتحان ثم يميتة وكل إنسان في أجله في الأجيال المتعاقبة بحيث لا يضر موت فرد أو جماعة أو طائفة في استدامة الحياة الدنيا .

ولكن الناس جميعاً يبعثون من القبور ويحشرون في وقت واحد ، قال تعالى ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُهُمْ كَأَن لَّمْ يَلْبُوا إِلَّا سَاعَةً مِّنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾^(١) .

(١) سورة المنافقون ٨ .

(٢) سورة الأنفال ٩ .

(٣) سورة غافر ٦٥ .

(٤) سورة الفرقان ٥٨ .

وخلق الناس وحياتهم في عالم البرزخ ثم حشرهم وحسابهم وجزاءهم من عند الله عز وجل وفي أزمان متباعدة من الدلائل على الحياة الدائمة لله عز وجل وإقتران هذه الحياة بالقدرة المطلقة وحضور جميع الأشياء عنده سبحانه .

و(عن معاذ بن جبل : أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : إن الله ينادي يوم القيامة يا عبادي ، أنا الله لا إله إلا أنا أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وأسرع الحاسبين ، أحضروا حجتكم ويسروا جواباً ، فإنكم مسؤولون مُحاسبون ، يا ملائكتي أقيموا عبادي صفوفاً على أطراف أنامل أقدامهم للحساب) (٢).

الثالث : من صفات الله عز وجل أنه السميع ، والسميع لغة على وزن فعيل من أبنية المبالغة ، إذ يسمع الله الأصوات الصادرة من المخلوقات كلها ، ويتصف سمع الله عز وجل للأصوات بأمور :

الأول : يسمع الله من غير آلة سامعة .

الثاني : حضور الأصوات كلها عند الله .

الثالث : لا تختلط أو تختلف على الله أصوات الخلائق .

الرابع : يعلم الله عز وجل بالأصوات التي ستصدر وسوف تصدر من

الخلائق من غير تعارض مع قوله تعالى ﴿يُنْحُوا لِلَّهِ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ (٣) .

(١) سورة يونس ٤٥.

(٢) الدر المنثور ٢٧١/٦.

(٣) سورة الرعد ٣٩.

الخامس : بقاء الأصوات حاضرة عند الله إلى الأبد ، وتكون شاهدة على أصحابها يوم القيامة ، ومن مصاديق قوله تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ (١).

السادس : من ملك الله المطلق أنه سبحانه يملك الأسماع والأبصار ، ومن الآيات إقرار الكفار بهذا القانون كما ورد في التنزيل ﴿قُلْ مَنْ يُرْزَقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّنْ يُمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَنْ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَنْ يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ (٢).

ويسمع الله تسييح الخلائق ، ويسمع الدعاء والشكوى والظلم والتظلم وفي التنزيل ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (٣).

لقد جاء التحذير والإنذار من السماء إلى الذين قالوا ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وتجلّى هذا الإنذار بآيات منها قوله تعالى ﴿قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾ (٤).

وتتضمن الآية أعلاه في منطوقها البشارة والإنذار ، البشارة للمؤمنين بالأجر والثواب بل القول الصالح والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والإنذار إلى الذين كفروا من القول السيئ .

(١) سورة فصلت ٥٣.

(٢) سورة يونس ٣١.

(٣) سورة المجادلة ١.

(٤) سورة الأنبياء ٤.

وقد يسمع الإنسان الكلام فلا يلتفت إليه ، أو يسمع ما يضره ويؤذيه فيسكت عنه خوفاً وتقية أو ينتقم ويبطش ، ومن قوانين الحياة الدنيا أنه ما يقال عن الإنسان في حياته أكثر مما يسمعه ، ولكن الله يسمعه ويحضره يوم القيامة .

لذا حذر سبحانه المؤمنين من الغيبة والنميمة ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَبِ بَعْضُكُم بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ﴾^(١).

مسائل

هناك مسائل وهي :

الأولى : لماذا اختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾.

الثانية : هل من مسائل ودلائل بخصوص اختتام آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ، ثم مجئ آية البحث بعدها مباشرة.

الثالثة : ما هي منافع اختتام آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وتعقب آية البحث ومضامينها القدسية لها.

أما المسألة الأولى فان خاتمة آية السياق من عطف العام على الخاص في الموضوع ولغة الخطاب وتقديرها على وجوه :

الأول : يا أيها الذين ييخلون بالحقوق الشرعية الله بما تعملون خبير.

الثاني : يا أيها الناس إن الله بما تعملون خبير.

الثالث : يا أيها الذين آمنوا الله ان الله بما تعملون خبير .
الرابع : يا أيها الذين ينفقون في سبيل الله ان الله بما تعملون خبير .
الخامس : يا أيها الذين يتلون آية السياق ان الله بما تعملون خبير .
السادس : يا أيها الذين يسمعون آية السياق ان الله بما تعملون خبير .
لقد ابتدأت آية السياق بنهي الذين يمتنعون عن دفع الحقوق الشرعية عن الظن والاعتقاد بأن حبسهم لها وبقائها في أيديهم هو خير لهم لتختتم بموضوع العمل .
وهل الظن من العمل ، الجواب لا ، لبيان أن المدار على القول والعمل والمبرز الخارجي ' وأن الله عز وجل يحاسب الناس على أعمالهم وليس على الظن .
ومن إعجاز آية السياق دلالة أختتامها بعلم الله عز وجل بما يعمل كل من :

الأول : الذي قال ﴿إِنَّ اللَّهَ فَخِيرٌ﴾^(١) .
الثاني : كيفية تصرف الأغنياء بأموالهم .
الثالث : قصور الأموال عن دفع البلاء عن الناس .
الرابع : تعاهد المسلمين لدفع الزكاة والإنفاق في سبيل الله .
الخامس : قيام المسلمين بالدعوة إلى الصلاح والإنفاق في مرضاة الله ،
قال تعالى ﴿وَلَنَكُنَّ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٢) .
واما المسألة الثانية الجواب نعم ، لبيان مسألة وهي أن الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية سبب للتمادي بالمعصية

(١) سورة الحجرات ١٠ .

(٢) سورة آل عمران ١٠٤ .

والتجراً على النبوة والتنزيل ، ليكون قول الجاحدين (إن الله فقير ونحن أغنياء) فرع الإمتناع عن الزكاة وسبباً في نزول عذاب الحريق بالكافرين.

وأما المسألة الثالثة فإن اختتام آية السياق بالإخبار عن كون وعد الله عز وجل هو الخبير بأفعال العباد ، وأنه سبحانه ينفرد بهذه الخصوصية فلا يقدر عليها إلا هو سبحانه.

ولو اجتمعت الخلائق كلها على أن تكون خبيرة بما يفعله العباد فانهم يعجزون عن بلوغ هذه المرتبة ، ليكون من أسرار قوله تعالى ﴿فَنَفَخْنَا فِيهِ مِنْ رُوحِنَا﴾^(١) إحصار العلم بأحوال الناس وما يفعلونه وما يكونون عليه عليه إلا هو سبحانه .

ويريد الله عز وجل للإنسان أن يعطي صدقته ، وهو يعتقد بأنه محتاج إلى الرحمة والمغفرة ، فليست حاجة الفقير للصدقة أكثر من حاجة الغني الذي يدفعها ، وسور الموجبة الكلية الجامع لهما قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾^(٢).

وجاءت الآية تحكي خطاباً عاماً ، وفيها تذكير للجاحدين في الآخرة ، ومن إعجاز القرآن أن وقائع يوم القيامة حاضرة في الوجود الذهني ، وتقرب وتؤكد آيات القرآن هذا الحضور .

ومن الإعجاز في الصلة بين أول وآخر الآية دعوة الذين ييخلون بالحقوق الشرعية للتنزه عن الظن بأن هذا البخل خير لهم أو لعوائلهم ، ومنع سلطان هذا الظن على القول والفعل ، ومن هذا السلطان ما جاء في آية البحث بتجرئهم على الله عز وجل لإرادة

(١) المعجم الأوسط للطبراني ٣٨٤/١٠.

(٢) سورة فاطر ١٥.

إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمؤمنين بالقول (ان الله فقير) ، ولنع الإحسان بين الناس ، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَيَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾^(١).

قانون آية البحث حفظ للنبي

من معجزات النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الحسية حفظ الله عز وجل له مع سعي الكفار الحثيث لاغتياله ، في المسجد الحرام وفي فراشه والمسجد النبوي ، ومحاولاتهم قتله في ميدان المعركة .

ولم ينج منهم إلا بآية ومعجزة من عند الله ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ يَعِصُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾^(٢).

ومن وجوه تقدير آية البحث ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ إرادتهم قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهل يكتب الله عز وجل فضله بنجاة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل الجواب نعم ، لتطلع عليه الملائكة وهو من مصاديق احتجاجه سبحانه عليهم يوم أخبرهم عن خلافة الإنسان في الأرض ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ويكون تقديرها أيضا : سنكتب ما قالوا وقتل اسلافهم الأنبياء بغير حق لبيان مسألة وهي أن القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) دعوة

(١) سورة النحل ٩٠.

(٢) سورة المائدة ٦٧.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

للظلم والتعدي وإرادة قتل النبي محمد وأصحابه ، فيكون من إعجاز آية البحث أمور :

الأول : الزجر عن محاولات إغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وإرادة قتله.

الثاني : تحذير وإنذار المسلمين من وصول يد المشركين إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد سعوا في اغتياله في محاولات عديدة ، كما جهزوا الجيوش العظيمة التي زحفت على المدينة وهي تريد قتله كما في معركة أحد والخندق .

لقد كان المشركون قبل وأثناء معركة أحد يجاهرون بعزمهم وسعيهم لقتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فهل كانوا في معركة بدر والتي وقعت في شهر رمضان من السنة الثانية للهجرة وقبل معركة أحد بثلاثة عشر شهراً يطلبون قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم لدعواهم تعرضه لقافلة أبي سفيان .

ويحتمل هذا الطلب من جهة الزمان وجوهاً :

الأول : قبل معركة بدر ، وعند مناجاة قريش في كيفية محاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والإسلام.

الثاني : عندما حضر عند جيشهم ضمضم بن عمرو رسولاً من أبي سفيان يخبر عن تعرض قافلة للمصادرة من قبل النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه .

فكان مفهوم رد قريش أن اقتلوا محمداً يسلم ويخلوا لكم طريق القوافل ، وورد في قصة أخوة يوسف ﴿اقتُلُوا يُوسُفَ أَوْ اطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا مِنْ بَعْدِهِ قَوْمًا صَالِحِينَ﴾^(١).

الثالث : عَزَمَ المشركون على قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم عندما خرجوا من مكة وعددهم نحو ألف ، إذ تشاوروا بينهم ، ونظروا إلى الضرر الكبير الذي داهمهم بتعرض قافلته للخطر والإستيلاء وحملهم على تجهيز الجيوش لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وما في هذا التجهيز من الضرر والإنفاق وتعطيل الأعمال.

الرابع : تناجى المشركون بقتل النبي عشية معركة بدر عندما اتخذ كل فريق مواضعه.

الخامس : أعطى بعض رؤساء المشركين الأمر بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم صبيحة معركة بدر يوم السابع عشر من شهر رمضان بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم عيلة أو بالسهم أو بالسيف. ولا تعارض بين هذه الوجوه ، فقد أرادت قريش اغتيال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهو في مكة قبل الهجرة مع قلة أصحابه آنذاك وعدم حمله السلاح ز

فمن باب الأولوية القطعية أن يتناجى مشركوا قريش بقتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم اثناء الإعداد المعركة بدر وعند الخروج إليها وعند التقاء الصفين ، مع أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم كان يجتهد في دعائه يومئذ للصحابة وليس لنفسه ، إذ ورد عنه : اللهم إنك إن تهلك هذه العصابة لا تعبد بعدها في الأرض^(١).

ويدل لجوء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الدعاء في ساعة المحنة وهجوم المشركين على أمور :

الأول : لا يطلب النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم القتال ولا يسعى إليه.

(١) ابن كثير / السيرة النبوية ٤١١/٢ .

الثاني : صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ أنه يعلم بأن الدعاء أمضى سلاحاً ونفعاً من السيف ، وأن الصبر الإيماني أقوى وأنجح من الهجوم والغزو.

الثالث : الدعاء نوع طريق ومقدمة لنزول الملائكة لنصرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمهاجرين والأنصار.

الرابع : لجوء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إلى الدعاء مع أنه الإمام والقائد في المعركة شاهد على تطلعه للنصر من عند الله عز وجل ، وفي تحويل القبلة من بيت المقدس إلى المسجد الحرام نزل قوله تعالى ﴿قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنْتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾^(١).

فتفضل الله عز وجل بتحقيق تطلع النبي صلى الله عليه وآله وسلم لتحويل القبلة فإنه تعالى يستجيب لدعاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في دفع شرور جيش المشركين في أول معركة للإسلام ، وليس للمسلمين اثناء معارك الإسلام الأولى مصر غير المدينة المنورة يلجأون إليه ، وهو من مصاديق استغاثة النبي صلى الله عليه وآله وسلم: أنشدك عهدك ووعدك ، اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم أبداً^(٢).

فتفضل الله عز وجل وجعل المدينة المنورة في أمن من كيد ومكر المشركين ، لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : أن المدينة حرم ما بين ثور إلى غير فمن أحدث فيها حدثاً أو آوى محدثاً كان عليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه يوم القيامة صرف ولا

(١) سورة البقرة ١٤٤.

(٢) الدر المنثور ٣٤٦/٩.

عدل وذمة المسلمين واحدة فمن أخفر مسلماً فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين لا يقبل منه صرف ولا عدل^(١).

فمن إعجاز الآية القرآنية أنها تأتي إنذاراً في موضوع مخصوص ولكن دلالاته أعم فتشمل وجوهاً:

الأول : الإنذار الأعم في أمور مساوية ومشابهة لذات الموضوع ، وأشد منه أذى وضرراً ، وفي التنزيل ﴿وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ﴾^(٢).

الثاني : البشارة بالسلامة والنفع في إجتنب ما حذر وأنذر الله عز وجل منه .

الثالث : بيان حاجة الناس للإنذار القرآني .

الرابع : تجلي الثمرات التي تترشح عن الإنذار القرآني ، ومن أسرار البشارة والإنذار القرآني تجدد إطلاقاته على الناس في كل يوم من أيام الحياة الدنيا .

فمع طلوع الفجر تعانق تلاوة المسلمين للقرآن في صلاة الصبح أولى خيوطه ، وتردد صداها الجبال والوديان والجنان ، وفي التنزيل حكاية عن الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا * يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ﴾^(٣).

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم استحباب قراءة السور القصيرة ، وهي سور مكية تتصف بلغة الإنذار مثل قوله تعالى ﴿لَا يَلَا فِ قُرَيْشٍ * إِيْلَافِهِمْ رِحْلَةَ الشِّتَاءِ وَالصَّيْفِ * فَلْيَعْبُدُوا رَبَّ هَذَا الْبَيْتِ * الَّذِي أَطْعَمَهُمْ

(١) السنن الكبرى / النسائي ٤٨٦/٢.

(٢) سورة آل عمران ٢٨.

(٣) سورة الجن ١-٢.

مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ^(١)، وقوله تعالى ﴿أَرَأَيْتَ الَّذِي يُكَذِّبُ بِالْذِّنِّ
* فَذَلِكَ الَّذِي يَدْعُ الْيَتِيمَ * وَلَا يَحْضُ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ^(٢)﴾.

ومن الإعجاز في هاتين السورتين بلحاظ آية البحث أن كل آية منهما تبين تعلق الزكاة والصدقات في أموال قريش وتزجر عن الإمتناع عنها ، ولكنهم امتنعوا عنها وحاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقال بعضهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُ أَعْيَاءُ^(٣)﴾.

وهذا الربط والصلة بين آيات القرآن من الإعجاز في نظم الآيات والتجانس والتداخل بينها ، ليأتي هذا الجزء من تفسيري للقرآن في الصلة بين الآية الثمانين بعد المائة والآية الحادية والثمانين بعد المائة من سورة آل عمران.

قانون قبح الظن الخاطئ

من إعجاز آية السياق أنها ابتدأت بالإخبار عن الظن الخاطئ ، وعلم الله به لبيان علم الله عز وجل بما يعمل الناس من باب الأولوية القطعية ، لبيان مسألة وهي قطع الظن الخاطئ لإصلاح العمل ، وإجتنب ما يترتب على الظن الخاطئ الذي يقود إلى الضلالة ، فمن رحمة الله عز وجل ببعثة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إخبار الناس عن علم الله بظنونهم ونواياهم ، والثناء على الظن الحسن .

(وعن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : حُسْنُ الظَّنِّ مِنْ حُسْنِ الْعِبَادَةِ^(٤)).

(١) سورة قريش ١-٤.

(٢) سورة الماعون ١-٢.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

(٤) تفسير الثعالبي ٣/٤٧٤.

والبعث على اتيان مصداق النوايا الحسنة ، وصيرورتها واقعاً ، وفضح
الظن القبيح لتتزيه الناس منه ، ويحتمل هذا التنزه وجوهاً :

الأول : إنه على نحو الموجبة الكلية ، ليكون من إعجاز الآية القرآنية
ترك الناس جميعاً لظن سئ مخصوص ، وفي قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا
اجْتَنِبُوا كَثِيرًا مِّنَ الظَّنِّ﴾^(١) ذكر أن الآية نزلت في رجلين من أصحاب
رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم اغتابا رفيقهما إذ كان رسول الله
صلى الله عليه وآله وسلم اذا خرج في كتيبة أو سفر (ضمّ الرجل المحتاج
إلى رجلين موسورين يخدمهما ،

ويحقب حوائجهما ،

ويتقدّم لهما إلى المنزل ،

فيهنئ لهما ما يصلحهما من الطعام ،

والشراب ،

فضمّ سلمان الفارسي ح إلى رجلين في بعض أسفاره ،

فتقدّم سلمان ،

فغلبته عيناه ،

فلم يهين لهما شيئاً ،

فلما قدما ،

قالا له : ما صنعت شيئاً ؟

قال : لا . قالا : ولم ؟

قال : غلبتني عينا ،

فقالا له : انطلق إلى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} واطلب لنا منه

طعاماً وإداماً ،

فجاء سلمان إلى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وسأله طعاماً،
فقال رسول الله {صلى الله عليه وسلم} «انطلق إلى أسامة بن زيد
وقل له : إن كان عنده فضل من طعام،

وإدام،

فليعطك.

وكان أسامة خازن رسول الله {صلى الله عليه وسلم} وعلى رحله،
فأتاه،

فقال : ما عندي شيء،

فرجع سلمان إليهما،

وأخبرهما بذلك،

فقالا : كان عند أسامة،

ولكن بخل،

فبعثا سلمان إلى طائفة من الصحابة،

فلم يجد عندهم شيئاً،

فلما رجع سلمان،

قالا : لو بعثناه إلى بئر سميحة لغار ماؤها،

ثم انطلقا يتجسّسان هل عند أسامة ما أمر لهما به رسول الله {صلى

الله عليه وسلم}

فلما جاء إلى رسول الله {صلى الله عليه وسلم} قال لهما : ما لي

أرى خضرة اللحم في أفواهكما قالا : يا رسول الله،

والله ما تناولنا يومنا هذا لحماً،

فقال : ظللتم تأكلون لحم سلمان،

وأسامة.

فأنزل الله سبحانه :

{يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيراً من الظن} .
 {إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ وَلَا تَجَسَّسُوا} (١).
 وتدل الآية القرآنية على أمور :

الأول : الشهادة على وجود الظن السيئ عند قوم أيام نزول القرآن إذ
 أظهر الذين كفروا الجحود بالنبوة والمعاد ، قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْنَا سَمَاءَ
 وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بِإِلَازِلِكَ ظَنِّ الَّذِينَ كَفَرُوا فَوَيْلٌ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مِنَ النَّارِ﴾ (٢).
 (٢)

الثاني : صدق نزول القرآن من عند الله لما فيه من الإخبار عن علوم
 الغيب ، ولا يعلم بما عند الناس من الظنون والأمانى إلا الله عز وجل
 لقوله تعالى ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ (٣) ، فان قيل هل تدل
 آية السياق على وجود هذا الظن والحسبان أم أن قوله تعالى ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ
 الَّذِينَ يَبْخُلُونَ﴾ تحذير من هذا الحسبان ، ومنع من حدوثه ، والجواب
 لا مانع من الجمع بينهما وهو المختار ، والأصل أن الآية تمنع من هذا
 الحسبان الذي هو جزء علة للبخل بالحق الشرعي ونتيجة له .

الثالث : إصلاح القلوب ، ومنع الأمراض النفسية من الدبيب للناس
 ، ويلقى الطب النفسي العناية الفائقة من أطباء الأبدان في هذا الزمان ،
 وصار علماً مستقلاً بذاته ، وقد تضمن القرآن الوقاية والعلاج من
 الأمراض النفسية ، وهل الإنفاق في سبيل الله ودفع الحقوق الشرعية

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٢٦٩/١٢ .

(٢) سورة ص ٢٧ .

(٣) سورة غافر ١٩ .

بقصد القربة إلى الله من مصاديق قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ تَعَالَى﴾ (١) الجواب نعم .

وتتضمن كل من آية السياق والبحث والجمع بينهما قانوناً وهو نفي الظن بأن البخل بالحقوق الشرعية خير ونفع من رشحات هذا البخل المرض النفسي وغلبة شدة الحرص على عالم القول والفعل . فجاءت آية السياق لقطع هذه الملازمة بالإخبار بأن هذا البخل شر لأصحابه .

لقد اختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢) ، وفيه بعث للناس للتنزه عن البخل والشح في الحقوق الشرعية ولما نفت آية البحث صبغة الخير عن البخل بالحقوق الشرعية فما هو سبيل الخير لهم ، جاء الجواب في خاتمة الآية ببعثهم على التوبة ، وبأن الله عز وجل يعلم ما يفعلون معها من الخير ، واجتناب الشر والسوء والفحشاء . ومن إعجاز القرآن إتصال المعنى والتداخل بين خاتمة الآية القرآنية وأول الآية التالية لها .

لغة الطير

جاءت الأخبار ببيان وذكر تسبيح الطير والحيوانات لله عز وجل ، لتكون حجة على الناس ودعوة للعبادة ودفع الزكاة . وقد تفضل الله عز وجل على الناس بأن جعل داود سليمان يعلمان لغة الطير ، وأخبر به سليمان الناس شكراً لله عز وجل ولإنتفاع الأجيال

(١) سورة الرعد ٢٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

من بركة النبوة ، إذ وردت حكاية عن سليمان ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ عَلِمْنَا مَنَظِقَ الطَّيْرِ﴾^(١) وكان داود أشد تعبدًا من سليمان الذي صار ملكه أعظم .

وعن مقاتل في الآية أعلاه قال (كان سليمان (عليه السلام) جالساً إذ مرَّ به طائر يطوف فقال لجلسائه : هل تدرون ما يقول الطائر الذي مرَّ بنا؟ قالوا : أنت أعلم،

فقال سليمان : إنه قال لي : السلام عليك أيُّها الملك المسلَّط على بني إسرائيل،

أعطاك الله سبحانه وتعالى الكرامة وأظهرك على عدوك،
إنِّي منطلق إلى فروخي ثم أمر بك الثانية،
وإنه سيرجع إلينا الثانية فانظروا إلى رجوعه.

قال : فنظر القوم طويلاً إذ مرَّ بهم فقال : السلام عليك أيُّها الملك إن شئت أن تأذن لي كيما أكسب على فروخي حتى يشبوا ثم آتيك فافعل بي ما شئت،

فأخبرهم سليمان بما قال وأذن له.

وقال فرقد السخي : مرَّ سليمان على بلبل فوق شجرة يحرك رأسه ويميل ذنبه فقال لأصحابه : أتدرون ما يقول هذا البلبل؟
قالوا : الله ونبيه أعلم،

قال : يقول : أكلتُ نصف تمره فعلى الدنيا العفا.

وأخبرني الحسين بن محمد بن الحسن العدل قال : حدثنا عبيد الله بن محمد بن شنبه وأحمد ابن جعفر بن حمدان قالوا : حدثنا الفضل بن العباس الرازي قال : حدثنا أبو عبيد قال : حدثنا موسى ابن إبراهيم قال :

حدَّثنا عباد بن إبراهيم عن الكلبي عن رجل عن كعب قال : صاح
ورشان عند سليمان بن داود (عليه السلام) فقال : أتدرون ما تقول ؟
قالوا : لا .

قال : فإنها تقول : ليت ذا الخلق لم يخلقوا .
وصاح طاووس عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما يقول ؟
قالوا : لا .

قال : فإنه يقول : مَنْ لا يَرْحَمُ لا يُرْحَمُ .
وصاح صرد عند سليمان فقال : أتدرون ما يقول ؟
قالوا : لا .

قال : فإنه يقول : استغفروا الله يا مذنبين ،
فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتله .
قال : فصاحت طيطوى عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما
تقول ؟

قالوا : لا .
قال : فإنها تقول : كلَّ حَيٍّ مَيِّتٌ ،
وكلَّ جَدِيدٍ بَالٍ .
وصاح خطاف عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما يقول ؟
قالوا : لا .

قال : فإنه تقول : قدّموا خيراً تجدوه ،
فمن ثم نهى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم عن قتله .
وهدرت حمامة عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما تقول
هذه الحمامة ؟

قالوا : لا .
قال : فإنها تقول : سبحان ربي الأعلى ملء سمائه وأرضه .

وصاح قُمريّ عند سليمان (عليه السلام) فقال : أتدرون ما يقول ؟
قالوا : لا.

قال : فإنّه يقول : سبحان ربّي الأعلى ،
والغراب يدعو على العشار ،
والحدأة تقول : كلّ شيء هالك إلاّ الله . والقطاة تقول : من سكت
سلم ،

والبيغاء تقول : ويل لمن الدنيا همه ،
والضفدع يقول : سبحان ربّي القدّوس ،
والبازي يقول : سبحان ربّي وبحمده ،
والضفدعة تقول : سبحان المذكور بكلّ مكان .
وأخبرنا الحسين بن محمد قال : حدّثنا أحمد بن جعفر بن حمدان قال
: حدّثنا الفضل بن العباس بن مهران قال : حدّثنا أبو عبيد قال : حدّثنا
موسى بن إبراهيم قال : أخبرنا إسماعيل عن عياش عن زرّ عن مكحول
قال : صاح درّاج عند سليمان بن داود (عليه السلام) فقال : أتدرون ما
يقول ؟

قالوا : لا.

قال فإنّه يقول : الرّحمن على العرش استوى .
ويأسناده عن موسى بن إبراهيم قال : أخبرنا صالح الهروي عن
الحسن قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : الديك إذا صاح
يقول : اذكروا الله يا غافلين .

وروى جعفر بن محمد الصادق عن أبيه عن جدّه عن الحسن بن علي
عليهم السلام قال : إذا صاح النسر قال : يا ابن آدم عش ما شئت آخره
الموت ،

وإذا صاح العقاب قال : في البعد من الناس أنس ،

وإذا صاح القبر قال : الهي العن مبغضي آل محمد ،
وإذا صاح الخطاف قرأ : الحمد لله رب العالمين ،
يمد الضالين كما يمد للقارئ .^(١)

وقد تفضل الله عز وجل وجعل القرآن ﴿تَيْنَانًا لِكُلِّ شَيْءٍ﴾^(٢)
ووردت قصة النمل مع سليمان وجنوده ، وخبر الهدد معه في آية
ومعجزة ، وحجة ، وكان سليمان أعظم ملكاً من داود ، قال تعالى
﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ * حَتَّى
إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِي النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِمَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ
وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ * فَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِنْ قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ
أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَى وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ
وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ * وَفَقَدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى
الْهُدُودَ أَمْ كَانَتْ مِنَ الْغَائِبِينَ * لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِي
بِسُلْطَانٍ مُبِينٍ * فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحِطُ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ
يَقِينٍ * إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ
وقوله تعالى ﴿فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ * يحبس المتقدم منهم حتى يلحق به المتأخر
إلى أن يجتمعوا فيفتقدهم سليمان ، وتدل المعجزات التي نالها الأنبياء من
عند الله عز وجل على أنه سبحانه الغني والقادر على كل شيء .

(١) الدر المنثور ٩/٤٦٦ .

(٢) سورة النحل ٨٩ .

(٣) سورة النمل ١٧-٢٣ .

(عن ابن مسعود قال كنا مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم في سفر فمررنا بشجرة فيها فرخا حمرة فأخذناهما فمرت الحمرة إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم وهي تعرض فقال من فجع هذه بفرخيها قلنا نحن قال ردوهما موضعهما فرددناهما) ^(١).

(وأخرج ابن عساكر : قال لما فتح رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم خيبر أصاب فيها حمارا أسود فوقف بين يديه فكلم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الحمار فكلمه الحمار فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم ما اسمك .

قال أخرج الله تعالى من نسل جدي ستين حمارا كلهم لا يركبه إلا نبي قد كنت أتوقعك أن تركبني لم يبق من نسل جدي غيري ولا من الأنبياء غيرك قد كنت قبلك لرجل يهودي وكنت أتعثر به عمدا وكان يجيع بطني ويضرب ظهري .

فقال له النبي صلى الله عليه وآله وسلم فأنت يعفور .

فكان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يبعث به إلى باب الرجل فيأتي الباب فيقرعه برأسه فإذا خرج إليه صاحب الدار أومىء إليه أن أجب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

فلما قبض النبي صلى الله عليه وآله وسلم جاء إلى بئر كانت لأبي الهيثم بن التيهان فتردى بها جزعا على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ^(٢).

الجوار بين آية البحث والسياق

من ذخائر القرآن العلوم التي تستقرأ من الجوار بين كل آيتين من القرآن ، وسيأتينا (قانون خزائن الجوار بين الآيات) ^(١).

(١) الخصائص الكبرى ٩٩/٢.

(٢) الخصائص الكبرى ١٠٠/٢.

ومن أسرار الجوار بين آية البحث والسياق تضمن كل واحدة منهما ذم البخل من جهات :

الأولى : بيان قبح البخل بالحقوق الشرعية وإمساكها .

الثانية : الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية أذى وضرر على صاحبه .

فقد ورد في آية السياق قوله تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾^(٢) وليس من حصر

لوجوه هذا الشر إذ تشمل العوالم الطولية :

الأول : الحياة الدنيا .

الثاني : حال الإنسان في القبر .

الثالث : عالم الآخرة .

وهل قول طائفة من الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله ﴿إِنَّ اللَّهَ

فَقِيرٌ وَخَسْفُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) الذي ورد في آية البحث من الشر الذي ذكرته آية

السياق .

المختار نعم ، إذ أن البخل بالحقوق يؤدي إلى الجحود والعقوق .

وفي قصة ثعلبة بن حاطب عندما سأل النبي صلى الله عليه وآله وسلم

أن يدعو له وتعهده بأداء الحقوق الشرعية كما ورد (عن أبي أمامة الباهلي

قال : جاء ثعلبة بن حاطب إلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال

: يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا .

قال : ويحك يا ثعلبة ، أما ترضى أن تكون مثلي؟ فلو شئت أن يسير

ربي هذه الجبال معي لسارت .

(١) أنظر الجزء التاسع والثمانين بعد المائة من هذا السفر .

(٢) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

قال : يا رسول الله ادع الله أن يرزقني مالا ، فوالذي بعثك بالحق إن آتاني الله مالا لأعطين كل ذي حق حقه . قال : ويحك يا ثعلبة . . . ! قليل تطبيق شكره خير من كثير لا تطبيق شكره . فقال : يا رسول الله ، ادع الله تعالى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : اللهم أرزقه مالا^(١) . ولما كثرت غنم ثعلبة وضاعت بها طرق المدينة تنحى بها وصار يطلب لها الراعي ، فكان لا يحضر الصلوات اليومية الخمس إنما يكتفي بحضور صلاة الجمعة .

ثم إزداد النماء في غنمه وكثرت ، فصار لا يحضر حتى الجمعة ، وعندما بعث له النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم المصدقين لأخذ الزكاة لقوله تعالى ﴿ خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾^(٢) طلب حاطب الكتاب الذي جاء به رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وعندما نظر للأنصبة ومقدار الزكاة في الغنم ، قال (ما هذا إلا جزية انطلقا حتى أرى رأيي)^(٣) وحينما عادا إلى النبي صلى الله عليه وآله قال لها قبل أن يسألها : ويح ثعلبة بن حاطب ، ونزل فيه قوله تعالى ﴿ وَمَنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ لَئِنْ آتَانَا مِنْ فَضْلِهِ لَنَصَّدَّقَنَّ ﴾^(٤) .

(١) الدر المنثور ٥/١٢٠.

(٢) سورة التوبة ١٠٣.

(٣) البيهقي / دلائل النبوة ٥/٢٧٥.

(٤) سورة التوبة ٧٥.

أما آية البحث فانها تخص بعض الأغنياء من الذين كفروا والذين لم يكتشفوا بحجب وحبس الحقوق الشرعية التي في أموالهم ، إنما راحوا يتعدون بالقول والفعل ، ويقولون إن الله فقير .

ومن معاني الشر في هذا القول نزول آية البحث في ذمهم وتبكيتهم إذ يتكرر هذا الدم في مشارق الأرض ومغاربها مئات المرات كل يوم لبيان قانون من جهات :

الأولى : قانون في القرآن أكثر المدح ترديداً وتلاوة في تاريخ البشرية .

الثانية : قانون الدم في القرآن أكثر الدم في التاريخ .

الثالثة : قانون المدح والدم في القرآن مدرسة الإصلاح الأولى بلحاظ الكيفية واللغة .

ومع مجئ آية السياق في ذم الذين ييخلون بالحقوق الشرعية وتعقب آية البحث لها في ذات الموضوع وصيغة الدم مع بيان تعدي وظلم الكفار الذين ييخلون بالحقوق الشرعية ، فان الآيتين تدلان في مفهومهما على دعوة المسلمين للتعاون والتأزر بينهم ، واجتناب الظلم بالبخل الذي هو ظلم للذات والغير .

(وأخرج ابن أبي الدنيا في كتاب التقوى عن رجل من بني سليط قال : أتيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وهو يقول : المسلم أخو المسلم لا يخذله ولا يظلمه ، التقوى ههنا التقوى ههنا وأوماً بيده إلى صدره) ^(١) .

(عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : من نفس عن مسلم كربة من كرب الدنيا نفس الله عنه كربة من كرب يوم القيامة ، ومن يسر على معسر في الدنيا يسر الله عليه في الدنيا والآخرة ، ومن ستر على مسلم في الدنيا ستر الله عليه في الدنيا والآخرة ، والله في عون العبد ما كان العبد في

عون أخيه^(١)، وفي الصحيح : إذا دعا المسلم لأخيه بظهر الغيب قال الملك: آمين، ولك بمثله ، والأحاديث في هذا كثيرة، وفي الصحيح: "مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتواصلهم كمثل الجسد الواحد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالحُمى والسهر"^(٢).

وقال أحمد: حدثنا أحمد بن الحجاج، حدثنا عبد الله، أخبرنا مصعب بن ثابت، حدثني أبو حازم قال: سمعت سهل بن سعد الساعدي يحدث عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "إن المؤمن من أهل الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد، يألم المؤمن لأهل الإيمان، كما يألم الجسد لما في الرأس"^(٣).

ومن معاني الجمع بين الآيتين الزجر عن الشرك بالله لأنه أم الكبائر وهو مانع من الإنفاق في سبيل الله ، ومن الإمثال للأوامر الإلهية ، وعن العباس بن يزيد : عن الإمام الصادق عليه السلام قال: قلت: إن هؤلاء العوام يزعمون أن الشرك أخفى من ديب النمل في الليلة الظلماء على المسح الأسود ، فقال : لا يكون العبد مشركا حتى يصلي لغير الله، أو يذبح لغير الله، أو يدعو لغير الله عز وجل^(٤).

وفيه دعوة للمسلمين والمسلمات بعدم رمي الذي ينطق بالشهادتين والموحدين بالكفر والشرك ، وليس من أحد يدفع الزكاة أو الخمس إلا بقصد القرية إلى الله عز وجل، فهذا الدفع والبذل شاهد على الإيمان ، وكذا الإيمان بوجوب الزكاة .

(١) الدر المنثور ٢/٢٥٠.

(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٧٤.

(٣) تفسير ابن كثير ٧/٣٧٥.

(٤) البحار ٦٩/٩٦.

الحمد لله الذي جعل اللسان يتذوق طعم الثناء عليه ، وتطمئن النفس له ، وبينما جاءت آية البحث بالإنذار للذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فقد أختتمت بقوله تعالى ﴿وَقُولُوا ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

وهل ينحصر هذا التذوق بالآخرة أم يشمل الحياة الدنيا ، الجواب هو الثاني ، فمن أسرار القرآن تقريب المحسوس بلغة المعقول والإدراك ، وفي التنزيل ﴿يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنْزَلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾^(١) .

وكانوا يتناجون بالسر ، فيبيتون والخشية تملأ صدورهم من احتمال فضح الله عز وجل لهم وافشاء سرهم .

فنزّل قوله تعالى ﴿قُلْ اسْتَهِزُّوا إِنَّا لِلَّهِ مُخْرِجُ مَا تَخْذَرُونَ﴾^(٢) وكانت سورة التوبة تسمى بأسماء وهي :

الأولى : السورة الفاضحة لأنها فضحت المنافقين .

الثانية : السورة المثيرة ، لأنها أثارت وكشفت مثالب المنافقين .

الثالثة : المبعثرة ، لأنها تبعثر أسرار المنافقين .

الرابعة : سورة براءة وعن (عبد الله بن عباس: أنزل الله تعالى ذكر سبعين رجلا من المنافقين بأسمائهم وأسماء آبائهم ثم نسخ ذكر الاسماء رحمة للمؤمنين ، لئلا يعير بعضهم بعضا ، لأن أولادهم كانوا مؤمنين).^(٣)

الخامسة : سورة المقتشفة ، أي تبرء من النفاق .

السادسة : البحوثة .

السابعة : المنقرة .

الثامنة : الحافرة .

(١) سورة التوبة ٦٤ .

(٢) سورة التوبة ٦٤ .

(٣) تفسير البغوي ٦٨/٤ .

التاسعة : المخزية .

العاشرة : المنكلة .

الحادية عشرة : المشردة .

الثاني عشر : المدممة .

الثالث عشر : سورة العذاب .

ويبين تعدد أسماء سورة التوبة مسائل :

الأولى : موضوعية السورة القرآنية في كشف أحوال الناس .

الثانية : إصلاح الآية القرآنية للنفوس .

الثالثة : محاربة الآية القرآنية للمفاهيم الخاطئة .

الرابعة : الآية القرآنية سلاح يومي متجدد في كل ساعة لمحاربة الكفر

والنفاق ، وهو من أسرار بقاء القرآن يتلى كل يوم في مشارق ومغارب الأرض وبسلامة وعصمة من التحريض أو الزيادة أو النقصان .

الخامسة : عدم الحاجة إلى قتل أو قتال المنافقين والذين في قلوبهم

مرض ، إذ تدفع الآية القرآنية أذاهم ، وفي ذات الوقت تدعوهم إلى الإيمان .

من معاني اسم الخبير

أختمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ بصيغة الفعل

المضارع ، وإرادة أفراد الزمان الطولية الزمن الماضي ، والأفعال التي انقضت ، والزمن الحاضر ، وكذا أفعال الأمم السابقة ، وفي قوله تعالى

﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ دعوة للناس للإستغفار لأبائهم والبر بهم ، (عن

أبي قتادة ، عن أبيه ، قال : سمعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول :

خير ما يخلف المرء بعد موته ثلاث : ولد صالح يدعو له ، وصدقة تجري يبلغه أجرها ، وعلم يعمل به من بعده^(١).

ولو كان الأب والأم كافرين ، أو أحدهما كافر ، فهل ينفعه الإستغفار والبر به بالصدقة ونحوها ، الجواب نعم ، وتقدير الآية على وجوه :

الأول : والله بما عملتم خير.

الثاني : والله بما فعلتم خير.

الثالث : والله بما عمل آبائكم خير.

الرابع : والله بما عمل الناس من لدن آدم خير.

الخامس : والله بما يعمل الناس إلى يوم القيامة خير.

السادس : والله بمنافع أو أضرار ما تعملون خير .

ومن معاني اسم (الخبير) في المقام أن الله عز وجل يتعاهد الإيمان في الأرض ، ويمنع من سيادة مفاهيم الضلالة فجاءت آية السياق للمنع من الشح والبخل بالحقوق الشرعية ، وتعقبها آية البحث للمنع من المقولات الباطلة ، ومن المغالطة بإيجاد العذر للفعل القبيح والقول السيئ .

لقد أصلح الله عز وجل الأرض بالنبوة والتنزيل ونزل القرآن كتاباً جامعاً للأحكام الشرعية ، ومدافعاً عنها ، وهذا الدفاع من إعجاز القرآن في تثبيت هذه الأحكام وعمل الناس بها ، أي أن القرآن لا يقف عند فرض الأحكام الشرعية إنما يأتي بصيغ الدفاع عنها وفضح الذين يمتنعون عن العمل بها ، وبيان سوء إختيارهم بهذا الإمتناع.

ليكون الدفاع عن الأحكام الشرعية النازلة من السماء على وجوه :

الأول : تفضل الله ببيان النفع العظيم والأجر الجزيل للعمل بالأحكام

الشرعية .

الثاني : بيان حاجة الناس للأحكام الشرعية.

الثالث : دفاع الله عز وجل عن الأحكام الشرعية ، وعن الذين يطيعونه ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾^(١).

الرابع : نزول القرآن بدم وتقييح الذين يمتنعون عن الإمتثال للتكاليف ومنها الزكاة إذ نعتت آية البحث الذين يمتنعون عن دفعها بأنهم بخلاء ، وبخلهم هذا ليس بأموالهم وكسبهم ، إنما بفضل الله عز وجل الذي جعل للفقراء فيه سهماً وحصة لتتزل البركة في الباقي منه .

وأيهما أعظم البركة التي تصيب المال المتبقي أم الأجر والثواب على دفع الزكاة ، الجواب هو الثاني ، لتكون البركة مرآة ومقدمة وبشارة للثواب العظيم ، عن (الحارث بن ضرار الخزاعي يقول: قدمت على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فدعاني إلى الإسلام، فدخلت فيه وأقررت به، ودعاني إلى الزكاة فأقررت بها.

وقلت: يا رسول الله، أرجع إليهم فأدعوهم إلى الإسلام وأداء الزكاة، فمن استجاب لي جمعت زكاته، ويرسل إلي رسول الله رسولا لإبأن كذا وكذا ليأتيك بما جمعت من الزكاة .

فلما جمع الحارث الزكاة ممن استجاب له، وبلغ الإبأن الذي أراد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن يبعث إليه، احتبس عليه الرسول فلم يأت، فظن الحارث أنه قد حدث فيه سُخْطَةٌ من الله ورسوله، فدعا بسرورات قومه .

فقال لهم: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان وَقَّتَ لي وقتاً يرسل إلي رسول الله ليقبض ما كان عندي من الزكاة، وليس من رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الخُلْف، ولا أرى حبس رسول الله إلا من

سخطة كانت، فانطلقوا فنأتي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، وبعث رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الوليد بن عقبة إلى الحارث ليقبض ما كان عنده مما جمع من الزكاة، فلما أن سار الوليد حتى بلغ بعض الطريق فرّق -أي: خاف- فرجع فأتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، فقال: يا رسول الله، إن الحارث منعني الزكاة وأراد قتلي. فضرب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم البعث إلى الحارث. وأقبل الحارث بأصحابه حتى إذا استقبل البعث وفصل عن المدينة لقيهم الحارث .

فقالوا: هذا الحارث، فلما غشيهم قال لهم: إلى من بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم كان بعث إليك الوليد بن عقبة، فزعم أنك منعت الزكاة وأردت قتله. قال: لا والذي بعث محمداً بالحق ما رأيته بته ولا أتاني. فلما دخل الحارث على رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "منعت الزكاة وأردت قتل رسولي؟". قال: لا والذي بعثك بالحق ما رأيته ولا أتاني، وما أقبلت إلا حين احتبس علي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم، خشيت أن يكون كانت سخطة من الله ورسوله.

قال : فنزلت الحجرات : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ﴾^(١) إلى قوله : {حكيم} ^(٢).

من ثواب العبادة

تفضل الله عز وجل ببيان ثواب الأجر والثواب لمن يأتي بالفرائض العبادية ، وجاء هذا البيان من جهات :

الأولى : بنزول آيات القرآن بالثواب العظيم على أداء العبادات ، وسيأتي في قانون (آيات الثواب على الفرائض) ومنه في فضل وثواب أداء

(١) سورة الحجرات ٦.

(٢) تفسير ابن كثير ٣٧٠/٧.

الصلاة قوله تعالى ﴿وَالَّذِينَ هُمْ عَلَى صَلَاتِهِمْ يُحَافِظُونَ﴾ * أُولَئِكَ فِي جَنَّاتٍ مُّكْرَّمُونَ ﴿١﴾ .

إذ وعد الله عز وجل الذين يتعهدون أداء الصلاة اليومية باللبث الدائم في الجنة ، ومنه في أداء الصيام ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ ﴿٢﴾ .

فذاات الكتابة وفرض الصيام نعمة من عند الله تتضمن الوعد والجزاء على الإمثال (عن ابن عباس : أن رجلاً أتى النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني أحبك حتى إني أذكرك ، فلولا أني أجيء فأنظر إليك ظننت أن نفسي تخرج ، وأذكر أني إن دخلت الجنة صرت دونك في المنزلة فيشق علي وأحب أن أكون معك في الدرجة . فلم يرد عليه شيئاً ، فأنزل الله ﴿وَمَن يَطْعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ...﴾ ﴿٣﴾ الآية . فدعاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، فتلاها عليه) ﴿٤﴾ .

ومنه في حج بيت الله الحرام إذ وردت نصوص كثيرة في ثواب حج بيت الله الحرام وتلقاها المسلمون بالقبول ، وهي من أسرار بعث الشوق في نفوسهم لأداء هذه الفريضة ، ومع أن الحج في موسم وأيام مخصوصة من السنة ، قال تعالى ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ﴾ ﴿٥﴾ فان عشق البيت والشوق لأداء الحج يتجدد طيلة أيام السنة ، وقد حج آدم والأنبياء البيت الحرام

(١) سورة المعارج ٣٤-٣٥.

(٢) سورة البقرة ١٨٣.

(٣) سورة النساء ٦٩.

(٤) الدر المنثور ١٦٤/٢.

(٥) سورة البقرة ١٩٧.

(وأخرج الجندي والديلمي عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : كان البيت قبل هبوط آدم ياقوتة من يواقيت الجنة ، وكان له بابان من زمرد أخضر ، باب شرقي وباب غربي ، وفيه قناديل من الجنة ، والبيت المعمور الذي في السماء يدخله كل يوم سبعون ألف ملك لا يعودون فيه إلى يوم القيامة حذاء الكعبة الحرام ، وأن الله عز وجل لما أهبط آدم إلى موضع الكعبة وهو مثل الفلك من شدة رعدته ، وأنزل عليه الحجر الأسود وهو يتلألاً كأنه بيضاء فأخذه آدم فضمه إليه استئناساً ، ثم أخذ الله من بني آدم ميثاقهم فجعله في الحجر الأسود ، ثم أنزل على آدم العصا .

ثم قال : يا آدم تخط . فتخطى فإذا هو بأرض الهند ، فمكث هناك ما شاء الله ثم استوحش إلى البيت ، فقيل له : احجج يا آدم . فأقبل يتخطى ، فصار كل موضع قدم قرية وما بين ذلك مفازة حتى قدم مكة ، فلقيته الملائكة .

فقالوا : بر حجك يا آدم ، لقد حججنا هذا البيت قبلك بألفي عام . قال : فما كنتم تقولون حوله؟ قالوا : كنا نقول : سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر ، وكان آدم إذا طاف بالبيت قال هؤلاء الكلمات ، وكان آدم يطوف سبعة أسابيع بالنهار قال آدم : يا رب اجعل لهذا البيت عمارة يعمرونه من ذريتي .

فأوحى الله تعالى أني معمره نبياً من ذريتك اسمه إبراهيم ، اتخذته خليلاً أقضي على يديه عمارته ، وأنيط له سقايته ، وأريه حله وحرمة ومواقفه ، واعلمه مشاعره ومناسكه .

وقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم إن آدم سأل ربه فقال : يا رب أسألك من حج هذا البيت من ذريتي لا يشرك بك شيئاً أن تلحقه بي في الجنة .

فقال الله تعالى : يا آدم من مات في الحرم لا يشرك بي شيئاً بعثته آمناً يوم القيامة (١).

الثانية : ورود السنة النبوية بثواب الأعمال العبادية ومطلق الصالحات وهي على وجوه :

الأول : بيان فضل العبادات .

الثاني : الجزاء من عند الله على أداء الفرائض العبادية .

الثالث : بيان فضل وثواب كل وجه من وجوه العبادات من الصلاة والزكاة والصيام والخمس والحج .

وكيف أن كل واحدة منها ركن ودعامة من دعائم الإسلام .

(عن ابن عمر عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : بني الإسلام على خمس : شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، وإقام الصلاة ، وإيتاء الزكاة ، وصوم رمضان ، والحج .

وأخرج أحمد وأبو داود وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم والحاكم وصححه والبيهقي في سننه عن معاذ بن جبل قال : أحيلت الصلاة ثلاثة أحوال ، وأحيل الصيام ثلاثة أحوال . فأما أحوال الصلاة فإن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قدم المدينة فصلى سبعة عشر شهراً إلى بيت المقدس ، ثم أن الله أنزل عليه { قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها . . . } (٢) الآية .

فوجهه الله إلى مكة هذا حول ، قال : وكانوا يجتمعون للصلاة ويؤذن بها بعضهم بعضاً حتى نفسوا أو كادوا ، ثم أن رجلاً من الأنصار يقال له عبد الله بن زيد أتى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا رسول الله إني رأيت فيما يرى النائم ، ولو قلت أنني لم أكن نائماً لصدقت ، إني

(١) الدر المنثور ١/٢٥٦.

(٢) سورة البقرة ١٤٤.

بيننا أنا بين النائم واليقظان إذ رأيت شخصاً عليه ثوبان أخضران ، فاستقبل القبلة فقال : الله أكبر الله أكبر أشهد أن لا إله إلا الله مثني مثني حتى فرغ الأذان ، ثم أمهل ساعة ثم قال مثل الذي قال : غير أنه يزيد في ذلك قد قامت الصلاة .

قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : علمها بلالاً فليؤذن بها . فكان بلال أول من أذن بها قال : وجاء عمر بن الخطاب فقال : يا رسول الله إنه قد طاف بي مثل الذي طاف به غير أنه سبقني فهذان حولان .

قال : وكانوا يأتون الصلاة قد سبقهم النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببعضها ، فكان الرجل يسر إلى الرجل كم صلى فيقول واحدة أو اثنين فيصليهما ، ثم يدخل مع القوم في صلاتهم ، فجاء معاذ فقال : لا أجده على حال أبداً إلا كنت عليها ثم قضيت ما سبقتي ، فجاء وقد سبقه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ببعضها فثبت معه ، فلما قضى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم صلاته قام فقضى .

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قد سن لكم معاذ فهكذا فاصنعوا . فهذه ثلاثة أحوال .

وأما أحوال الصيام فإن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قدم المدينة ، فجعل يصوم من كل شهر ثلاثة أيام ، وصام عاشوراء ، ثم إن الله فرض عليه الصيام ، وأنزل الله يأيتها الذين آمنوا كُيَبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُيَبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ^(١) ، إلى قوله ﴿ وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ طَعَامُ مِسْكِينٍ ﴾^(٢) ، فكان من شاء صام ومن شاء أطعم مسكيناً فاجزأ ذلك عنه ، ثم إن الله أنزل الآية الأخرى { شهر رمضان الذي أنزل

(١) سورة البقرة ١٨٣ .

(٢) سورة البقرة ١٨٤ .

فيه القرآن هدى للناس {^(١) إلى قوله ﴿فَنَسِ شَهِدَ مِنْكُمْ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ﴾^(٢)،
فأثبت الله صيامه على المقيم الصحيح ، ورخص فيه للمريض والمسافر ،
وثبت الإطعام للكبير الذي لا يستطيع الصيام ، فهذان حولان .
قال : وكانوا يأكلون ويشربون ويأتون النساء ما لم يناموا فإذا ناموا
امتنعوا ، ثم إن رجلاً من الأنصار يقال له صرمة كان يعمل صائماً حتى
إذا أمسى ، فجاء إلى أهله فصلّى العشاء ثم نام فلم يأكل ولم يشرب حتى
أصبح صائماً .

فراه النبي صلى الله عليه وآله وسلم وقد جهد جهداً شديداً فقال : ما
لي أراك قد جهدت جهداً شديداً؟ قال : يا رسول الله إني عملت أمس ،
فجئت حين جئت فألقيت نفسي فنمت ، فأصبحت حين أصبحت صائماً
قال : وكان عمر قد أصاب النساء بعد ما نام ، فأتى النبي صلى الله عليه
وآله وسلم فذكر ذلك له ، فأنزل الله {أحل لكم ليلة الصيام الرفث }^(٣) إلى
قوله { ثم أتموا الصيام إلى الليل }^(٤) .

السادس : مجئ السنة النبوية بذكر العقاب الأليم الذي ينزل بالذين
يمتنعون عن الأحكام والتكاليف ، ومنه ما ورد بخصوص الإمتناع عن
الزكاة منها قول النبي صلى الله عليه وآله وسلم في مانع الزكاة وتفسير
وبيان آية البحث .

وعن (ابن مسعود عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من
رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا مثل له يوم القيامة شجاعاً أقرع يفر منه وهو
يتبعه فيقول : أنا كنزك حتى يطوق في عنقه . ثم قرأ علينا النبي صلى الله

(١) سورة البقرة ١٨٥ .

(٢) سورة البقرة ١٨٥ .

(٣) سورة البقرة ١٨٧ .

(٤) الدر المنثور ١/٢٥٤ .

عليه وسلم مصداقه من كتاب الله { ولا يحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله . . . } { الآية (١) } .

وتبعث آية البحث والأحاديث النبوية في المقام الترغيب بالزكاة والإنفاق في سبيل الله والخمس والإطعام ، وتجعل النفرة في النفس في حبس الحقوق الشرعية ، وتمنع من الفرح بالأموال الزكوية المحجوبة . ولا تختص هذه الأحاديث بذكر ما يطوق أعناق البخلاء بالزكاة يوم القيامة بل تشمل ذم الممتع عن الزكاة ، وتبين الضرر الذي يلحقه بنفسه في الدنيا والآخرة .

إذ يضر مانع الزكاة نفسه والفقراء والأخلاق العامة ، وإذا ما شاع منع الزكاة بين الناس ، وقلّ الأمرون بدفعها والترغيب بها ، حبست السماء قطرها ، قال تعالى ﴿ وَهُوَ الَّذِي يُرْسِلُ الرِّيحَ بُشْرًا بَيْنَ يَدَيْ رَحْمَتِهِ حَتَّى إِذَا أَقَلَّتْ سَحَابًا ثِقَالًا سُقْنَاهُ لِبَلَدٍ مَّيِّتٍ فَأَنْزَلْنَا بِهِ الْمَاءَ فَأَخْرَجْنَا بِهِ مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ كَذَلِكَ نُخْرِجُ الْمَوْتَى لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴾ (٢) .

وورد في الحديث أن منع الزكاة سبب لحبس السماء القطر (عن عطاء بن أبي رباح قال : كنت عند عبد الله بن عمر ، فقال : كنت عاشر عشرة في مسجد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي ، وابن مسعود ، وابن جبل ، وحذيفة ، وابن عوف ، وأبو سعيد الخدري ، وأنا ، فجاء فتى من الأنصار ، فسلم ، ثم جلس ، فقال : يا رسول الله ، أي المؤمنين أفضل ؟

(١) الدر المنثور ٤/٣ .

(٢) سورة الأعراف ٥٧ .

فقال : أحسنهم خلقا قال : فأبي المؤمنين أكيس ؟ قال : أكثرهم للموت ذكرا ، وأحسنهم استعدادا قبل أن ينزل به ، أولئك هم الأكياس . ثم سكت الفتى .

فأقبل علينا النبي صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا معشر المهاجرين ، خصال خمس إن ابتليتم بهن ونزلن بكم ، وأعوذ بالله أن تدركوهن : لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا ظهر فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا ، ولن ينقصوا المكيال والميزان إلا أخذوا بالسنين ، وشدة المؤنة ، وجور السلطان عليهم ، ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء ، ولولا البهائم لم يمطروا ، ولن ينقصوا عهد الله ورسوله إلا سلط الله عليهم عدوهم ، ثم غزوهم وأخذوا بعض ما كان في أيديهم ، وما لم يحكموا بكتاب الله إلا جعل الله بأسهم بينهم ، ثم أمر عبد الرحمن بن عوف فتجهز لسرية بعثه عليها ، فأصبح قد اعتم بعمامة كرايس سوداء .

فأتاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم نقضها ، فعممه وأرسل من خلفه أربع أصابع أو نحوها ، ثم قال : هكذا يا ابن عوف فاعتم ، فإنه أعرف وأحسن ، ثم أمر بلالا ، فدفع إليه اللواء ، فحمد الله ، وصلى على النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، ثم قال : خذ ابن عوف ، فاغزوا جميعا في سبيل الله ، قاتلوا من كفر بالله ، لا تغدروا ، ولا تمثلوا ، فهذا عهد الله وسنة نبيكم فيكم^(١) .

(عن ابن عباس قال : الكبائر عشرون : الشرك بالله عز وجل ،

وعقوق الوالدين ،

وقتل المؤمن ،

والقنوط من رحمة الله ،

والأمن من مكر الله،
والياس من روح الله،
والسحر،
والزنا والربا،
والسرقة،
وأكل مال اليتيم،
وترك الصلاة،
ومنع الزكاة،
وشهادة الزور،
وقتل الولد خشية أن يأكل معك،
والحسد،
والكبر،
والبهتان،
والحرص،
والخيف في الوصية،
وتحقير المسلمين.^(١)

صلة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بأول ووسط آية البحث

وفيها مسائل :

الأولى : من خصائص القرآن سماع الناس كلهم له وتفضل الله وجعل مضامينه القدسية قوانين جلية وعلوما واضحة ، وكل آية منه سبيل إلى الهدى والرشاد ، وعدم حصر موضوع وحكم القوانين القرآنية إذ أنها شاملة لجهات :

الأولى : صفات الله وأسمائه الحسنی .

(١) الكشف والبيان للثعلبي ٣/٣٩٧.

الثانية : عالم الملائكة وخلقهم وعظيم شأنهم ومنزلتهم عند الله ، والقدرات الخارقة التي رزقهم الله ، ومن أصول الإيمان التصديق بالملائكة ، وبه جاءت الكتب السماوية ، قال تعالى ﴿ آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ آمَنَ بِاللَّهِ وَمَلَائِكَتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ ﴾ ^(١) ومن مصاديق الإيمان بالملائكة أمور :

الأول : الإقرار بخلقهم ووجودهم .

الثاني : التسليم بأن الملائكة عباد مكرمون لله عز وجل ، وهم مكلفون ، وليس من خلق يحسن الإمثال التام لما أمروا به مثل الملائكة ، قال تعالى ﴿ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ ^(٢) .

الثالث : مع قدرات الملائكة الخارقة ، فإنهم لا يقدرُونَ إلا على ما أذن الله عز وجل لهم به .

الرابع : طرو الموت على الملائكة ، ولكن أعمارهم طويلة تستمر مئات وآلاف السنين بمشيئة الله .

الخامس : قيام عدد من الملائكة بالرسالة بينهم ، والرسالة إلى الأنبياء .

السادس : كثرة أعداد الملائكة ، ولا يعلم عدد وطول صفوفهم إلا الله عز وجل .

السابع : إنفراد الملائكة بوظائف عظيمة ، منهم حمل العرش ، وفي

التنزيل ﴿ الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ

(١) سورة البقرة ٢٨٥ .

(٢) سورة التحريم ٦ .

بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ ﴿١١﴾ وَمِنْهُمْ خِزْيَةُ الْجَنَّةِ ، وَخِزْيَةُ النَّارِ .

الثامن : نزول الملائكة بالوحي .

التاسع : نزول الملائكة مدداً لنصرة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أو المهاجرين والأنصار في معركة بدر واحد والخنديق الدفاعية .

الثالثة : عالم الأكوان والكواكب ، وفي التنزيل ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَإِذَا قَضَىٰ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ (٢) .

الرابعة : خلق الإنسان وعلة هبوط آدم وحواء إلى الأرض ، وفضل الله في حفظ ذرية آدم وتكاثر الناس ، وقد لا يصدق العقل حقيقة أن هذه المليارات من البشر من ذرية رجل واحد هو آدم وزوجته حواء ، ولكن خلق الله لهما بيده ونفخه من روحه في آدم ، وإقامتهما في الجنة برهة من الزمن أسباب بركة تجلت في هذه الكثرة الهائلة ، وفيض ومدد من الله لحفظ الناس وهدايتهم ، وقال سبحانه ﴿لَهُ مُعَقَّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ (٣) .

ويكون هذا المدد على وجوه :

الأول : حفظ الناس والذاري .

الثاني : سلامة الإيمان وتوارثه .

الثالث : توالي الرزق الكريم للناس وصيرورته قريباً منهم .

الرابع : نزول الكتب السماوية وحفظ الله عز وجل لها من جهات :

(١) سورة غافر ٧ .

(٢) سورة البقرة ١١٧ .

(٣) سورة الرعد ١٢ .

الأولى : حفظ النص والكتاب والصحف . ويدل عليه قوله تعالى

﴿إِنَّ هَذَا فِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾^(١).

الثانية : إعانة المؤمنين في حفظ التنزيل .

الثالثة : عمل المسلمين بأحكام التنزيل حفظ عملي لها .

الرابعة : إعانة الملائكة للناس على حفظ التنزيل وأحكامه ، وفي نصرة

الأنبياء والدفاع عنهم ، وفي التنزيل ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي

مُمِدُّكُمْ بِالْفِ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِّفِينَ﴾^(٢).

وأطراف الميراث بين الناس هي :

الأول : المورث .

الثاني : التوارث .

الثالث : موضوع الإرث .

الرابع : الوارث .

ولكن بالنسبة لميراث الله للسموات والأرض فانه أمر مختلف فالله عز وجل هو المالك لما في السموات والأرض ، ولكن جاء ذكر ميراث السموات والأرض لبيان قانون وهو أن ما في أيدي الناس من الأموال والجواهر والأعيان تعود إلى الله عز وجل ، وبين آية الملك أعلاه وآية ميراث السموات والأرض عموم وخصوص مطلق ، فالملك أعم وهو يتغشى العوالم الطولية ، وتقدير الآية :

الأول : والله ملك السموات والأرض ما قبل الحياة الدنيا .

الثاني : والله ملك السموات والأرض أيام الحياة الدنيا .

الثالث : والله ملك السموات والأرض في عالم البرزخ .

(١) سورة الأعلى ١٩ .

(٢) سورة الأنفال ٩ .

الرابع : والله ملك السموات والأرض في مواطن الحساب في الآخرة .
الخامس : والله ملك السموات والأرض في عالم الجزاء .

وفي الصلة بين قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) وبين آية

البحث وجوه :

الأول : لأن الله ميراث السموات والأرض فهو يسمع كل قول ، ويذكر الناس بالقول الحسن والقول القبيح لأن كلا منهما من ميراث الأرض الذي يحضر يوم القيامة ، قال تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيَهُمْ وَنَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(٢).

الثاني : من أفراد الميراث التي يختص بها الله عز وجل القول والفعل ، يموت أهل أهل المال والتركه وينساها الناس ولكنها حاضرة عند الله من جهات :

الأولى : علم الله عز وجل بالأقوال والأفعال قبل وقوعها ، ويعلم ما قلته وفعلته وما ستقوله وتفعله قبل أن يخلق آدم عليه السلام .

الثانية : وراثه الله عز وجل للأقوال والأفعال والأعيان .

الثالثة : لا ينسى الله عز وجل أي قول أو فعل ، وهي تصاحب الإنسان عند دخوله القبر ويحضرها الله عز وجل يوم القيامة .

وجاءت آية السياق كيلا ينسى الناس بخل بعضهم بالحقوق الشرعية ، ولا ينسون قول طائفة ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ .

الثالث : يسمع الله عز وجل كل قول ، ويرى كل فعل لأنها من الموارث التي يخلفها ويتركها الناس خلفهم وتبقى لله عز وجل .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة يس ٦٥.

الرابع : الذين يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ يغادرون الدنيا والأموال والعيال قهراً بحلول أوان موتهم ، قال تعالى ﴿وَلِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ فَإِذَا جَاءَ أَجْلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾^(١) لتعود أموالهم إلى الله عز وجل .

وهو وحده الذي يبقى حياً قيوماً دائماً أبداً لا يموت وترجع أموال المورث والوارث إلى الله سبحانه فهو ليس فقيراً .

الخامس : الله الذي له ميراث السموات والأرض وحده لا يشاركه فيه أحد ، ولا يضره القول انه فقير ، قال تعالى ﴿وَمَا يُضِلُّونَ إِلَّا أَنْفُسَهُمْ وَمَا يَضُرُّونَكَ مِنْ شَيْءٍ﴾^(٢).

السادس : لقد احتج الله من سبع سماوات على قول (ان الله فقير) ويدل هذا الإحتجاج بأنه ليس بفقير ، وهذا الإحتجاج ونزوله بكلام الله الباقي بين الناس إلى يوم القيامة من غير تحريف أو تغيير أو تبديل حجة دائمة ، وزاجر عن التعدي في القول والغرور والعتو ، وفيه تهذيب للأخلاق والسلوك ، ومدد وعون للعمل بمضامين آيات القرآن في العبادات والمعاملات والسيرة ، ومنه قوله تعالى ﴿وَلَا تُصَغِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾^(٣).

السابع : لقد انقطع كلام (الذين قالوا ان الله فقير) ولكن كلام الله عز وجل باق إلى يوم القيامة ، وهذا البقاء من مصاديق ميراث للسموات والأرض .

(١) سورة الأعراف ٣٤.

(٢) سورة النساء ١١٣.

(٣) سورة لقمان ١٨.

الثامن : من ميراث السموات والأرض قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

التاسع : لقد قالوا ﴿وَحَسْبُ أَغْنِيَاءُ﴾ فنزل قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١)، لبيان قانون وهو إنقطاع ملكهم ، وصيرورتهم فقراء محتاجين .

وتتضمن الآية التحدي للذين كفروا بأنهم أغنياء اليوم فقراء غداً إنطباقاً وقهراً ، وقال تعالى ﴿وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾^(٢)، وقال تعالى ﴿أَيُّودُ أَحَدِكُمْ أَنْ تَكُونَ لَهُ جَنَّةٌ مِنْ نَخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ لَهُ فِيهَا مِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَأَصَابَهُ الْكِبَرُ وَلَهُ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَاءُ فَأَصَابَهَا إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَاحْتَرَقَتْ كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٣).

العاشر : لقد أخبرت آية البحث عن قانون كتابة الله عز وجل للأقوال.

وهذه الكتابة مقدمة ونوع طريق للشواب والعقاب ، فمن خصائص الإبتلاء في الحياة الدنيا كتابة أقوال وأفعال الناس ، وفيه بعث للرضا في نفوس المؤمنين بأن عملهم وتلاوتهم القرآن وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر لن يذهب سدى ، قال تعالى ﴿فَاسْتَجَابَ لَهُمْ رَبُّهُمْ أَنِّي لَا أُضِيعُ عَمَلَ عَامِلٍ مِنْكُمْ مِنْ ذَكَرٍ أَوْ نَسَى بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَأُخْرِجُوا مِنْ

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة الأحزاب ٦٢.

(٣) سورة البقرة ٢٦٦.

دِيَارِهِمْ وَأَوْذُوا فِي سَبِيلِي وَقَاتَلُوا وَقَتَلُوا لَأَكْفِرَنَّ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَلَأُدْخِلَنَّهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ثَوَابًا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَاللَّهُ عِنْدَهُ حُسْنُ الثَّوَابِ ﴿١﴾.

ومع سماع الله لقول الجاحدين (ان الله فقير) فان أقوال المؤمنين تتصاعد إلى السماء بالذكر والتلاوة والتلبية والتهليل والتكبير ، والإقرار بأن الله هو الغني وأنهم الفقراء إلى رحمته وطاعته ، وتلقاها الملائكة بالغبطة والتعجيل برفعها فهي من مصاديق إحتجاج الله عز وجل على الملائكة ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٢).

وإجماع المليين على أن حاجة الناس لله عز وجل ورحمته في الآخرة أضعاف حاجتهم له في الدنيا مع أن الإنسان لا يستطيع الحياة في الدنيا دقيقة واحدة دون الحاجة إلى رحمة الله بدليل أن عملية الشهيق والزفير لا تحدث إلا برحمة وإذن من عند الله ، ومتوسط عدد مرات الشهيق والزفير عند الإنسان البالغ نحو خمس عشر مرة في الدقيقة الواحدة ، ويكون أكثر عند الرضع والصبيان

وليس في الآخرة عمل أو إختيار وإمهال إنما هو عالم الحساب والجزاء ، ولكن مصاديق وأفراد رحمة الله يومئذ أضعاف رحمته في الدنيا ، و(عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم عن سلمان قال : خلق الله يوم خلق السموات والأرض مائة رحمة ، منها رحمة يتراحم بها الخلق وتسع وتسعون ليوم القيامة ، فإذا كان يوم القيامة أكملها بهذه الرحمة) (٣).

ومع هذه الأضعاف من الرحمة فقد أخبر الله عز وجل عن نوع وسنخية عذاب الذين يخلون بالحقوق الشرعية بأنهم سيطوقون يوم

(١) سورة آل عمران ١٩٥.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) الدر المنثور ٣٦/٤.

القيامة بأفاعي في أعناقهم ليعرفهم أهل المحشر بجنس معصيتهم ، فاذا رأوهم والأفاعي تحيط بأعناقهم قالوا هؤلاء الذين منعوا الزكوات والذين أخبر الله عز وجل عنهم ، وعن نوع عقوبتهم في الآية الثمانين بعد المائة من القرآن ، ولو سألهم الناس يومئذ عن سر وموضوع إحاطة الأفاعي بأعناقهم فيحتمل وجوهاً :

الأول : الإجابة والإخبار عن معصيتهم بامساك حصة وسهم الفقراء الذي جعله الله في أموالهم .

الثاني : السكوت وعدم الإجابة لقوله تعالى ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰ أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَشَهِدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾^(١) .

الثالث : إظهارهم عدم العلم بالأمر .

الرابع : عدم وقوع مثل هذا السؤال لعمومات قوله تعالى ﴿لِكُلِّ أَمْرٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٢) .

والمختار هو الأول أما الآية المتقدمة فالقدر المتيقن منها هو عالم الحساب والشهادة ، وأما الآية أعلاه من سورة (عبس) فلا تمنع من السؤال في بعض مواطن الآخرة ، فمثلاً ورد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أن الناس يحشرون عراة .

(عن ابن عباس قال : خطب رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فقال : يا أيها الناس إنكم محشورون إلى الله حفاة عراة غرلاً ، ثم قرأ { كما بدأنا أول خلق نعيده وعداً علينا إنا كنا فاعلين }^(٣) ثم قال : ألا وإن أول الخلائق يكسى يوم القيامة إبراهيم ، ألا وإنه يجاء برجال من أمتي فيؤخذ

(١) سورة يس ٦٥ .

(٢) سورة عبس ٣٧ .

(٣) سورة الأنبياء ١٠٤ .

بهم ذات الشمال ، فأقول : يا رب أصحابي أصحابي ، فيقال : إنك لا تدري ما أحدثوا بعدك ، فأقول كما قال العبد الصالح ﴿وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ﴾^(١) ، فيقال : أما هؤلاء لم يزالوا مرتدين على أعقابهم مذ فارقتهم^(٢) .

ومن لم يقرأ القرآن أوان زمانه قبل زمان نزوله ، ولم يطلع على ذات العقوبة في الكتب السماوية السابقة يتلو آية السياق ويسبح لله عز وجل ويصدق بنبوته محمد صلى الله عليه وآله وسلم طوعاً وقهراً قال تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(٣) .

الحادي عشر : لقد قال الذين أمروا بدفع الزكاة (نحن أغنياء) مع امتناعهم عن دفعها فقامت عليهم الحجة بلحاظ آية السياق من جهات :
الأولى : البخل والإمتناع عن دفع الزكوات.

الثانية : إقرارهم بأنهم أغنياء ، ولم ييخلوا مرتبة الغنى وكثرة الأموال إلا بفضل الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿وَمَا بِكُمْ مِنْ نِعْمَةٍ فَبِئْسَ اللَّهُ﴾^(٤) .

الثالثة : ذكرت آية السياق أن الغنى الذي عند الناس إنما هو من فضل الله عز وجل عليهم وقابلها الذين كفروا بارتكاب المعصية فأخبرت آية البحث بنزول عذاب الحريق بهم يوم القيامة ودخولهم نار جهنم.

ويحتمل قوله تعالى ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ إرادة عذاب النار أم العذاب في الدنيا والآخرة ، وهذا ما نبينه في الجزء السابع ، وهو التسعون بعد المائة

(١) سورة المائدة ١١٧.

(٢) الدر المنثور ٤/٢٦.

(٣) سورة ق ٢٢.

(٤) سورة النحل ٥٣.

، وهو خاص بتفسير آية البحث ، إذ أن هذا الجزء المبارك يختص بالصلة بينها وبين الآية السابقة لها كما تقدم في المقدمة^(١) .

الثاني عشر : لقد إختار الله عز وجل من بين الناس الأنبياء وجعلهم وسائط تبليغ التنزيل وأحكام الشرائع إلى الناس ، وعدد الأنبياء مائة وأربعة وعشرون ألف نبي ، وكان الناس في تلقيهم دعوة الأنبياء على أقسام :

الأول : الذين صدقوا بالنبوات والذين آمنوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وهم على مراتب :

الأولى : الذين بادروا إلى التصديق بالنبوة مثل خديجة والإمام علي وعدد من الصحابة ممن اسلموا قبل دخول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دار الأرقم بن أبي الأرقم عند جبل الصفا ، وعددهم سبعة واربعون ، وقيل كان عددهم أربعين رجلاً وعشرة نسوة .

الثانية : الذين دخلوا الإسلام بعد دخول النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم دار الأرقم نحو السنة الخامسة للهجرة .

الثالثة : الذين امتنعوا عن دخول الإسلام ثم أعلنوا اسلامهم بعد تردد.

الرابعة : الذين آذوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه ثم دخلوا الإسلام.

الخامسة : الذين حاربوا النبي صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه وقتلواهم في المعارك ثم دخلوا الإسلام قبل فتح مكة .

السادسة : الذين دخلوا الإسلام يوم فتح مكة ، وكثرتهم من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُبِينًا﴾^(١).

السابعة : الذين دخلوا الإسلام بعد فتح مكة ، وصدر سورة آل عمران نزل عام الوفود ، وهو السنة التاسعة للهجرة النبوية .

الثاني : الذين جحدوا بالنبوات ، وأصرروا على الكفر والصدود وماتوا على الكفر.

الثالث : الذين لم يكتفوا بالجحود والكفر بالنبوة بل حاربوا الأنبياء في ميدان المعركة ، قال تعالى ﴿وَكَايْنٍ مِنْ نَبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا هُنَا لَمَّا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾^(٢).

والنسبة بين محاربة الكافرين للأنبياء وبين قتل الأنبياء الذين تذكره آية البحث عموم وخصوص من وجه فمادة الإلتقاء من جهات :

الأولى : الكفر والجحود.

الثانية : محاربة الأنبياء .

الثالثة : السعي لقتل الأنبياء .

الرابعة : قتل عدد من الأنبياء.

أما مادة الإفتراق فقد يقتل النبي في ميدان المعركة ، وقد لا يقتل ، وقد يسعى الكفار في اغتيال وقتل النبي من غير قتال أو لقاء في ميدان المعركة ، ومن الأنبياء الذين قتلوا غيلة .

(١) سورة الفتح ١.

(٢) سورة آل عمران ١٤٦.

الصلة بين ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) وبين خاتمة آية البحث

من خصائص القرآن أن خاتمة الآية القرآنية قانون من الإرادة التكوينية وهو مدرسة للإصلاح وغالباً ما يتضمن أمرين :

الأول : الوعد منطوقاً والوعيد مفهوماً فيأتي الوعد في القرآن على الإيمان وعلى العمل الصالح وعليهما معاً ، كما يأتي على التوبة والإنابة ، قال تعالى ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهَ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢).

إن اختتام عدد من آيات القرآن باسم الغفور الرحيم لطف من الله مصاحب لأهل الأرض إلى يوم القيامة ، وتقريب لهم لسبل الهداية والرشاد .

ويمكن استقراء الوعد والوعيد في خاتمة الآية القرآنية من جهات :

الأولى : مضامين الآية القرآنية والصلة بينها وبين خاتمتها .

الثانية : صلة أول الآية بخاتمتها وصلة وسطها بخاتمتها .

الثالثة : تعدد مضامين وسط الآية ، وقد جاء مفصلاً في هذا السفر

المبارك في باب استحدثائه في علم التفسير .

ويأتي ثانية للوعيد كما في قوله تعالى ﴿يَسْتَخْفُونَ مِنَ النَّاسِ وَلَا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُمْ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّنُ مَا لَا يَرْضَى مِنَ الْقَوْلِ وَكَانَ اللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطًا﴾^(٣).

وقد يأتي للوعد والوعيد في آية واحدة كما في قوله تعالى ﴿مَنْ كَفَرَ

فَعَلَيْهِ كُفْرُهُ وَمَنْ عَمِلَ صَالِحًا فَلَا نَفْسٍ يَمُدُّونَ﴾^(١).

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة النساء ١١١.

(٣) سورة النساء ١٠٨.

الثاني : الوعيد منطوقاً والوعد مفهوماً .

وأيهما أكثر في القرآن الأمر الأول أو الثاني أعلاه ، الجواب هو الأول

أي الوعد ، ويلزم تأسيس قانون على وجوه :

الأول : قانون إحصاء خواتيم الوعد في القرآن .

الثاني : قانون إحصاء الخواتيم الجامعة للوعد والوعيد .

الرابع : قانون إحصاء خواتيم الآيات التي لا تتضمن الوعد أو الوعيد

، وقد يأتي ذات اللفظ في الخاتمة ولكنه يتضمن مرة الوعد وأخرى الوعيد

أو الجامع لهما بلحاظ موضوع الآية والقرائن ، كما في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا

تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٢)، وجاء أكثره بالوعد والبشارة .

وقد نزلت السور المكية بالإنذار والتخويف والوعيد وعددها اثنتان

وثمانون سورة ، نعم تتصف السور المكية بقلة عدد آياتها .

ومن الإعجاز في اللفظ القرآني مجئ الأمر ﴿بَشِّرْ﴾ في الوعد والوعيد ،

والثواب والعقاب نعم أكثر ما ورد في الثواب والجزاء الحسن قال تعالى

﴿وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، وقال ﴿وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾^(٤)، وقال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ أَن لَّهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ كُلَّمَا رُزِقُوا مِنْهَا مِنْ

ثَمَرَةٍ رَزَقُوا هَذَا الَّذِي رَزَقْنَا مِنْ قَبْلُ وَأَتُوا بِهِ مُتَشَابِهًا وَلَهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُطَهَّرَةٌ وَهُمْ فِيهَا

خَالِدُونَ﴾^(٥)، وقال ﴿وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾^(٦).

(١) سورة النساء ١١١.

(٢) سورة الروم ٤٤.

(٣) سورة البقرة ٢٢٣.

(٤) سورة البقرة ٢٥٥.

(٥) سورة البقرة ٢٥.

(٦) سورة التوبة ٣.

ومن الآيات التي ورد فيها لفظ بشر للوعيد والعقاب ، قال تعالى ﴿بَشِّرِ الْمُتَافِقِينَ﴾ ^(١) بَأَنْ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ، وأيهما أكثر أثراً وتأثيراً في باب الموعظة والهدى آيات الوعد أو الوعيد ، الجواب كل آية منها خصوصية وتتضمن أسراراً في جذب الناس إلى منازل الإيمان وزجرهم ومنعهم عن مسالك الضلالة بالإضافة إلى تعاضد آيات الوعد والوعيد في تحقيق الغايات الحميدة للتنزيل ، وآيات الوعد هي الأكثر تأثيراً لملائمتها للفظرة ، ولرحمة الله بالناس ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ ^(٢) أن الله عز وجل أنزل خواتيم الآيات لتكون كنزاً وخزينة للعلوم .

ومن معاني ميراث السموات والإرث بلحاظ خاتمة آية البحث أمور :
الأول : لفظ (نقول) فليس من أحد يقدر على القول يوم القيامة من غير إذن من الله عز وجل ، قال تعالى ﴿لَا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾ ^(٣) فمن ورائة الله عز وجل للسموات والأرض للقول فلا يتكلم أحد غيره يوم القيامة إلا بأذنه وبما يرضيه تعالى ، وكلام الله سبحانه حكم وأمر تسمعه الملائكة والخلائق ، وكما قال الله تعالى ﴿قَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾ ^(٤) ، فكذا بالنسبة بالنسبة للأسماع .

(١) سورة النساء ١٣٨.

(٢) سورة الذاريات ٥٦.

(٣) سورة النبأ ٣٨.

(٤) سورة ق ٢٢.

فتمثل وتستجيب وتسمع الخلائق الله عز وجل ، وهي ترجو رحمته ، ويشكر الفقراء الله عز وجل لأن الجوع والفاقة التي اتخذوها جلباباً في الحياة الدنيا طوق نجاة من العذاب .

وتطويق أفعى لأعناقهم في الآخرة بسبب إدخار الأموال وعدم إخراج الحقوق الشرعية منها ، يومئذ يقول الأغنياء للفقراء (يا ليتنا كنا مثلكم فقراء) فالجوع في الدنيا أمر يطاق ومدة الحياة الدنيا قصيرة ، ولكن عذاب الآخرة من اللامتناهي في شدته ومدته لتغلب عليهم الحسرة على أمور :
الأول : ضياع أيامهم في الحياة الدنيا .

الثاني : المعصية لله والرسول .

الثالث : الجحود والإمتناع عن شكرهم لله عز وجل على نعمة الغنى .

الرابع : عدم أداء الفرائض العبادية .

الخامس : قول إن الله فقير .

السادس : إدعاء الغنى بالذات ، وفي التنزيل ﴿فَإِذَا مَسَّ الْإِنْسَانَ ضُرٌّ دَعَانَا ثُمَّ إِذَا خَوَّلْنَاهُ نِعْمَةً مِّنَّا قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُ عَلَىٰ عِلْمٍ﴾^(١) وفي قصة قارون ورد قوله تعالى ﴿قَالَ إِنَّمَا أُوتِيْتُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾^(٢) أي أن الله سبحانه علم بفضل قارون وما يتصف به من الذكاة والفطنة فعلمه وهده لما فيه الثراء وخزائن الأموال ، وقارون ابن عم موسى ، وهو قارون بن يصهر بن قاهث ، والرسول موسى بن عمران بن قاهث ، وكان قارون زوج أخت موسى عليه السلام .

(قال سعيد بن المسيب : كان موسى (عليه السلام) يعلم الكيمياء ، فعلم يوشع بن نون ثلث ذلك العلم ،

(١) سورة الزمر ٤٩ .

(٢) سورة القصص ٧٨ .

وعلم كالب بن نوفيا ثلثه،

وعلم قارون ثلثه،

فخدعهما قارون حتى أضاف علمهما إلى علمه،

وفي خبر آخر أن الله سبحانه وتعالى علم موسى علم الكيمياء،

فعلم موسى أخته،

فعلمت أخته قارون،^(١).

وفي حال صحة خبر التعليم فانه ليس علم الكيمياء المتعارف فلا بد أنه

علم لدني وسيناله الناس بالكسب والتحصيل ، وتصنيع الفلزات خاصة مع الإرتقاء المستمر في الثورة الصناعية والتقنية .

لذا ذكرت آية البحث عذاب الحريق أي أنهم يحترقون ومحسون بهذا

الحريق .

وتدل خاتمة آية البحث على أن قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ

وَالْأَرْضِ﴾^(٢)، هو أن الله عز وجل ملك في ميراثه مثلما هو ملك في الدنيا ،

وأنه يثيب ويعاقب في ميراثه ، ويكون الناس والجنة والنار ، وخزنة الجنة ،

وخزنة النار من هذا الميراث في الآخرة.

ويتلقى الإنسان الوارث في الدنيا الإرث على هيئته وحاله عند وفاة

المورث ، أما بالنسبة لإرث الله عز وجل للسموات والأرض وما فيهن فانه

يرثها بالحال والهيئة التي كان عليها الناس في كل زمان ، فحينما تقوم

الساعة تكون جثث أجيال كثيرة من الناس قد صارت تراباً ، ولكنهم

(١) الكشف والبيان للثعلبي ١٠ / ٧٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

يبعثون من قبورهم أحياء بقواهم العقلية والبدنية، قال تعالى ﴿وَقَفُّوهُمْ إِنْهُمْ مَسْئُولُونَ﴾^(١).

وفي التنزيل ﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢)، ومن معاني تسمية اليوم الآخر (يوم القيامة) قيام الناس من قبورهم ووقوفهم في مواطن الآخرة للحساب والجزاء ، ويحتمل المعاد وجوهاً :

الأول : المعاد لأرواح الناس دون أبدانهم ، وقال به شطر من الفلاسفة ومدرسة المشائين التي أسسها أرسطو .

الثاني : المعاد روحاني وجسماني .

الثالث : المعاد لأبدان الناس دون أرواحهم ، ونسب إلى جماعة من المتكلمين .

والصحيح هو الثاني ، وعليه الكتاب والسنة وإجماع علماء الإسلام ، وتدل عليه آية السياق والبحث إذ يطوقون بما يخلوا به في الآخرة بأبدانهم ، يحسون بالألم ، وكذا بالنسبة لألم شدة الحريق يوم القيامة للذين قالوا (ان الله فقير ونحن أغنياء) وسين الوعيد في (سيطوقون) وهو المتبادر من الحديث النبوي .

و(عن عبد الله عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : ما من رجل لا يؤدي زكاة ماله إلا جعل له شجاع في عنقه يوم القيامة ، ثم قرأ علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم مصداق من كتاب الله تعالى {سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ})^(٣)^(١).

(١) سورة الصافات ٢٤ .

(٢) سورة الروم ٥٦ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٠ .

فهل تقوم هذه الأفاعي بنهش أبدانهم وبالأكل من لحمهم ، وبث السموم في أبدانهم ، المختار لا ، وهل تضيق عليهم التنفس المختار نعم ، وورد عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام : مانع الزكاة يطوق بحية قرعاء ، تأكل من دماغه ، وذلك قول الله تعالى : سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة^(٢).

(عن ابن عباس قوله: "ولا تحسبن الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله" إلى "سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة"، يعني بذلك أهل الكتاب، أنهم بخلوا بالكتاب أن يبينوه للناس)^(٣).

ولكن القدر المتيقن من الآية هو حجب الزكاة والحقوق الشرعية ، وهو الوارد عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٤).

وفي قوله ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(٥) قال (البخل" في هذا الموضع ، منع الزكاة ، لتظاهر الأخبار عن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أنه تأول قوله: ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ قال: البخل الذي منع حق الله منه ، أنه يصير ثعباناً في عنقه)^(٦).

وفي قوله تعالى ﴿وَلَهُ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٧) ، بشارة الرحمة من عند الله للناس ودعوة لهم لرجاء فضله في الآخرة ، وهو زاجر لأرباب

(١) الكشف والبيان ٢٩٩/٣ .

(٢) البحار ١٨٣/٧ .

(٣) تفسير الطبري ٤٣٢/٧ .

(٤) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٥) سورة آل عمران ١٨٠ .

(٦) تفسير الطبري ٤٣٢/٧ .

(٧) سورة آل عمران ١٨٠ .

الأموال عن القول إن الله فقير لأن الذي يرجع له ميراث السموات والأرض كله ليس بفقير ، وإخبار لهم بأنهم فقراء ، وما هم بأغنياء وبينما هم يتصرفون في أموالهم تصرف المالك فأنهم في الآخرة محجوبون عن أموالهم ، تحضر معهم للحساب ، لا صلة بينهم إلا بالحساب والجزاء ، وهو من بديع صنع الله وتبدل الأحوال في عالم الآخرة ، ليكون ميراثاً لله عز وجل كل من :

الأول : المورث في الدنيا الذي يترك أموالاً .

الثاني : الوارث الذي يرث الأموال في الدنيا .

الثالث : المال الموروث الذي بأيدي الناس .

الرابع : المال الزكوي الذي أخرجه أصحابه من أموالهم ودفعوه إلى مستحقه ليكون واقية لهم من العذاب .

قارات الأرض

القارات وهي مجموع الأرض البرية اليابسة عدا الجزر جمع قارة ، وهو إصطلاح معروف للناس وبالإنكليزية (continent) وهي أراضي كبيرة يحيط بها عدد من المسطحات المائية .

عدد القرات سبعة ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) ،

وكان الآية تخاطب الناس وتقول لهم : يا أيها الناس سوف تكونون أنتم وأموالكم ميراثاً لله عز وجل ، وهذه الأموال الصامته في الدنيا سيستنطقها الله عز وجل يوم القيامة ، وتسئل لتجيب وأنتم تسمعون لا تستطيعون منعها من الشهادة ولا تحريف كلامها أو حجب وصوله إلى الله والملائكة وأهل المحشر ، قال تعالى ﴿ذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّجْمُوعٌ لُّهُ النَّاسُ وَذَٰلِكَ يَوْمٌ مَّشْهُودٌ﴾^(٢) ، وعن سهل

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٢) سورة هود ١٣٠ .

بن سعد أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : يحشر الناس على أرض بيضاء عفراء^(١)، كقرصة^(٢)، النقي^(٣)، ليس فيها علم لأحد. أي على أرض مستوية ليس فيها جبال أو هضاب أو أودية مع سعتها ، وليس فيها ملك لأحد غير الله ، فلا دار أو سكن أو زراعة لأحد. وفيه دلالة على أن الأرض التي يحشر عليها الناس يوم القيامة ليست كروية كأرض الدنيا ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿يَوْمُ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٤).

وعلى فرض حضور ذات الأرض وتكون منبسطة ، فهل تكون كل الأرض محشراً للناس لعمارتهن لها في الدنيا ولشهادة كل بقعة على ساكنيها وما فعلوا فيها ، أم يحشر الناس بقارة واحدة أو بمقدار من الأرض بمقدار قارة واحدة ، الجواب لا دليل على حضور كل القارات ، قال تعالى ﴿يَوْمُ تَبْدَلُ الْأَرْضُ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾^(٥).

إنما تحضر بقع الأرض للشهادة ، قال تعالى ﴿وَفِي الْأَرْضِ قُطُوعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنَفْضٍ بَعْضُهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ إِنِّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾^(٦) ولم يرد لفظ ﴿مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ في القرآن إلا في الآية أعلاه .

(١) عفراء أي بيضاء بياضاً ليس بناصع .

(٢) القرصة : القطعة والرغيف من الخبز.

(٣) أي النظيف الأبيض نخل دقيقه ، والخالي من الغش.

(٤) سورة ابراهيم ٤٨.

(٥) سورة ابراهيم ٤٨.

(٦) سورة الرعد ٤.

وعدد المحيطات خمس محيطات أما الجزر فهي الأراضي اليابسة التي تحيط بها الحياة من جميع الجهات ، وتتباين مساحة الجزر ، فمن الجزر ما مساحتها عدة أمتار مربعة ، ومنها ما صارت دولة مثل جزيرة قبرص ، وليس من حصر محدد لمجموع الجزر في العالم لكثرتها والتباين في مساحتها، وللتغيير والتبدل في أعدادها منها جزر تغمرها الحياة ، ومنها ما ينكشف وينحسر عنها الماء ويذوب عنها الجليد ، وللإختلاف في تعريف الجزيرة وهناك تقسيمات عديدة للجزر بحسب اللحاظ وقيل عددها نحو (١٨٠٠٠٠) جزيرة.

وأكبر جزيرة في العالم غرينلاند وتعد جغرافياً من أوربا وتتبع فعلياً لأمريكا الشمالية ويغطي الجليد ٨٠٪ من مجموع مساحتها البالغ ٢١٦٦٠٨٦ كيلو متر مربع ، ويقطنها نحو سبعين ألف ، وأصغر جزيرة هي روم أيلاند وتبلغ مساحتها ٢٧٨٧ متر مربع وقيل أنها بمقدار ملعب كرة التنس ، وتقع على الساحل الشمالي لأمريكا ، وأسماء القارات هي :

الأولى : قارة آسيا : وهي أكبر قارات العالم ، إذ أن مساحتها تبلغ ٣٠٪ من مجمل مساحة سطح الكرة الأرضية ، أما سكانها فنسبتهم إلى مجموع سكان الأرض ستة أعشار سكان الأرض ، وفيها أكثر عدد من الدول بالنسبة للقارات الأخرى.

الثانية : قارة أفريقيا : وهي ثاني أكبر قارة في العالم من جهة المساحة الجغرافية ، وتحتل ٢٠,٤٪ من مجموع مساحة اليابسة في الكرة الأرضية ويبلغ عدد سكان هذه القارة ١٤,٧٥ من مجموع سكان العالم.

الثالثة : قارة أمريكا الشمالية وهي الثالثة من بين قارات الأرض من جهة سعة المساحة الجغرافية وتؤلف نسبة ١٦,٥٪ من مجموع مساحات القارات وتقع في نصف الكرة الشمالي ، ويحدها من الشمال المحيط المتجمد الشمالي ، ومن الجهة الشرقية المحيط الأطلسي ، ومن الجهة الجنوبية قارة

أمريكا الشرقية والمحيط الأطلسي ، ومن الجهة الجنوبية قارة أمريكا الجنوبية ، ومن الجهة الغربية المحيط الهادئ.

الرابعة : قارة أمريكا الجنوبية ، وتبلغ مساحة أراضيها ٣,٥٪ من مساحة الأرض ، وتقع أكثر كتلتها في نصف الكرة الجنوبي ، ويحدها من الشرق المحيط الأطلسي ، ومن الغرب المحيط الهادي ، ومن الشمالي أمريكا الشمالية والبحر الكاريبي ، ومن الجنوب القارة القطبية الجنوبية.

الخامسة : القارة الأوربية : تبلغ مساحة هذه القارة ٦,٨٪ من مساحة الأرض اليابسة وهي ثاني أصغر مساحة بين القارات ، وبعدها قارة استراليا ، وتقع في النصف الشمالي من الكرة الأرضية ، ويحدها من الجهة الشرقية جبال القوقاز وجبال أورال وبحر قزوين ، ومن الجهة الشمالية المحيط المتجمد الشمالي ، ومن الجهة الغربية المحيط الأطلسي ، ومن الجهة الجنوبية البحر الأسود والبحر الأبيض المتوسط .

السادسة : قارة استراليا وتقع على المحيط الهادي إذ يحيطها من الجنوب والغرب وجنوب شرق آسيا ، وهي كالجزيرة الكبيرة ، ويحيطها من الشمال بحر تيمور وبحر أرفولا ومضيق تورز ، ومن الشرق بحر كورال وبحر تسمان.

السابعة : القارة القطبية الجنوبية : وتسمى (انตาร์كتيكا) وتقع في أقصى جنوب الكرة الأرضية ، وتقدر مساحتها بأربعة عشر مليون كم ، فهي الخامسة بين القارات من حيث المساحة ، ويغطي الثلج نحو ٩٨٪ من أراضيها وبعمق ١,٩ كم .

وهي أكثر القارات برودة ورياحاً ، ليكون الجليد وكنوز ذات الأرض وقاع البحار احتياطاً للناس لأزمان لحقة بعد الثورة الصناعية والتقنية وزيادة استهلاك الحياة أضعافاً مضاعفة ز

فيجب أن تعمل الدول والمؤسسات الدولية على منع الفتنة والقتال بخصوص القارة القطبية الجنوبية والشمالية ومساحة القارة القطبية الجنوبية ١,٣ لمساحة أوروبا وهناك اتفاقية الأمم المتحدة لقانون البحار.

الثامنة : القارة القطبية الشمالية : تقع هذه القارة في أقصى الجانب الشمالي من الكرة الأرضية ، وهي شديدة البرودة إلا أن برودتها أقل من برودة القطب الجنوبي ويغطي الجليد نسبة ٩٨٪ من مساحتها ، وهذه القارة لم تذكر مع القارات السبعة ولكن يأتي يوم تحسب في علم الجغرافية القارة الثامنة.

وسوف تشهد الأرض على أرباب الأموال بكيفية جمعها ومدة إدخارها وانفاقها أو عدمه .

فما دام فيها حق للفقراء والمساكين فانها تحضر للشهادة على من حبسها حتى وإن كانت قد ذهبت إلى غير صاحبها وانتقلت إلى ملكية الغير بالبيع والشراء أو الإجارة وباقي المعاوضات أو بالميراث والهبه مما يدل على إمكان شهادة ذات المال والأعيان الزكوية والقطعة النقدية من الدينار الذهبي والدرهم الفضي وباقي العملات على أكثر من واحد ممن حجب الحق الشرعي كما تشهد بالثناء على من قام باخراجها كزكاة وخمس وحق شرعي ودفعها لمستحقها .

سئل الإمام جعفر الصادق عليه السلام (ما علة الملائكة الموكلين بعباده يكتبون عليهم ولهم والله عالم السر وما هو أخفى ؟ قال: استعبدهم بذلك وجعلهم شهودا على خلقه .

ليكون العباد لملازمتهم إياهم أشد على طاعة الله مواظبة، أو عن معصيته أشد انقباضا، وكم من عبيدهم بمعصية فذكر مكانها فارعوى وكف، فيقول: ربي يراني وحفظتي علي بذلك تشهد. وإن الله برأفته ولطفه أيضا وكلهم بعباده يذبون عنهم مردة الشياطين وهوام الارض،

وأفات كثيرة من حيث لا يرون بإذن الله، إلى أن يجيء أمر الله عز وجل^(١). وجل^(٢).

والعملات في هذا الزمان ورقية ومختلفة في الاسم والصورة والمقدار ، ويحتمل وجوهاً :

الأول : صيرورة ذات العملات الورقية ميراثاً لله وتكون يوم القيامة شهوداً على أربابها.

الثاني : حضور ما يعادلها من الذهب والفضة على فرض توحيد العملات يوم القيامة ، ولكبرى كلية وهي تعلق الزكاة بالأنعام والغلات والنقدين .

الثالث : إحضار العملات بهيئة أخروية خاصة وفق علوم الغيب ، ويجعل الله عز وجل الناس يدركون أنها هي العملات والأعيان التي كانت عندهم .

الرابع : عدم حضور العملات والأعيان التي فيها الزكاة يوم القيامة . والمختار هو الأول أعلاه لإقامة الحجة على الذين يحبسون الحقوق الشرعية ، قال تعالى ﴿وَوَضِعَ الْكِتَابَ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لَا يَعَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّا أَحْصَاهَا﴾^(٢) ، ويرى أهل زمانهم تلك الأحوال نفسها التي كانوا يتعاملون فيها ، ويرى فقراؤهم كيف حجبت عنهم ومنع من وصولها إليهم ، مما زاد آلامهم وفاقتهم فيكون من يوم مواساة المظلوم والمهتضم ، كما يأتي الفقراء ليشهدوا للذين دفعوا لهم حقهم من الزكاة والأعيان والحصاد ، قال تعالى ﴿وَأَتُوا حَقَّهُ يَوْمَ

(١) البحار ١٧٩/٥٦ .

(٢) سورة الكهف ٤٩ .

حَصَادِهِ وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿١﴾ ، قال تعالى ﴿آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْقُضُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسَخَّلِينَ فِيهِ﴾ (٢) ومن خصائص يوم القيامة أنه يوم فصل القضاء والحكم بين الناس .

ترى من الذي يقاضي مانع الزكاة الذي تذكره آية البحث والسياق ، فيه وجوه :

الأول : الفقراء الذين تصلهم زكاته لو كان يدفعها ، ولا يعلم هذا الإستحقاق والوصول المفترض إلا الله عز وجل ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَا إِلَّا هُوَ﴾ (٣) .

الثاني : الفقراء من ذوي قربى ذات الغني ، قال تعالى ﴿وَأَتِذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ﴾ (٤) .

الثالث : عامة الفقراء من أهل قرية ومحلة وبلدة الغني .

الرابع : الفقراء والمساكين الذين كانوا يتطلعون لذات شخص النبي ليمد لهم يد العون ، ويدفع لهم زكاة وخمس أمواله .

الخامس : عموم الفقراء والمساكين الحاضرين في المحشر .

السادس : من يختاره وينتخبه الفقراء لمقاضاة الأغنياء .

ولا تعارض بين هذه الوجوه ، وهي ممكنة بالإضافة إلى قانون ، وهو أن الله عز وجل هو الذي يقاضي بنفسه الأغنياء الذين يخلوا بالحقوق الشرعية التي رزقهم ، وهو من أسرار قوله تعالى ﴿مَنْ ذَا الَّذِي يُقْرِضُ اللَّهَ

(١) سورة الأنعام ١٤١ .

(٢) سورة الحديد ٧ .

(٣) سورة الحديد ٧ .

(٤) سورة الإسراء ٢٦ .

قَرْضًا^(١) والحجة فيه أنهم امتنعوا عن إقراض الله من ذات فضله الذين أنعم عليهم به ، وأمرهم أن ينفقوا منه.

والآية أعلاه مكية ، بينما فرضت الزكاة في السنة الثانية للهجرة. وورد عن أبي سعيد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم في تفسير قوله تعالى ﴿وَأَتُوا حَقَّ يَوْمٍ حَصَادِهِ﴾^(٢) ، قال : ما سقط من السنبِل.

(عن سلمان ، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " النار لا يطفأ حرها ، ولا يصطفى بلهيبها ، قال: ثم قرأ: " وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ ")^(٣).

ويستحضر الناس عامة والفقراء خاصة قوله تعالى في ذم الكافرين ﴿وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٤) ، وتكشف لهم حقيقة وهي ما أقرب الآخرة من الدنيا ، وحضور معالم الدنيا كلها في الآخرة ، ولكن ليس بالتعاقب إنما تحضر كلها دفعة واحدة ، وهو من مصاديق ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٥).

ومن خصائص الحياة الدنيا التوارث بين الناس ، ولكن هذا التوارث قد ينقطع ويرفع ، قال تعالى ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِنْ قَرْيَةٍ بَطَرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ يَسْكُنْ مِنْ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾^(٦).

وما يرثه الرجل إلى ابنه ويرث الابن إلى الحفيد ثم إلى ابن الحفيد ، وهكذا ستراه ونمائه يحضر جميعاً بين يدي الله عز وجل ، ويدرك الناس

(١) سورة الحديد ١١.

(٢) سورة الأنعام ١٤١.

(٣) النهاية في الفتن ١/١٩٤.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

(٥) سورة آل عمران ١٨٢.

(٦) سورة القصص ٥٨.

صدق آيات القرآن ونزولها من عند الله عز وجل ويحضر الملائكة الذين كانوا يكتبون أفعال بني آدم بقوله تعالى ﴿مَا يَلْفُظُونَ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾^(١) وهل يشهدون على مانع الزكاة والحقوق الشرعية ، الجواب نعم ، وتكون شهادتهم بالبينّة والصوت والوثائق الكتابية ، ولما أخبرت آية البحث في خاتمتها عن قانون (ونقول ذوقوا عذاب الحريق) .

فهناك مسائل :

الأولى : هل يحق للفقراء خاصة أن يقولوا للأغنياء الذين حبسوا الحقوق الشرعية ، وقالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) .
الثانية : هل يقول عامة الناس لهؤلاء الأغنياء على نحو التوبيخ والتعيير ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ .

الثالثة : لو استأذن المؤمنون الذين تأذوا من قول أرباب الأموال هؤلاء الجاحدين ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ فهل يؤذن لهم .

المختار أن الناس عامة والفقراء خاصة لا يقولون لهؤلاء الأغنياء الأشحة على الخير ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ ، ولكن لهم أن يتلوا آية البحث وآيات القرآن ، والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

فهذا القول خاص بالله عز وجل ، وينشغل الناس يوم القيامة بأنفسهم ومراجعة أعمالهم ، وما ينتظرهم من الثواب أو العقاب ، قال تعالى ﴿لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ﴾^(٣) ، وليس من متكلم يومئذ غير الله عز وجل.

(١) سورة ق ١٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨٢ .

(٣) سورة عبس ٣٧ .

وإن أراد أحد الخلائق الكلام فلا بد من إذن خاص من عند الله وأن يكون الكلام خيراً وفيه صلاح ، قال تعالى ﴿لَا تَكَلُمُوا إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَابًا﴾^(١) .

وقول ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ تبكيت وتوبيخ ، ولقد أكثر الذين كفروا من إيذاء المؤمنين في الدنيا ، وجعل الله عز وجل الدار الآخرة محلاً لحسابه وجزائه ، ومن مصاديق أفراد الرحمة التي ينشرها الله في الآخرة عدم تلقي الإنسان الأذى من البشر ، نعم يشكر المؤمنون الله عز وجل على نجاتهم من عذاب الحريق .

وعلى فرض انحصار هذا القول ﴿ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) بالله سبحانه من مصاديق آية السياق وقوله تعالى ﴿مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) فمن هذا الميراث الذي تعجز العقول عن درك كنهه وعظمته أنه ليس من مخاطب للعباد بالتوبيخ واللوم إلا الله عز وجل ، وما ورد فيه النص ، كما في خطاب خزنة النار لصحابها واحتجاجهم عليهم .

ولم يأت هذا الإحتجاج إلا بعد أن أعلن أهل النار ما فيه الأذى الشديد وسألوا التخفيف ، وفي التنزيل ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ نَارُ جَهَنَّمَ لَا يُقْضَىٰ عَلَيْهِمْ فَيَمُوتُوا وَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ مِنْ عَذَابِهَا كَذَلِكَ نَجْزِي كُلَّ كَافِرٍ﴾^(٤) .

والنسبة بين الذين كفروا الذين تذكرهم الآية أعلاه وبين الذين ذكرتهم آية البحث العموم والخصوص المطلق ، فالذين كفروا أعم وأكثر ،

(١) سورة النبأ ٣٨ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨٢ .

(٤) سورة فاطر ٣٦ .

ومنهم الفقراء ، وقد يسألون أقرانهم الأغنياء العون والزكاة فلا يعطونهم ، ويتفاخرون بأنهم أغنياء ، ولا يستحق الكافر الزكاة.

لقد بعث الله عز وجل الأنبياء وسائط بينه وبين عامة الناس يبلغونهم الوحي وأحكام الحلال والحرام ، فقابلهم الكفار بالإنكار والجحود ، فكان جزاؤهم النار ، وظنوا أن الملائكة الذين يتولون أمور النار وأصحابها وسائط بينهم وبين الله ، وحسبوا أنهم كالأنبياء إذ يفرحون بتوبة العبد ، ويقبلون من يأتي إليهم مسلماً وإن أكثر لهم الأذى ولكن الملائكة ﴿يَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾^(١) ، والآخرة دار حساب وجزاء ، فيرجو

أهل النار من خزنة النار سؤال الله تخفيف العذاب عنهم.

وعن أبي الدرداء قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : يلتقى على أهل النار الجوع حتى يعدل ما هم فيه من العذاب ، فيستغيثون بالطعام ، فيغاثون بطعام من ضريع لا يسمن ولا يغني من جوع ، فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة ، فيذكرون أنهم كانوا يجيزون الغصص في الدنيا بالشراب .

فيستغيثون بالشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد ، فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم ، وإذا دخلت بطونهم قطعت ما في بطونهم ، فيقولون : ادعوا خزنة جهنم فيدعون خزنة جهنم إن { ادعوا ربكم يخفف عنا يوماً من العذاب }^(٢) ، فيقولون { أو لم تك تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا وما دعاء الكافرين إلا في ضلال }^(٣) ، فيقولون ادعوا مالكا فيقولون { يا مالكا ليقض علينا ربك }^(٤) ، فيجيبهم ﴿إِنَّكُمْ

(١) سورة النحل ٥٠.

(٢) سورة غافر ٤٩.

(٣) سورة غافر ٥٠.

(٤) سورة الزخرف ٧٧.

مَّا كُنُوزٌ^(١)، فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم ، فيقولون {ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوماً ضالين ، ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فإنا ظالمون}^(٢)، فيجيئهم ﴿اٰخِسُوْا فِيْهَا وَلَا تَكْلُمُوْا﴾^(٣)، فعند ذلك يسوا من كل خير ، وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل^(٤).
ثم يسألون الملك مالك وهو المكلف بحراسة أبواب النار ، في مقابل الملك رضوان المكلف بحراسة أبواب الجنة .
ولا يرى مالك ضاحكاً ويناديه أهل النار ﴿يَا مَالِكُ لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّا كُنُوزٌ﴾^(٥)، وذكر أنه يتركهم لا يجيئهم إلا بعد أربعين سنة.

صلة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٦) بآية البحث

وفي نظم آية السياق وجوه :

الأول : ابتدأت آية السياق بصيغة الإنشاء وما يلحق بالنهاي ونفي التمني السراب ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذِينَ يَبْخُلُونَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ هُوَ خَيْرًا لَهُمْ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَهُمْ﴾^(٧) إذ أن ليس نهياً جامعاً لشرائطه بالخطاب بين الناهي والنهاي ، فلم تقل الآية : يا أيها الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله لا تحسبن..).

(١) سورة الزخرف ٧٧.

(٢) سورة المؤمنون ١٠٦-١٠٧.

(٣) سورة المؤمنون ١٠٨.

(٤) الدر المنثور ٢٢٧/٧.

(٥) سورة الزخرف ٧٧.

(٦) سورة آل عمران ١٨٠.

(٧) سورة آل عمران ١٨٠.

الثاني : جاء وسط آية البحث بصيغة الجملة الخبرية ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخُلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾^(١).

الثالث : أختتمت الآية بلغة الخطاب العام والإنشاء ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ وقد تقدم البيان في الجزء القادم^(٢)، ومن معاني الآية إرادة أصالة العموم في الخطاب ، وهو الموافق للواقع فان جميع أفعال العباد حاضرة عند الله عز وجل يعلم بها قبل حدوثها ، وقبل أن يخلق آدم وهي باقية محفوظة بهذه لتحضر يوم القيامة ، ويدل على حضور الأعمال يوم القيامة في المقام أمران :

الأول : ذكر آية السياق ليوم القيامة بالاسم ، وسمي يوماً مع أنه يتضمن مواطن عديدة كل موطن يطول لمئات السنين ، وعن قتادة في قوله ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾^(٣)، قال للنبي صلى الله عليه وآله وسلم بعض أهله : يا رسول الله هل يذكر الناس أهلهم يوم القيامة، قال : أما في ثلاث مواطن فلا : عند الميزان ، وعند تطاير الصحف في الأيدي ، وعند الصراط^(٤).

الثاني : حال الذين أدخروا الأموال من غير إخراج زكاتها بأنهم سيطوقون يوم القيامة بما بخلوا .

ويحتمل أوان هذا التطويق وجوهاً :

الأول : عند البعث والنشور .

الثاني : في بعض مواطن يوم القيامة .

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) أنظر الجزء الثاني والتسعون بعد المائة من تفسيرنا للقرآن.

(٣) سورة الأعراف ١٠٨.

(٤) الدر المنثور ١٩٤/٤.

الثالث : في عرصات الحساب .

الرابع : عند الخوض واردة عبور الصراط ، والصراط لغة الطريق الظاهر والبين والمحسوس الذي فيه أثار المشي ، واستعير لسنخية الفعل ومنهاج العمل من الخير أو الشر ، وفي التنزيل ﴿اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ﴾^(١) والصراط المستقيم هو الإسلام والقرآن واتباع رضوان الله ، والعمل بالسنة النبوية .

ومن الصراط المستقيم بلحاظ آية البحث دفع الحقوق الشرعية وإعانة ومواساة الفقراء والشكر لله عز وجل على نعمة المال والغنى وعلى التوفيق لإيصال الزكاة إلى مستحقيها .

(عن أبي سعيد الخدري، أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: "يُؤْتَى بِالْجَسْرِ - يعني يوم القيامة - فَيُجْعَلُ بَيْنَ ظَهْرِي جَهَنَّمَ ، قلنا: يا رسول الله وما الجسر؟ قال: مَدْحَضَةٌ مَزَلَّةٌ ، عَلَيْهِ خَطَاطِيفٌ وَكَلَالِيبٌ وَحَسَكَةٌ مُفْلَطَحَةٌ لَهَا شَوْكَةٌ عَقِيفَاءُ تَكُونُ بِنَجْدٍ ، يُقَالُ لَهَا السَّعْدَانُ ، يَمُرُّ الْمُؤْمِنُونَ عَلَيْهَا كَالطَّرْفِ وَالْبَرْقِ وَكَالرَّيْحِ ، وَكَأَجَاوِدِ الْخَيْلِ وَالرَّكَّابِ ، فَنَاجٍ مُسْلِمٌ ، وَمَخْدُوشٌ مُسْلِمٌ ، وَمَكْدُوسٌ فِي جَهَنَّمَ ، ثُمَّ يَمُرُّ آخِرُهُمْ يَسْحَبُ سَحْبًا ، فَمَا أَنْتُمْ بِأَشَدَّ مَنَاشِدَةً لِي فِي الْحَقِّ قَدْ تَبَيَّنَ لَكُمْ ، مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَئِذٍ لِلْجِبَارِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى ، إِذَا رَأَوْهُمْ قَدْ نَجَوْا وَبَقِيَ إِخْوَانُهُمْ)"^(٢) .

الخامس : في عالم الجزاء وعندما يساق الناس إلى محل السكن الدائم ، مع التناقض والتضاد في المسكن ، قال تعالى ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۚ حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا قُلُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ

(١) سورة الفاتحة ٦.

(٢) تفسير الطبري ٢٣٦/١٨.

عَلَى الْكَافِرِينَ * قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوًى
الْمُكْذِبِينَ * وَسِيقَ الَّذِينَ اتَّقَوْا رَبَّهُمْ إِلَى الْجَنَّةِ زُمَرًا حَتَّى إِذَا جَاءُوهَا وَفُتِحَتْ
أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا سَلَامٌ عَلَيْكُمْ طِبْتُمْ فَادْخُلُوهَا خَالِدِينَ ﴿١﴾.

والمختار أصالة الإطلاق وشمول حال التطويق في المواضع أعلاه
لأصالة الإطلاق إلا أن يرد دليل على التخصيص.

وفي الآية مسائل :

المسألة الأولى : يكون الجمع بين خاتمة آية السياق وأول آية البحث
﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ * لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ ﴿٢﴾ إذ أن الله عز وجل يعلم أن
هؤلاء سيقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ ، ويعلم أن هذا القول لا
يضر المؤمنين ، ولا يجعل بعضهم يرتد عن دينه .

وأيهما أكثر الذين دفعوا الزكاة أم الذين قالوا إن الله فقير ، وفي ذات
المدة والزمان ، الجواب إن الذين امثلوا لأمر الله بدفع الزكاة والحقوق
الشرعية هم الأكثر ويناصرهم الفقراء إذ يتنفعون كطائفة من الزكاة ،
لينقطع قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وينزوي أهله من غير أن تكف آية البحث
والسياق عن ملاحظتهم ، بينما يستمر المؤمنون في إخراج الزكاة ومع ثناء
المال الذي تخرج منه ، وهو من رشحات قوله تعالى في آية السياق ﴿وَلِلَّهِ
مِيرَاثُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ (٣) وعمومات قوله تعالى ﴿وَيُرِيدُ أَنْ نَمُنَّ عَلَى
الَّذِينَ اسْتَضَعُّوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ﴾ (٤).

(١) سورة الزمر ٧١-٧٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠-١٨١.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) سورة القصص ٥.

ومن معاني منهاج الخطاب في قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ أن الله عز وجل يعلم ما يعمل المسلمون عندما تقوم طائفة من الذين كفروا بحجب الحقوق والقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ فلا يدعوا القرآن إلى محاربتهم وقتالهم ، إنما يدعوا إلى الجدال والرفق ولغة النصح العام والخاص والموعظة الحسنة .

ويبين القرآن الحاجة إلى اللين في صيغ الاحتجاج مع الناس جميعاً ، إذ أمر الله عز وجل موسى عليه السلام باللين ولغة الحكمة مع فرعون ، قال تعالى ﴿فَقُلْ هَلْ لَكَ إِلَهٌ أَن تَزَكَّى * وَأَهْدِيكَ إِلَى رَبِّكَ فَتَخْشَى﴾^(١) والمراد من ﴿تَزَكَّى﴾ في الآية وجوه :

الأول : ترك فرعون دعوة الربوبية ، إذ كان يقول ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾^(٢).

الثاني : التنزه عن النواقض .

الثالث : الإقرار بالتوحيد .

الرابع : التصديق بنبوة موسى وهارون عليهما السلام .

الخامس : فعل الخيرات من مقام الرئاسة والسلطنة ، ومنه العدل بين الناس .

السادس : الرأفة ببني اسرائيل والتخفيف عنهم ، إذ كان فرعون وقومه يسخرونهم للأعمال الشاقة .

السابع : دفع الزكاة إذ ينتفع أهل مصر والسودان من زكاة فرعون ، إذ كان يقول ﴿وَهَذِهِ الْأَنْهَارُ تَجْرِي مِن تَحْتِي﴾^(٣) وقد أنعم الله عز

(١) سورة النازعات ١٨-١٩.

(٢) سورة النازعات ٢٤.

وجل على المسلمين والمسلمات باتخاذ تلاوة البحث والسياق مادة للجدال ، ففي هذه التلاوة فصح للقول القبيح ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ودم للذين يقولونه وسبب لتواريهم عن الإنظار وامتناعهم عن تكرار القول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وَخُنْ أَغْنِيَاءُ﴾ وهو من أسرار مجي الإخبار في الآية بصيغة الفعل الماضي ، فلم تقل الآية : يسمع الله قول الذين يقولون (إنما قالت ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا﴾ .

قد يأتي الفعل الماضي ويراد منه أفراد الزمان الطولية الماضي والحاضر والمستقبل ، وهذا صحيح كما في قوله تعالى ﴿وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٢) إلا أن هذا الإطلاق الزماني في عالم الأفعال يحتاج في المقام إلى قرينة والأصل في المقام عدمها ، ليكون من وجوه تقدير آية البحث :

الأول : الذين سيقولون إن الله فقير ونحن أغنياء لولا نزول آية البحث.

الثاني : الذين أصروا على القول إن الله فقير لولا نزول آية البحث .

الثالث : لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ، فانزل آية البحث لوجوه :

الأول : إنذار الذين قالوا إن الله فقير .

الثاني : جعل شطر من الذين قالوا إن الله فقير يتوبون إلى الله .

الثالث : دعوة المسلمين لتشخيص الذين قالوا إن الله فقير وأخذ الحائطة منهم .

(١) سورة الزخرف ٥١.

(٢) سورة النساء ٩٦.

الرابع : حث المسلمين على إعلان حقيقة أن الله هو الغني الحميد ،
وغناه ذاتي ومطلق ومتصل وفي التنزيل ﴿وَهُوَ يُطْعَمُ وَلَا يُطْعَمُ﴾^(١).

الخامس : ترغيب الذين قالوا ان الله فقير بالتوبة والإنابة .
واذا استضاف إنسان غيره ثم علم هذا الغير بالغيبة وموضوعها فان
المستغيب يعتريه الحياء والخجل والندامة ، فكيف وأن الذين قالوا إن الله
فقير أدركوا بنزول آية البحث أن الله سمع كلامهم وأخزاهم وأنه غير
راض على هذا القول .

وفي التنزيل ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾^(٢) فالله سبحانه يسمع كلام
الناس ، ويجيب الذين يسألونه ويتوجهون إليه بالدعاء ، وتبين الآية أعلاه
حرمان الذين كفروا أنفسهم من الإجابة ، فهو سبحانه لا يسمع منهم
أسباب ومقدمات الإجابة ، إنما يسمع منهم الكلام الذي يدل على الجحود
والضلالة في ذات الوقت الذي يتفضل الله عليهم بالوفرة في المال ، كما
يدل قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ على أنهم في صحة وعافية في
الجملة .

المسألة الثانية : تقدير الجمع بين خاتمة الآية السابقة وآية البحث (يا أيها
الناس الله بما تعملون خبير عندما تسمعون قول الذين قالوا إن الله فقير) .
لقد جعل الله عز وجل الحياة الدنيا دار إمتحان واختبار ، وليس من
حصر للوجوه والجهات التي يكون فيها الإمتحان ، وتارة يأتي على نحو
دفعي وأخرى تدريجي ، وقد يتعلق بفعل وتدبير ذات الشخص ، وقد يأتي
من غيره .

(١) سورة الأنعام ١٤.

(٢) سورة هود ٦١.

ثم أن الله عز وجل فرض الصلاة والزكاة والعبادات الأخرى على الناس ذكوراً وأنثاً ، ليستقراً منها قانون وهو : الاختبار بالعبادات علة استدامة الحياة الدنيا) قال تعالى ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴾^(١) وقد رحم الله عز وجل المسلمين بأن جعل الإمتحان بالصلاة يتكرر خمس مرات في اليوم مع تهيئة مقدماتها ، وإزاحة الموانع عن أدائها ، ليكون طريقاً للمغفرة من عند الله .

وعن سعد وناس من أصحاب النبي صلى الله عليه وآله وسلم كانوا يقولون : كان رجلاً أخوان على عهد رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وكان أحدهما أفضل من الآخر ، فتوفي الذي هو أفضلهما وعمر الآخر بعده أربعين ليلة .

ثم توفي فذكر لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم فضل الأول على الآخر قال ألم يكن يصلي؟ قالوا : بلى يا رسول الله . فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : ما يدريكم ما بلغت به صلاته؟ ثم قال عند ذلك : إنما مثل الصلوات كمثّل نهر جار بباب أحدكم غمر عذب يقتحم فيه كل يوم خمس مرات ، فماذا ترون يبقى من درنه^(٢) .

ومن الإختبار في الحياة الدنيا فريضة الزكاة ، وصحيح أن الزكاة لا تجب إلا على من تحقق عنده نصاب شرعي مخصوص إلا أن الزكاة محل ابتلاء الناس جميعاً من جهات :

الأولى : وجوب الزكاة على الناس جميعاً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾^(٣) ، فهو حكم تكليفي عام

(١) سورة الذاريات ٥٦ .

(٢) الدر المنثور ٣٥٧/٥ .

(٣) سورة الأعراف ١٥٨ .

، وورد عن عيسى عليه السلام في التنزيل ﴿وَأَوْصَانِي بِالصَّلَاةِ وَالزَّكَاةِ مَا دُمْتُ حَيًّا﴾^(١) وهل هذا الأمر خاص بعيسى كرسول أم أنه عام لأئمة ، الجواب هو الثاني .

الثانية : لزوم تسليم الناس بوجوب الزكاة سواء من كان عنده نصاب أو لم يكن عنده نصاب للتباين بين أصل الوجوب والواجب .

الثالثة : في الزكاة إختبار وامتحان لأصحاب الأموال ، وهذه الأموال امتحان من عند الله عز وجل ، ومن إعجاز القرآن وصف المال بآيات تدعو مجتمعة ومتفرقة إلى تسخيرها في طاعة الله ، وعدم صيرورته سبباً للإنشغال عن ذكره تعالى ، ومنها :

قال تعالى ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا﴾^(٢).

قال تعالى ﴿إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ﴾^(٣).

قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتْلَوْا أَمْوَالَكُمْ وَأَوْلَادَكُمْ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَمَنْ يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾^(٤).

قال تعالى ﴿كَذَلِيلٌ لَا تَكْرُمُونَ الْيَتِيمَ * وَلَا تَحَاضُنْ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التَّرَاثَ أَكَلًا لَمَنًا * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا﴾^(٥).

(١) سورة مريم ٣١.

(٢) سورة الكهف ٤٦.

(٣) سورة التغابن ١٥.

(٤) سورة المنافقون ٩.

(٥) سورة الفجر ١٧-٢٠.

قال تعالى ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَبَلَوْكُم بِالْشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾^(١).

قال تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ
* وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلَاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ﴾^(٢).

قال تعالى ﴿فَلَا اقْتَحَمَ الْعَقَبَةَ * وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْعَقَبَةُ * فَكُ رُقِيَةً * أَوْ إِنْطَعِمُ فِي يَوْمٍ
ذِي مَسْغَبَةٍ * يَتِيمًا ذَا مَقْرَبَةٍ * أَوْ مَسْكِينًا ذَا مَفْرَقَةٍ﴾^(٣).

قال تعالى ﴿أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَّالٍ وَبَيْنٍ﴾^(٤).

قال تعالى ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتِيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا﴾^(٥).

قال تعالى ﴿فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾^(٦).

قال تعالى ﴿إِنْ تُرِيدِي أَنَا أَقَلُّ مِنْكَ مَالًا وَوَلَدًا﴾^(٧).

وقال تعالى ﴿وَأَمْدُدْنَاكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَيْنٍ وَجَعَلْنَاكُمْ أَكْثَرَ نَفِيرًا﴾^(٨).

وقال تعالى ﴿اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهُمْ زِينَةٌ وَتَفَاخُرُ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي
الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ﴾^(٩).

(١) سورة الأنبياء ٣٥.

(٢) سورة الفجر ١٥-١٦.

(٣) سورة البلد ١١-١٦.

(٤) سورة المؤمنون ٥٥.

(٥) سورة مريم ٧٧.

(٦) سورة الكهف ٣٤.

(٧) سورة الكهف ٣٩.

(٨) سورة الإسراء ٦.

(٩) سورة الحديد ٢٠.

وقال تعالى ﴿وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَيَبْنِيَنَّ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ﴾^(١).
 وقال تعالى ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ﴾^(٢).
 وقال تعالى ﴿لَنْ تَغْنِيَّ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾^(٣).
 وقال تعالى ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُمْ بِهِ مِنْ مَالٍ وَبْنِيَنَّ * نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَلْ لَا يَشْعُرُونَ﴾^(٤).

وفي قول نوح ورد قوله تعالى ﴿وَاتَّبِعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَكَّدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٥)
 لبيان مصداق للإعجاز الغيري لآية البحث ، وهي أنها برزخ دون اتباع
 الناس لمانع الزكاة ، ليكون من باب الأولوية القطعية استهجانهم لقول
 ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾.

وقد نجح بالهداية والتوفيق إلى دفع الزكاة من المال الخاص قوم
 تعاهدوا دفعها ، ليكون هذا الدفع على وجوه :
الأول : براءة للذمة ، وقربة إلى الله عز وجل .
الثاني : رجاء ثناء وزيادة المال .

الثالث : بعث أرباب الأموال على دفع الزكاة من أموالهم ، وترغيبهم
 بهذا الدفع سواء بالمحاكاة أو التجراً على الدفع أو رؤية المنافع الخاصة
 والعامة لدفع الزكاة .

(١) سورة نوح ١٢.

(٢) سورة التوبة ٥٥.

(٣) سورة المجادلة ١٧.

(٤) سورة المؤمنون ٥٥-٥٦.

(٥) سورة نوح ٢١.

وهل يمكن إحتساب دفع الزكاة من مصاديق الأمر بالمعروف والدعوة العملية له ، المختار نعم ، وهو من لطف الله عز وجل بالعباد بأن يأمر الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، ثم يأتي فعلهم الواجب ليكون أمراً بالمعروف ، ويمتنعون عن فعل المعصية فيكون هذا الإمتناع نهياً عن المنكر وحجة ، قال تعالى ﴿فَلِلَّهِ الْحُجَّةُ الْبَالِغَةُ﴾^(١) .

فلما قال الذين حبسوا زكاة أموالهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ قام المؤمنون بدفع الزكاة وهم يقولون نحن فقراء إلى الله ، ومحتاجون إلى رحمته ، وليكون دفعهم الزكاة برزخاً دون إفتتان الناس بحجب طائفة من الأغنياء الزكاة ، وكأن دفع الزكاة وعدمه من الصراع بين الحق والباطل ، ولا بد أن يغلب الحق ، قال تعالى ﴿بَلْ يَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾^(٢) .

ومن الباطل في المقام قول الذين امتنعوا عن الزكاة ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ .

فيدمغه : أي يكسره ويذهبه لأن أصل هذه الكلمة إصابة الرأس والدماع بالضرب فليس فيه إلا الهلاك .

وهل نزول آية البحث من قذف الحق على ذات الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وعلى قولهم ، الجواب نعم ، لبيان المدد من عند الله عز وجل للنبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين بآيات القرآن ، إذ تتضمن كل آية إصلاحاً للنفوس .

(١) سورة الأنعام ١٤٩ .

(٢) سورة الأنبياء ١٨ .

ليان قانون وهو أن دفع الزكاة تبيكت للذين قالوا هذا القول وانحسار له من الأرض ، على أن الإسلام انتشر بآيات القرآن وما فيها من الوعظ والهداية إلى الخير والزرع عن الباطل ومفاهيم الجحود فلم ينتشر الإسلام بالسيف ، ولم تفرض فرائضه العبادية بالإكراه ، ولا يتعارض مع هذا المعنى أخذ الزكاة من الممتنع قهراً لعمومات قوله تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ﴾^(١) .

ومن الإعجاز في السنة النبوية أن النبي محمدا صلى الله عليه وآله وسلم كان لا يأخذ له ولأهل بيته من الزكاة إنما تعطى للفقراء والمساكين وتتفق في مواردها الشرعية.

المسألة الثالثة : ترى لماذا ذكر الله عز وجل طائفة قليلة من الناس ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ مع أنه سبحانه يعلم أن كلامهم هذا سيقى بذكره في القرآن إلى يوم القيامة ، الجواب من جهات :

الأولى : صحيح ان قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ صدر من جماعة قليلة إلا إنه مرآة تعكس رأي ومذهب طائفة من الناس يحبون المال حباً جماً ويقدمونه على الواجب الشرعي ، أي أن حب المال والإفراط في هذا الحب ليس سبباً أو علة للإمتناع عن دفع الزكاة .

الثانية : بيان صبر وجهاد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والأذى الذي يلاقه من كل من :

الأول : المشركون الذين يتعدد أذاهم له ولأهل بيته وأصحابه وبلغ حد الإجهاز على النبي وأصحابه بالسيوف والرماح وتجهيز الجيوش

العظيمة لقتاله بخصوص معركة الأحزاب ﴿إِذْ جَاءُوكُم مِّنْ فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الْأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونُ﴾ (١).

الثاني : المنافقون الذين يظهرون الإسلام ويبطنون الكفر ، قال تعالى ﴿قَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَّرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنِ تَصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللَّهُ أَنِ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُضْبِحُوا عَلَى مَا أَسْرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ (٢) .

الثالث : الضالون والفاسقون الخارجون عن أمر الله ، قال تعالى ﴿مَا قَطَعْتُمْ مِنْ لِّينَةٍ أَوْ تَرَكْتُمُوهَا قَائِمَةً عَلَى أُصُولِهَا فَبِإِذْنِ اللَّهِ وَلِيْخِزِيَّ الْفَاسِقِينَ﴾ (٣).

الرابع : ذكرت آية البحث طائفة أخرى تؤذي النبي في موضوع مخصوص وهو حجبهم مقدار الزكاة الذي في أموالهم الواجبة عليهم وتعديهم في القول والفعل ، فهم لم يكتفوا بحبس أموال الزكاة التي في أموالهم بل تعدوا بالقول والفعل على مقام الربوبية .

فبينما يجاهد النبي صلى الله عليه وآله وسلم لجذب الناس إلى الإيمان ، ونبذ عبادة الأصنام ، ويدعو الناس للزكاة ليكون دفعها عوناً وحرزاً للناس من الإنقياد إلى رؤساء الكفر ، ويتلو الآيات التي تتضمن أحكام العبادات والمعاملات يقوم بعضهم بالتعدي على مقام الربوبية ليتجرأ الكفار والمنافقون في إظهار ما يضمرون من السموم والأحقاد .

(١) سورة الأحزاب ١٠.

(٢) سورة المائدة ٥٢.

(٣) سورة الحشر ٥.

أي أن قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ تحريض للمشركين على قتال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، ودعوة للمنافقين لإظهار ما يبيتون في الكفر والخلود إلى الغفلة والقعود عن أداء الفرائض العبادية .

وهذا التحريض والمقاصد الخبيثة لقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ من أسباب ذكر الله عز وجل لقولهم هذا في القرآن .

ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) من

جهات :

الأولى : فضح الذين يتعدون على مقام الربوبية .

الثانية : ذم الناس للذين ييخلون بالحقوق الشرعية .

الثالثة إمتناع الناس عن الإستماع إلى الذين كفروا .

الرابعة : إنصات الناس للقرآن وآياته لأنها تكشف المكر والكيد الخفي

، قال تعالى ﴿إِنَّهُ يَعْلَمُ الْجَهْرَ مِنَ الْقَوْلِ وَيَعْلَمُ مَا تَكْتُمُونَ﴾^(٢) .

ومن إعجاز القرآن ترغيب الناس بالإنصات له ، والإستماع إليه

والتدبر في المضامين القدسية لآياته ، قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ

فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنْصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(٣) .

ومن اللطف الإلهي بالناس مجئ الأمر الإلهي بفعل وإعانتهم لآتيانه

والإمثال فيه .

لقد خفف الله عز وجل عن النبي وأصحابه بأن أنزل آية البحث

ليتلوها المسلمون في صلاتهم وخارج الصلاة ويحاصرون بها الذين كفروا

(١) سورة الأنبياء ١٠٧ .

(٢) سورة الأنبياء ١١٠ .

(٣) سورة الأعراف ٢٠٤ .

ويعنونهم من محاكاة هذا التعدي والتفريط ، لقد ذكر الله عز وجل قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لأن الله عز وجل خير بما ينتج ويترشح عن هذا الذكر من جهات :

الأولى : جهاد المسلمين بتلاوة آية البحث ، فمن إعجاز القرآن أن تلاوته جهاد من وجوه :

الأول : إنه تهذيب للمنطق وإصلاح للنفس ، والمواظبة على تلاوة القرآن من مصاديق قوله تعالى ﴿وَأَنَّكَ لَکَلِّمٍ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١) ، وهو من أسرار وجوب قراءة القرآن خمس مرات في اليوم على نحو الوجوب العيني على كل مسلم ومسلمة في الصلاة .

الثانية : الإرتقاء العلمي وتنشيط الفكر وملكة الإستقراء والإستنباط .

الثالثة : من منافع تلاوة القرآن تنمية ملكة الصبر عند القارئ والسامع .

الرابعة : في التلاوة غنى للنفس ، وبرزخ دون الإنقياد للغرائز والشهوات .

الخامسة : صيرورة تلاوة القرآن جزء من الحياة اليومية لكل مسلم ومسلمة وواقية من الإرهاب والإرهاب الموازي .

الثاني : التخفيف عن المسلمين بأن صفحة من جهادهم تتجلى بتلاوة القرآن ، فلا يحملون السيوف على الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ ولا يقيمون عليهم الحد بسبب هذا القول ، ولا يجسونهم كما حبسوا الزكاة حتى يطلقونها ويدفعوا للفقراء حقهم ، إنما أمرهم الله عز وجل بتلاوة آية البحث ، ولأنه سبحانه ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ خَيْرٌ﴾ فانه سبحانه يعلم أن تلاوة هذه الآية كافية لإصلاح النفوس ، ومع هذا يتفضل بانزال الآيات في ذات الموضوع وغيره .

الثالث : ابتدأت آية البحث بقوله ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وفيه نداء للمسلمين بأن أمر وشأن هؤلاء الذين امتنعوا عن دفع الزكاة وتعدوا بالقول إلى الله عز وجل ، عندئذ اختتم الله آية البحث بقانون من الإرادة التكوينية ﴿وَقُولُوا عَذَابُ الْحَرِيقِ﴾^(١).

وهل ذكر الله عز وجل قولهم لعلهم بأنهم يتمادون في القول والفعل وظلمهم لأنفسهم والناس ، فأراد الله سبحانه أن يمنع من هذا التماادي ، الجواب نعم ، وهو من مصاديق قوله تعالى في خاتمة الآية السابقة ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ .

فلا يعلم منافع آية البحث وزجرها للكافرين والجاحدين إلا الله عز وجل ، قال تعالى ﴿وَنُزِّلَ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ الظَّالِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾^(٢).

ليكون من إعجاز ومنافع القرآن قانون : منع تماادي الكافرين في تعديهم وظلمهم) وهو أمر لا يقدر عليه إلا الله فلم يجر هذا المنع بقوة السلاح ، ولا حتى بالوعيد ، إنما بذكر قول الجاحدين الذين يظلمون أنفسهم ظلماً مركباً من جهة الفعل والقول ، أما الفعل فهو الإمتناع عن دفع الزكاة مع وجوبها عليهم .

وأما ظلمهم فيما يقولون فهو من وجهين :

أولاً : قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ وليس من غني إلا هو سبحانه ، وكل ما عداه فقير ومحتاج ، وهو وفق القياس الإقتراني : الكبرى : كل ممكن فقير .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة الإسراء ٨٢.

الصغرى : الإنسان ممكن .

النتيجة : الإنسان فقير .

ثانياً : قولهم ﴿وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ وذكروا هذا القول مقترناً بدعواهم إن الله فقير ، ويقصدون كثرة الأموال التي عندهم ، فأخبرت آية البحث عن عودة هذه الأموال لله عز وجل بقوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ .

ليعودوا فقراء قال تعالى ﴿كَأَبَدْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُّعِيدُهُ وَعَدَّا عَلَيْنا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾^(١) ومما ينتج عن ذكر الله عز وجل في آية البحث لقولهم بعث الندامة في نفوسهم ، وحتى الذي يصر على العناد فانه يعجز عن إيجاد المستند والدليل على قوله ، ليلحقه الخزي في الدنيا ، وليكون مقدمة للعذاب الذي يلقاه في الآخرة .

وبعد أن كان الجاحدون يتجاهرون بالقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ لأنه سبحانه سألهم إعانة الفقراء والإنفاق في سبيل الله ، تفضل الله عز وجل وأغنى الفقراء بالقناعة والصبر ثم توالي الأموال ، وجعلهم غير محتاجين لأموال هؤلاء الأغنياء ، ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ تلقي الفقراء البدل والعوض عما حبسه الجاحدون من زكاة أموالهم ليتحملوا الوزر من وجوه :

الأول : الإمتناع عن الواجب الشرعي والأخلاقي .

الثاني : إعاقة التكافل الإجتماعي الذي أراده الله رافة بالناس وتهدياً

للنفوس .

الثالث : حرمان الفقراء من نصيبهم الذي كتب الله لهم في أموال الأغنياء ، قال تعالى ﴿وَفِي أَمْوَالِهِمْ حَقٌّ لِّلسَّائِلِ وَالْمَحْرُومِ﴾^(١) ومن نعم الله عز وجل على الإنسان حاجة الناس إليه وإلى إعانتته لهم .

الرابع : اقتداء بعض الناس بهم بالإمتناع عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية .

الخامس : جعل الناس يتجرون على النبوة والتنزيل ، فإذا كان هؤلاء الأغنياء يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ فان غيرهم قد يتعدى بالقول أو الفعل على الأنبياء ، وهو من الإعجاز بذكر الآية لـ ﴿وَقَتْلَهُمُ الْآبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾^(٢) .

وقد تلقى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أشد الأذى من الكفار إذ افتروا عليه بأن نعتوه بصفات :

الأولى : ساحر .

الثانية : مسحور ، وفي التنزيل ﴿وَقَالَ الظَّالِمُونَ إِنَّا تَبِعُونَ إِلَّا رَجُلًا مَّسْحُورًا﴾^(٣) .

الثالثة : لما أظهر البلغاء إقرارهم بأن القرآن فوق كلام البشر نعت الكفار النبي محمداً بأنه شاعر ، قال تعالى ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الْأَوَّلُونَ﴾^(٤) .

الرابعة : كاهن ، والكاهن هو الذي يخبر عن الوقائع في المستقبل ، ويدعي معرفة الخفايا والأسرار ، وما تأتي به الأيام من علوم الغيب .

(١) سورة الذاريات ١٩ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة الفرقان ٨ .

(٤) سورة الأنبياء ٥ .

(قال ابن إسحق ثم إن الوليد بن المغيرة اجتمع إليه نفر من قریش وكان ذا سن فيهم وقد حضر الموسم فقال لهم يا معشر قریش إنه قد حضر هذا الموسم وان وفود العرب ستقدم عليكم وقد سمعوا بأمر صاحبكم هذا فأجمعوا فيه رأيا ولا تختلفوا فيكذب بعضكم بعضا قالوا فانت يا أبا عبد شمس فقل وأقم لنا رأيا نقول فيه .

قال بل أنتم فقولوا أسمع .

قالوا فنقول كاهن قال والله ما هو بكاهن لقد رأينا الكهان فما هو بزمزمة الكاهن ولا سجعه قالوا فنقول مجنون .

قال والله ما هو بمجنون ، ولقد رأينا الجنون وعرفناه فما هو بجنقه ولا تخالجه ولا وسوسته .

قالوا فنقول شاعر قال ما هو بشاعر لقد عرفنا الشعر كله رجزه هجزه وقريضه ومقبوضه ومبسوطه فما هو بالشعر .

قالوا فنقول ساحر قال ما هو بساحر قد رأينا السحار وسحروهم فما هو بنفته ولا عقده .

قالوا فما تقول يا أبا عبد شمس قال والله ان لقوله لحلاوة وان اصله لعذق^(١) ، وان فرعه لجناة^(٢) ، وما انتم بقائلين من هذا شيئا الا اعرف انه باطل وان اقرب القول فيه لان تقولوا ساحر .

جاء^(٣) ، بقول هو سحر يفرق به بين المرء وأبيه .

وبين المرء وأخيه .

وبين المرء وزوجه .

(١) العذق : النخلة ، ذكر هنا استعارة لإرادة ثبات الأصل والجذور في الأرض ، وفي

رواية ابن هشام لغدق أي الماء الكثير .

(٢) الجناة : ما يجنى من الثمر .

(٣) أي جاء رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم .

وبين المرء وعشيرته ففرقوا عنه بذلك فجعلوا يجلسون لسبل الناس حين قدموا الموسم لا يمر بهم أحد إلا حذروه إياه ، وذكروا له أمره وصدرت العرب من ذلك الموسم بأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتشر ذكره في بلاد العرب كلها. (١).

ويدل الحديث أعلاه على أن مشركي قريش اتفقوا على نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأنه ساحر ، وهذا الإتفاق إجماع يسبب الفتنة ويوجب الناس عن الإيمان لولا فضل الله عز وجل بفضحهم وذمهم وذكر أقوالهم هذه وشواهد بطلانها ، مع توجه الأمر إلى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالإجتهد بالدعوة إلى الله عز وجل ، قال تعالى ﴿فَذَكِّرْنَا أَنْتَ نِعْمَ رَبِّكَ بِكَاهِنٍ وَلَا مَجْنُونٍ﴾ * أَمْ يَقُولُونَ شَاعِرٌ تَتَّبِعُهُ بِهِ رَيْبَ الْمُنُونِ ﴿٢﴾ .

وكان القرآن ينزل بفضح المشركين وإبطال إفتراءهم ، وتتوالى المعجزات على يد النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، فازداد عدد المسلمين وصاروا بالآلاف في مكة وما حولها ، ونزلت المواساة من الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأهل البيت والصحابة ، قال تعالى ﴿قَدْ نَعْلَمُ إِنَّهُ لَيَحْزُنُكَ الَّذِي يَقُولُونَ فَإِنَّهُمْ لَا يَكْذِبُونَكَ وَلَكِنَّ الظَّالِمِينَ بآيَاتِ اللَّهِ يَحْجِدُونَ﴾ (٣).

(١) عيون الأثر ١/ ١٣٣.

(٢) سورة الطور ٢٩-٣٠.

(٣) سورة الأنعام ٣٣.

الخامسة : نعت النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون ، إذ لا يظنون أن الناس يستجيبون لدعوته مع إظهارهم الحرص على التقيد بسنة آبائهم في عبادة الأوثان .

السادسة : صفة معلّم أي أن شخصاً من البشر يقوم بتعليم النبي صلى الله عليه وآله وسلم فيصوغ هذا التعليم بلغة الآيات ، قال تعالى ﴿ثُمَّ تَوَلَّوْا عَنْهُ وَقَالُوا مُعَلِّمٌ مِّجَنُونٌ﴾^(١) أي أن الذي يعلم النبي محمداً بشر مجنون لا يعي ما يقول ، أو يريدون نعت النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالجنون .

والأنبياء هم المعلمون الأوائل ، ويعلمون الناس العلوم الكونية لتبقى أرث نبوة إلى يوم القيامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٢) .

و(عن سعيد بن أبي سعيد المقبري قال : بلغنا أن رجلاً جاء إلى عيسى فقال : يا معلم الخير كيف أكون تقياً لله كما ينبغي له؟ قال : ييسير من الأمر . تحب الله بقلبك كله ، وتعمل بكدحك وقوتك ما استطعت ، وترحم ابن جنسك كما ترحم نفسك .

قال : من ابن جنسي يا معلم الخير؟ قال : ولد آدم كلهم ، وما لا تحب أن يؤتى إليك فلا تأته إلى أحد فأنت تقي لله حقاً)^(٣) .

ويكون من معاني قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ وجوه :

الأول : يا أيها الممتنعون عن دفع الزكاة الله بما تعملون خبير فجعل العوض والبدل للفقراء عن الأموال التي حجبتموها .

(١) سورة الدخان ١٤ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

(٣) الدر المنثور ٢١/١ .

الثاني : والله خبير بما تعملون من التعدي بالقول والفعل ، فانزل الله آية البحث ليجتهد المسلمون في التكافل بينهم ، وهو من مصاديق الجمع بين قوله تعالى ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ ^(١) وقوله ﴿ وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾ ^(٢) ، لبيان موضوع أخوة المسلمين ، وتأكيد قانون وهو تقوم الأخوة الإيمانية بالصبر وأعمال البر والصلاح والحرص على الخشية من الله في السر والعلانية ، وهو من الشواهد على قانون (لم يغز النبي ص أحداً) ^(٣).

الثالث : والله خبير بما تعملون بعد نزول آية البحث ، فهل يستمر هؤلاء الجاحدون في قولهم وتعديهم ، يحتمل الجواب وجوهاً :
الأول : استمرار الجاحدين بذات القول ونسبة الفقر إلى الله ، لإدعائهم الغنى.

الثاني : زيادة ومضاعفة قولهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ ﴾ وتجاهرهم فيه.

الثالث : قيامهم بالجدال والمغالطة في ذات آية البحث .

الرابع : السعي لإغتيال النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لمنع توالي نزول القرآن .

ومن الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم حفظ الله له ، إذ كان الكفار والمنافقون يخشون نزول آيات من القرآن تخزيهم باسمائهم أمام العرب وتبقى يرددها الناس والذراري.

(١) سورة الحجرات ١٠.

(٢) سورة المائدة ٢.

(٣) أنظر الأجزاء (١٥٩-١٨٥) من هذا السفر التي جاءت بخصوص دلائل القرآن والسنة على هذا القول ، وسيأتي الجزء ١٨٨ في ذات هذا القانون ان شاء الله .

وقد هاجر النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وأصحابه إلى المدينة ووصلت إليها قبل وصولهم سورة اللهب وما فيها من ذم لعم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم قال تعالى ﴿تَبْتَ يَدَايِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ * سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ﴾^(١).

ويتلو المسلمون في الصلاة سورة اللهب ليدركوا قانوناً من الإرادة التكوينية وهو أن كل واحد منهم أقرب إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم من عمه أخيه عبد المطلب وأم أبي لهب لبنى بنت هاجر بن عبد مناف بن ضاطر بن حبشية بن سلول .

اصطرع أبو طالب وأبو لهب، فصرع أبو لهب أبا طالب، وجلس على صدره، فمد النبي صلى الله عليه وسلم بذؤابة^(٢) أبي لهب، والنبي صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ غلام. فقال له أبو لهب: أنا عمك، وهو عمك، فلم أعتته علي، فقال: لأنه أحب إلي منك. فمن يومئذ عادى أبو لهب النبي صلى الله عليه وآله وسلم، واختبأ له هذا الكلام في نفسه. وكان أبو لهب شديد المعاداة لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم^(٣).

وهل يشمل قوله تعالى ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾^(٤)، النبي محمداً أم أن القدر المتيقن من الآية هو الأخوة بين الصحابة من المهاجرين والأنصار، الجواب هو الأول، لذا حينما أخى النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بين الصحابة، اختار الإمام علي عليه السلام أخاً له، ثم زوجه ابنته فاطمة عليها السلام مما يدل على أن الأخوة الإيمانية لا تتعارض مع قواعد

(١) سورة المسد ١-٣.

(٢) الذؤابة: شعر مؤخر الرأس، والناصية شعر مقدمة.

(٣) مختصر تاريخ دمشق ٤٠٧/٨.

(٤) سورة الحجرات ١٠.

النكاح بالإضافة إلى أن الزهراء هي بنت النبي صلى الله عليه وآله وسلم الذي هو ابن عم الإمام علي في النسب وأبو طالب هو شقيق عبد الله أبي النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم لأمه وأبيه ، ومع هذا كانت الزهراء تخاطب الإمام علي عليه السلام (يا ابن عم).

فحينما دنا منها الأجل قالت : يا ابن عم : أوصيك أولاً أن تتزوج بعدي بابنة أختي أمانة ، فانها تكون لولدي مثلي ، فان الرجال لا بد لهم من النساء .

وقد بين القرآن حرمة النكاح من جهة النسب والسبب ، قال تعالى ﴿حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ وَبَنَاتُكُمْ وَأَخَوَاتُكُمْ وَعَمَّاتُكُمْ وَخَالَاتُكُمْ وَبَنَاتُ الْأَخِ وَبَنَاتُ الْأُخْتِ وَأُمَّهَاتُكُمُ اللَّاتِي أَرْضَعْنَكُمْ وَأَخَوَاتُكُمُ مِنَ الرَّضَاعَةِ وَأُمَّهَاتُ نِسَائِكُمْ وَرَبَائِبُكُمُ اللَّاتِي فِي حُجُورِكُم مِّن نِّسَائِكُمُ اللَّاتِي دَخَلْتُم بِهِنَّ فَإِن لَّمْ تَكُونُوا دَخَلْتُم بِهِنَّ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ وَحَلَائِلُ أَبْنَائِكُمُ الَّذِينَ مِنْ أَصْلَابِكُمْ وَأَن تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا ٢٣﴾^(١).

وأمانة بنت أبي العاص بن الربيع ، وهو ابن خالة أمها ، إذ أن أم أبي العاص هالة بنت خويلد أخت أم المؤمنين خديجة لأبيها وأمها ، وكان مصافياً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم وبعد الهجرة مشى له مشركوا قريش والخوا أن يطلق زينب فأبى ، وهاجرت إلى المدينة ، وأسر أبو العاص يومئذ كافراً ، ثم اسلم قبل الفتح في قصة هي معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وسيأتي التفصيل في الجزء الثاني والتسعون بعد المائة ان شاء الله .

وتزوج الإمام علي عليه السلام أمانة وولدت له محمد الأصغر .

لقد كان زواج الإمام علي ثمرة الصبر والجهاد ، وعنوان إستقرار المجتمع الإسلامي وسبل المعيشة في المدينة ، وهو دعوة للألفة والوفاق ونبذ الحروب والعنف والقتال.

الخامس : قيام الجاحدين بعد نزول آية البحث بالكيد والمكر للمؤمنين ، والسعي لبث الشكوك والريب بينهم ، قال تعالى ﴿وَإِنْ يَكَادُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَيُزْلِقُونَكَ بِأَبْصَارِهِمْ لَمَّا سَمِعُوا الذِّكْرَ وَيَقُولُونَ إِنَّهُ لَمَجْنُونٌ﴾^(١).

السادس : التعاون بين الكفار والمنافقين لمحاربة النبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿تَرَى كَثِيرًا مِنْهُمْ يَتَوَلَّوْنَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَبِئْسَ مَا قَدَّمَتْ لَهُمْ أَنْفُسُهُمْ أَنْ سَخِطَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَفِي الْعَذَابِ لَهُمْ خَالِدُونَ * وَلَوْ كَانُوا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالنَّبِيِّ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مَا اتَّخَذُوا لَهُمْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ كَثِيرًا مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾^(٢).

وأختتمت آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ فانه سبحانه يعلم ما سيفعله الجاحدون الظالمون وأنهم لن يضرروا النبي والتنزيل والصحابة .

ومن معاني اسم (الخبير) وجوه :

الأول : يعلم الله عز وجل أسباب ومقدمات كل فعل يقوم به العبد .

الثاني : يأذن الله عز وجل بالفعل الذي يصدر عن العبد ، وهو لا

يتعارض مع الإختيار وكون الإنسان غير مكره على الفعل .

الثالث : يعلم الله عز وجل بمنافع أو أضرار كل فعل يصدر من العبد

سواء التي تترشح عنه في الحال أو في المستقبل المنظور أو البعيد .

الرابع : الحيلولة دون العبد ودون الفعل القبيح لجهات :

(١) سورة ن ٥١.

(٢) سورة المائدة ٨٠-٨١.

الأولى : ضرر الفعل القبيح على صاحبه .

الثانية : الأذى الذي يلحق الغير من فعل العبد للمنكر والقبيح ، ومن

أسرار قوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَحَنُ أُغْنِيَاءُ﴾

(١) منع وصول الأذى للمؤمنين من هذا القول ، وهذا المنع من مصاديق

أختتام آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ (٢) أي بمنافع

كل عمل من هذه الأعمال .

الثالثة : ما يترتب على الفعل من النفع أن الأذى اللاحق لذات

الشخص أو لذريته أو غيرهم ، فقد أصلح الله عز وجل جدّ اليتيمين

اللذين أصلح لهما الخضر وموسى عليه السلام الجدار ، وفي التنزيل ﴿وَأَمَّا

الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلَامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنْزُ لَهُمَا وَكَانَ

أَبُوهُمَا صَالِحًا فَآرَادَ رَبُّكَ أَنْ يُبْلَغَا أَشَدَّهُمَا وَيَسْتَخْرِجَا كَنْزَهُمَا رَحْمَةً مِنْ رَبِّكَ وَمَا فَعَلْتُهُ

عَنْ أَمْرِي ذَلِكَ تَأْوِيلُ مَا لَمْ تَسْطِعْ عَلَيْهِ صَبْرًا﴾ (٣).

والمختار هو عجز الجاحدين عن فعل ما فيه الضرر بالنبوة والتنزيل

والصحابة ، إذ أن قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ دليل على تفضل

الله عز وجل بصرف الجاحدين عن إيذاء النبي صلى الله عليه وآله وسلم

وأصحابه ، بسبب آية البحث ز

وفيه دعوة للمسلمين لزيادة الإيمان حسن التوكل على الله ، وبذل

الوسع في طاعته ، قال تعالى ﴿فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ﴾ (٤).

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة الكهف ٨٢.

(٤) سورة آل عمران ١٧٣.

المسألة الرابعة : ترى هل كل الذين حبسوا الزكاة من الكافرين وقالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الجواب لا ، إنما القائلون هذا القول طائفة منهم ، فجاء قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾ ليكون خطاباً عاماً ، وهو بحسب جهة الخطاب على وجوه تأديبية وتعليمية منها :

الأول : يا أيها الذين آمنوا إن الله يعلم بدفع الأذى من قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ .

الثاني : بيان حب الله عز وجل للناس بصرفهم عن التعدي والظلم في القول والفعل .

الثالث : والله يعلم ما سيفعله الأغنياء بعد نزول الآية .

الرابع : والله يعلم أن نزول آية البحث سبب لتوبة طائفة من المشركين .

الخامس : من علم الله وكونه الخبير احاطته علماً بما يعمل الناس قبل وبعد نزول الآية وأثر هذه الأعمال .

ويمكن انشاء قانون مصاحبة فضل الله للناس في أقوالهم وأعمالهم ، وهو من مصاديق اسم الخبير ، فلولا فضل الله لانقرضت الحياة الإنسانية بالإقتتال والإرادة الجماعية ، وكثرة وتوالي الحروب ، ويدل عليه كثرة اسلحة الدمار الشامل وتعدد الدول التي تملكها ، وحبس تلك الدول أنفسهم من استعمالها أو المبادرة للجوء إليها .

ويحتاج الناس مجتمعين ومتفرقين فضل الله ، والتعاون بينهم ، ومن وجوه استمرارية عدم استعمال هذه الأسلحة :

الأول : لغة الحوار بين الحكومات ، والتقارب بين الحضارات .

الثاني : تسليح أولاة الأمور في الدول العظمى بالحكمة والخشية من الله ، والعواقب الأليمة لاستعمال أسلحة الدمار .

الثالث : التعاون الدولي للتخلص من اسلحة الدمار الشامل ، ونبذ الإرهاب .

الرابع : المنع من انتشار هذه الأسلحة ووصولها إلى أيدي الذين لا يتورعون عن استخدامها .

ويحتمل حال الناس وجوهاً :

الأول : حال الناس بعد نزول آية البحث بذات المرتبة التي كانوا فيها قبل نزول الآية على فرض ان الآية الواحدة لا تغير المفاهيم المتوارثة ، والعادات التي لا أصل لها من شرع أو عقل .

الثاني : حال المسلمين والناس بعد نزول آية البحث أفضل وأحسن من حالهم قبل نزول آية البحث .

الثالث : حال المسلمين والناس قبل نزول آية البحث أحسن من حالهم بعدها ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ﴾^(١).

والصحيح هو الثاني أعلاه وأن حال المسلمين والناس بعد نزول آية البحث هو الأحسن من جهات :

الأولى : علم الناس بأن الله عز وجل يسمع الأصوات ، وأن الأقوال حاضرة عنده ، من وجوه :

الأول : ما قاله الناس الذين ماتوا وغادروا الحياة .

الثاني : أقوال الناس الأحياء ، ومن فضل الله تذكيرهم بوجوب التوبة والإنابة وتعاهدهم ومواظبتهم على ما فعلوه من الصالحات .

الثالث : ما ستقوله الأجيال القادمة من البشر .

الثانية : تفقه المسلمين في المعارف الإلهية .

ومن إعجاز القرآن إرتقاء المسلمين والناس بنزول آيات القرآن في صيغ المعاملة وسبل الرشد، وهو من أسرار تلاوة المسلمين القرآن في الصلاة استحضارهم أحوال الناس والجهاد بالكلمة والموعظة .

ولو استعمل السيف لتغيير المفاهيم العامة للناس هل يتم الإصلاح والإصلاح مثل الذي يترتب على نزول الآية القرآنية ، الجواب ولا معشار ، وهو من الإعجاز الذاتي والغيري للقرآن.

الثالثة : توالي نزول آيات القرآن التي تعضد آية البحث ، وكل آية تكون مدداً للمسلمين في الثبات في منازل الإيمان .

ومن إعجاز القرآن أن الله سمع قول الجاحدين ثم تفضل وأنزل القرآن بما سمع من القول وهل يختص نزول القرآن بخصوص ذم القول القبيح ، أم يشمل القول الحسن أيضاً .

الجواب هو الثاني ، من جهات :

الأولى : ذات تلاوة القرآن كلام حسن ، قال تعالى ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ

الْحَدِيثِ كَلَامًا مُّشَابِهًا مَّثَانِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدًى لِّلَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضِلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِن هَادٍ﴾^(١).

الثانية : الثناء في القرآن على العمل الحسن ، والجامع للفعل والقول

كما في قوله تعالى ﴿لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا إِذَا مَا اتَّقَوْا وَآمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ثُمَّ اتَّقَوْا وَآمَنُوا ثُمَّ اتَّقَوْا وَأَحْسَنُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾^(٢).

(١) سورة الزمر ٢٣.

(٢) سورة المائدة ٩٣.

الثالثة : لغة الحوار والجدال والاحتجاج لقوله تعالى ﴿وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾^(١)، وهل ينفع هذا الحسن في إصلاح الطرف الآخر في صيغة جداله والمنع من العنف والإرهاب .

الجواب نعم ، وهو من إعجاز القرآن باصلاح عام لصيغ التفاهم والتعامل من جهات :

الأولى : بين المسلمين أنفسهم.

الثانية : بين المسلمين وأهل الكتاب ، قال تعالى ﴿وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةَ لِلَّذِينَ آمَنُوا الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَسَبَاسِينَ وَرُحْبَانَا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾^(٢).

الثالثة : بين أهل الكتاب أنفسهم.

الرابعة : بين المسلمين وعامة الناس ، قال تعالى ﴿وَقُولُوا لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾^(٣)، لإفادة الألف واللام في (الناس) الجنس ، وفيه منع للغزو والحروب والقتال بين المسلمين وغيرهم لقاعدة عدم اجتماع المتضادين فالقول الحسن باعث للألفة وبرزخ دون القتال بينهما ، قال تعالى ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ﴾^(٤).

الخامسة : صبغة الحسن والود في لغة الخطاب بين الناس جميعاً ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(٥).

(١) سورة النحل ١٢٥.

(٢) سورة المائدة ٨٢.

(٣) سورة البقرة ٨٣.

(٤) سورة النحل ١٢٥.

(٥) سورة الأنبياء ١٠٧.

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَزَنَّا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَيْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾^(١)، ولما ذكرت آية البحث صفة السمع لله عز وجل ، فانه سبحانه ذكر شواهد عديدة لسمعه تعالى للأقوال ، ومقدمات الوقائع ونتائجها.

لقد ذكرت آية البحث مادة ﴿قال﴾ أربع مرات وهي :

الأولى : لقد سمع الله قول.

الثانية : الذين قالوا.

الثالثة : سنكتب ما قالوا .

الرابعة : ونقول ذوقوا.

لقد تكرر ذكر قول الجاحدين ثلاث مرات ثم جاء قول الله عز وجل ﴿وَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ لينسخ أقوالهم في الدنيا والآخرة ، ويجعله عبأ عليهم ذا وطأة وثقل ، فهم لم يكتفوا بالبخل بالحقوق الشرعية الذي ذكرته بصيغة الذم الآية السابقة والتي أخبرت عن عقوبة هذا البخل بتطويق عنق صاحبه به يوم القيامة.

أما الجمع بين هذا البخل والإفتراء والتعدي على مقام الربوبية بما يخالف العقل والواقع فان عقوبته العذاب بالنار ، لما فيه من الإصرار على المعصية ، والإسترسال بالجحود والصدود عن الأوامر الإلهية ، ونسيان الكافرين الدار الآخرة والوقوف بين يدي الله للحساب ، قال تعالى ﴿بَلَىٰ مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ﴾^(٢).

ولم تقل الآية (وقلت ذوقوا) إنما جاءت بصيغة الجمع لبيان عظيم سلطان الله وتجلي المصداق العملي لغناه سبحانه وفقر الجاحدين .

(١) سورة النحل ٨٩.

(٢) سورة البقرة ٨١.

التقوى ميراث

يكون كل من الإيمان والتقوى اللذين تذكرهما آية السياق ميراثاً كريماً للأبناء من داخل الأسرة ، فيتعاهد ويحفظ الله الأبناء ، وهذا الحفظ من مصاديق ما ورد في الآية السابقة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) فهو يرث الناس وأموالهم .

وهل يرزق الله عز وجل الناس من هذا الميراث أم أن القدر المتيقن من الميراث عودته الى الله من غير رجوع إلى الناس أو غيرهم ، المختار أن الآية أعم منه ، فالأصل هو عودة الميراث إلى الله عز وجل إلا أنه لا يمنع من حيازة الناس لبعض أفرادهم بفضل الله ، فتداول الناس الأموال والعقارات والبساتين لا يتعارض مع ملك وميراث الله سبحانه للسموات والأرض .

والله عز وجل هو الوارث أي يرث الأرض وما عليها ، لينفرد الله عز وجل بخصوصية وهي أنه المالك والوارث فليس من أحد يكون هو المالك والوارث إنما يكون الملك والرئيس والغني مالكا ثم يصبح مورثاً يرثه غيره ، أو أن الإنسان يتلقى الإرث فيتملكه ثم يغادر الدنيا قهراً ليرثه وماله غيره ، وحتى الاسم .

فصحيح أن الاسم غير المسمى كما هو المشهور والمختار، فان اسم الشخص بعد أن كان التبادر يدل على حضوره وحياته ، وينادي باسمه ، وهو يقوم بالنداء ويجري معاملات البيع والشراء والإجارة وغيرها . فانه يصبح لا يذكر إلا كأب أو جد للذي يزاول المعاملة ، فبعد أن كان يقال : جاء زيد ، ذهب زيد ، يقال : جاء ابن زيد أو تزوج فلان بنت زيد وزيد في القبر يرجو رحمة الله ، ويتطلع إلى من يزوره من الأحياء ، ومن

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

يتصدق عليه بالإستغفار له ، وأسباب الثواب له ، ويرجو عمله لتتجلى منافع دفع الزكاة في القبر ، أما الذي يحجبها عن أهلها ويقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ﴾ فإن الله عز وجل يريه كيف يتقاسم الورثة أمواله لتملاً الحسرة والندامة نفسه .

ومن الفارق بين الحياة الدنيا والآخرة أن الحسرة والندامة التي تترتب على الخطأ والمعصية ، يمكن تداركها بالإستغفار ، وبالعمل الصالح أما في الآخرة فلا سبيل إلى التدارك لذا فمن مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) نزول آية البحث لترغيب الناس بدفع الزكاة والتعاون والمناجاة في دفعها ، وبيان شرائطها ، والثناء على الذين يقومون بأدائها ، ودعاء المرجع والعالم والفقير الذي يقبض الزكاة والخمس لصاحبه . وكذا بالنسبة للفرائض فاذا قام العبد بدفع الزكاة يقال أدى فلان الواجب ويأتيه الأجر العظيم ، أما إذ حبسها وتركها تركة لابنه فان اخراج الابن الزكاة والحقوق الشرعية نال الثواب ، وكان له المهنا وعلى المورث الممتنع الوزر .

وفي حديث عبد الله بن مسعود اذا دعا صاحب الربا انساناً وأكل طعامه قال (لك المهناً وعليه الوزر)^(٢) أي ان الحساب والمؤاخذه على المربي وكأن الضيف يأكل من رأس المال إلى جانب عمومات الضيافة وآدابها واستحبابها .

تري لماذا ورد قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(٣) ثم جاءت آية البحث التي تتضمن ذم الذين يمتنعون عن دفع الزكاة ويقرنون هذا الإمتناع

(١) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٢) ابن الأثير / النهاية في غريب الحديث والأثر ٢٠٣/٥.

(٣) سورة آل عمران ١٨١.

بظلم آخر لأنفسهم إذ يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ الجواب من جهات :

الأولى : مواساة المؤمنين لسماعهم قبيح القول من الجاحدين .
الثانية : بعث السكينة في نفوس الفقراء لإفادة الجمع بين الآيتين بأن الأغنياء سواء دفعوا الزكاة أم لم يدفعوها فإن ميراث السموات والأرض لله عز وجل وحده ، إنما ينفع الأغنياء أنفسهم التقيد بأداء الفرائض العبادية وإخراج حق الله من أموالهم .
ومن وجوه تقدير الآية : يا أيها الناس لله ميراث السموات والأرض فاخرجوا زكاتكم طاعة لله ورسوله ، قال تعالى ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

الثالثة : لله ميراث السموات والأرض وفيه نجاة لكم من عذاب الحريق ، ففضل الله عز وجل وأخبر عن هذا القانون لبعث الناس على دفع الزكاة ، وعلى الشكر لله عز وجل على نعمة دفعها .
الرابعة : من معاني ميراث السموات والأرض خلق الله عز وجل الجنة جزاء للصلحين وخلق النار عقاباً للكافرين ومنهم الذين ﴿قَالُوا إِنْ

اللَّهُ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢).

والفقر كالداء وهو مناسبة لفراغ الذهن من الإنشغال بجمع وحياسة الأموال وإدخارها ، والهَم بالبخل بها ، ولقد كان المسلمون الأوائل فقراء

(١) سورة آل عمران ١٣٢.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

في الجملة ، ويدل عليه نعتهم بالذل في قوله تعالى ﴿تَخَافُونَ أَنْ يَخَطِفَكُمْ النَّاسُ فَأَوَّكُمْ وَيَأْذِنُكُمْ بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(١).
ولابأس في إجراء إحصائية للمسلمين الأوائل من جهة حال الغنى والفقر ليتجلى قانون من وجوه :

الأول : أكثر المسلمين الأوائل فقراء ومستضعفون ، وكان عدد منهم عبيدا .

الثاني : ابتداء الإسلام ضعيفاً ، وفي حال فقر ، مما يدل على أن الغنى ليس طريق تحقيق الأمانى الخاصة والعامة وقد يكون حاجزاً وبرزخاً دون الإيمان والهدى ، لذا فإن تقسيم الناس إلى أغنياء وفقراء رحمة من الله عز وجل وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) ، بأن الله سبحانه استجاب لمناشدة الملائكة للمنع من كثرة الفساد في الأرض ومن غلبته ، ومن كثرة سفك الدماء فكان كيد الكافرين ضعيفاً واهناً .

الثالث : بيان معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وهي أن أغلب أصحابه فقراء .

وليس عند النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أموال ينفق عليهم ، ومع هذا نصره الله عز وجل على الذين كفروا بجيوشهم وخيلهم وخيلائهم .

(١) سورة الأنفال ٢٦ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

ويتجلى في علم المقارنة بين جيش المسلمين وجيش المشركين فمثلاً كآلاتي :

اسم المعركة	تاريخ المعركة	عدد المسلمين	خيـل المسلمين	الدروع	عدد المشركين	خيـل المشركين	الدروع
معركة بدر		٣١٣ ^(١)	٢	لبس النبي(ص) (درعه ذات الفضول	١٠٠٠	١٠٠ وقيل ٢٠٠	٦٠٠
معركة أحد		٧٠٠	٢	١٠٠	٣٠٠٠	٢٠٠	٧٠٠
معركة الخندق		٣٠٠٠ ^(٢)			١٠٠٠٠	٣٠٠ مع ١٤٠٠ بعير	
معركة حنين		١٢٠٠٠			٣٠٠٠٠		

(١) أنظر الجزء الحادي والستين بعد المائة من هذا السفر ص ٢٥٤ جدول معارك وسرايا أيام النبوة.

(٢) أنظر الجزء الحادي والستين بعد المائة من هذا السفر ص ٢٥٨ ، وقيل كان عددهم ٩٠٠.

وكانت نتائج هذه المعارك كالآتي :

المعركة الأولى : إنتصار المسلمين في معركة بدر مع أنهم كانوا في حال دفاع ، ولم يخرجوا بقصد القتال ، وقد توجه النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المعركة وليس معه سيف ، وتم توثيق المعركة توثيقاً سماوياً بما يمنع من التحريف والتبديل والتغيير إذ قال تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١).

كما بين القرآن موضوعية دعاء النبي وأصحابه واستجابة الله عز وجل لهم بقوله تعالى ﴿إِذِ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَبَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِالْفِئَةِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ﴾^(٢).

ومن صفات النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه لا يبدأ قتالاً ، ولا يسعى إليه ، أما تحقيق المسلمين النصر فقد أخبرت الآية بأنه معجزة وبمشيئة من عند الله عز وجل .

وتدل الآية أعلاه على حاجة الناس للتقسيم إلى أغنياء وفقراء للإنشغال بالذات وإجتناّب القتال ، فإن قلت قد يسخر الأغنياء الفقراء لقتال عدوهم .

الجواب هذا صحيح ، لذا جاءت آية البحث والسياق باعثاً على الإنفاق على الفقراء وإخراج الحقوق الشرعية والذي يدل بالدلالة التضمنية على قانون وهو أن تسخير الأموال في إعانة الفقراء وتعظيم شعائر الله برزخ دون جعلها مادة ومقدمة لإشعال الحروب والفتن ليكون من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣) في الرد والإحتجاج

(١) سورة آل عمران ١٢٣.

(٢) سورة الأنفال ٩.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

على الملائكة أن الإنفاق في سبيل الله وإعانة الفقراء في حياتهم اليومية واقية في القتال ومن تسخير الفقراء في المعارك والقتال إذ يقول الله عز وجل للأغنياء أعينوا الفقراء والسائلين بالصدقات وأحسنوا إليهم ، ليدل بالدلالة الإلزامية على الزجر عن تسخير الفقراء في القتال والغزو والهجوم .

ولقد كانت سنة النبي صلى الله عليه وآله وسلم في أصحابه شاهداً على إكرام الفقراء بلحاظ الإيمان لقوله تعالى ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾^(١) ، ولم يشترط الفقراء المسلمون على النبي شيئاً في إيمانهم ، وصلتهم اليومية مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ولم يطلبوا الأموال والتخلص من حال الفقر شرطاً لدخولهم الإسلام ، بينما اشترط الأغنياء من قريش ليدخلوا الإسلام أن لا يجالس النبي فقراء المسلمين عند حضورهم فنزل القرآن في الحال لبيان قانون سماوي في منهاج النبوة ، وأن القرب عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بلحاظ الإيمان والتقوى ، وليس المال والغنى .

(عن السُّدِّي، عن أبي سعيد الأزدي وكان قارئ الأزد -عن أبي الكنود، عن خباب في قول الله، عزَّ وجلَّ ﴿وَلَا تَطْرُدِ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ﴾^(٢)، قال : جاء الأقرع بن حابس التميمي وعيينة بن حصن الفزاري، فوجدوا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مع صهيب وبلال وعمار وخباب قاعداً في ناس من الضعفاء من المؤمنين فلما رأوهم حول النبي صلى الله عليه وآله وسلم حقروهم، فأتوه فخلوا به، وقالوا: إنا نريد أن تجعل لنا منك مجلساً تعرف لنا به العرب فضلنا، فإن وفود العرب

(١) سورة الحجرات ١٣.

(٢) سورة الأنعام ٥٢.

تأتيك فنستحيي أن ترانا العرب مع هذه الأعبد، فإذا نحن جئناك فأقمهم عنا، فإذا نحن فرغنا فاقعد معهم إن شئت.

قال : نعم ، قالوا : فاكذب لنا عليك كتابا، قال: فدعا بالصحيفة ودعا علياً ليكتب، ونحن قعود في ناحية، فنزل جبريل فقال ﴿وَلَا تَطْرُدُ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُمْ بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ مَا عَلَيْكَ مِنْ حِسَابِهِمْ مِنْ شَيْءٍ وَمَا مِنْ حِسَابِكَ عَلَيْهِمْ مِنْ شَيْءٍ فَتَطْرُدَهُمْ فَتَكُونَ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾^(١)، فرمى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالصحيفة، ثم ثم دعانا فأتيناه^(٢).

ولو كان كل الناس أغنياء فهل هناك مورد يختبر به الناس في باب الإنفاق في سبيل الله ويمتنع قوم عنه ، الجواب نعم لعدم إحصار الإنفاق ودفع الحقوق الشرعية بالتسليم للفقراء ، فمن قوانين الإرادة التكوينية ترتب الزكاة ودفع الحقوق الشرعية على حال الغنى والسعة في المال ، ويقيض الله عز وجل موارد للإنفاق بذات الحال والأسباب في لزوم الدفع والإنفاق فيها .

وقد جعل الله عز وجل الغنى والعز بالإيمان ، قال تعالى ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾^(٣)، فتأتي معه القناعة والزهد والرضا بما قسم الله سبحانه مع صبغة التعاون والتعااضد بين المؤمنين ، وعن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال : الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضاً ،

(١) سورة الأنعام ٥٢.

(٢) تفسير ابن كثير ٣/٢٦٠.

(٣) سورة المنافقون ٨.

وَرَوَى عَنْهُ أَنَّهُ قَالَ : الْمُؤْمِنُونَ كَعُضْوٍ وَاحِدٍ إِذَا اشْتَكَى عُضْوٌ تَدَاعَى سَائِرُ الْأَعْضَاءِ إِلَى الْحُمَى وَالسَّهْرِ^(١).

ومع نصر المسلمين في معركة بدر جاءتهم الغنائم يوم المعركة إذ إنهم المشركون وتركوا امتعتهم وأزوادهم وعدداً من إبلهم ، إلى جانب إبل وخيل سبعين قتيلاً يومئذ ، والإبل التي احضروها للإطعام والمؤونة وكانوا يذبحون في كل يوم تسعة أو عشرة من الإبل .

ولابد أنهم كانوا قد أعدوا لمدة إقامتهم في بدر ولطريق العودة وكانت أول المعارك التي خرج إليها مشركوا قريش لقتال النبي صلى الله عليه وآله وسلم وظنوها نوع نزهة وجاءتهم في طريقهم إلى معركة بدر رسالة من رئيس القافلة أبي سفيان يخبرهم بنجاتها ، وإحراز العير ، وطلب منهم الرجوع إلى مكة .

ولكن أبا جعل أبى وعى وسعى إلى اقناع الجيش بالزحف إلى الأمام لوجوه :

الأول : ورود موضع بدر وهو معروف عند العرب إذ كانوا يتخذونه سوقاً في موسم مخصوص ، وعادة أن موضع السوق الذي على طريق القوافل لا يهجر من الناس ، بل تبقى بعض البيوت على الماء الذي فيه يعتاشون بالزراعة المحدودة وبالرعي والكسب من البيع على القوافل والمسافرين الذين يمرون عليه ، وتنمية الصلات معهم .

الثاني : الإقامة في موضع بدر ثلاثة أيام للتحدي.

الثالث : نحر الإبل في موضع بدر ، والأكل والشبع منها.

الرابع : إطعام الذين على الماء والمسافرين الذين يتفق مرورهم على الماء في تلك الأيام ، لبيان كرم المشركين.

الخامس : سقي الخمر^(١).

السادس : استعمال آلات الطرب والغناء وكانوا قد أحضروا معهم الجوارى ، وعن ابن اسحاق (وَلَمَّا رَأَى أَبُو سُفْيَانَ أَنَّهُ قَدْ أَحْرَزَ عَلَيْهِ أَرْسَلَ إِلَى قُرَيْشٍ : إِنَّكُمْ إِنَّمَا خَرَجْتُمْ لَتَمْنَعُوا عِيرَكُمْ وَرِجَالَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ فَقَدْ نَجَّاهَا اللَّهُ فَارْجِعُوا .

فَقَالَ أَبُو جَهْلٍ بْنُ هِشَامٍ وَاللَّهِ لَا نَرْجِعُ حَتَّى نَرِدَ بَدْرًا ، وَكَانَ بَدْرٌ مَوْسِمًا مِنْ مَوَاسِمِ الْعَرَبِ ، يَجْتَمِعُ لَهُمْ بِهِ شَوْقُ كُلِّ عَامٍ ، فَتَقِيمُ عَلَيْهِ ثَلَاثًا ، فَتَنْحَرُ الْجَزْرُ وَتُطْعِمُ الطَّعَامَ وَتُسْقِي الْخَمْرَ وَتَعْرِفُ عَلَيْنَا الْقِيَانُ^(١) وَتَسْمَعُ بِنَا الْعَرَبِ وَبِمَسِيرِنَا وَجَمْعِنَا ، فَلَا يَزَالُونَ يَهَابُونَنَا أَبَدًا بَعْدَهَا ، فَاْمْضُوا^(٢) .

السابع : سماع القبائل وأهل المدن العربية بمسير قريش ، واستعدادهم للقتال ، فتهايبهم .

الثامن : شهر عزائم الكفار ، وإرادة منع الناس من النبي صلى الله عليه وآله وسلم وترك عبادة الأوثان .

التاسع : توجيه الإنذار للناس لمنعهم من دخول الإسلام .

العاشر : تأمين طرق قوافل قريش ، بيعت الخوف في قلوب الناس من بطشهم ، ولم يعلموا أن الناس يدركون بأن قريشاً خرجت من مكة وتوجهت إلى بدر لإمتلاء قلوبها بالخوف من الإسلام ، وتوالي دخول الناس فيه ، واستعدادهم للهجرة والتضحية .

فان قلت إن الأنصار لم يهاجروا فهل أخافوا قريشاً ، الجواب نعم ، لإنهم أظهروا النصر للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم والدفاع والذب عنه ، فلئن بايعه في بيعة العقبة الثانية اثنان وسبعون من الأنصار

(١) الإكتفاء بما تضمنه من مغازي رسول الله ١٦/٢ .

(٢) القيان : جمع قينة ، وهي الأمة سواء كانت مغنية أو غير مغنية ، ليأتي الإسلام فيكرم المرأة حرة كانت أو أمة ، ويحرم هذا الغناء والاستعباد والذل .

(٣) الروض الأنف ٦١/٣ .

فان الأوس والخزرج كلهم صاروا جنوداً ودروعاً للنبي صلى الله عليه وآله وسلم عند وصوله يثرب ، وهو من المعجزات الحسية للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم فلا غرابة أن يبدل اسمها إلى المدينة وطية.

تقدير لقد نصركم الله ببدر

لقد وصل رسول أبي سفيان لجيش قريش يحمل خبر نجاة القافلة التي كانت تتألف من ألف بعير محملة بالذهب والفضة والبضائع ويطلب منهم العودة إلى مكة لإنتفاء الغاية والغرض الذي خرجوا من أجله ولكنهم لم يعودوا وأصر أبو جهل وهو عمرو بن هشام على أن يمضوا إلى موضع بدر الذي كان سوقاً تلتقي فيه العرب في موسم معلوم ، ليكون فيه خزيهم إلى يوم القيامة ليكون من معاني وتقدير قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ﴾^(١) ، وجوه :

- الأول : ولقد نصركم الله ببدر ليزل الله الطواغيت.
- الثاني : ولقد نصركم الله ببدر ليخزي الذي يعبدون الأوثان.
- الثالث : ولقد نصركم الله ببدر لتشرق مبادئ الإيمان على الأرض.
- الرابع : ولقد نصركم الله ببدر لإصرار الذين كفروا على القتال.
- الخامس : ولقد نصركم الله ببدر أول معركة للإسلام ، ولا يعلم منافع النصر في أول معركة إلا الله عز وجل.
- السادس : ولقد نصركم الله ببدر لأنكم لم ترغبوا بالقتال ، ولم تسعوا إليه .

السابع : ولقد نصركم الله ببدر لأن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم معكم وهو القائد والإمام ، وفي التنزيل ﴿وَأَعْلَمُوا أَنَّمَا فِيكُمْ رَسُولَ اللَّهِ﴾^(١).

الثامن : ولقد نصركم الله ببدر ليمتنع الذين كفروا عن تجهيز الجيوش لقتالكم.

التاسع : ولقد نصركم الله ببدر لتميل القلوب إلى النبوة والتنزيل ، قال تعالى ﴿فَاجْعَلْ أَفْتِدَاءَ مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ﴾^(٢).

العاشر : ولقد نصركم الله ببدر ويطش بالذين أرادوا قتل النبي محمد وقتلكم ، قال تعالى ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾^(٣) ، ومن الإعجاز في الآية أعلاه عدم طلب الكفار الثأر لقتلهم في معارك الإسلام ، خلافاً لنواميس الثأر في الجزيرة ، والعار الذي يلحق الذي يتخلفون عن أخذ ثأرهم ، إنما سارع الناس للإسلام ، وصاروا يشكرون الله عز وجل بأن نجاهم الله عز وجل من القتل على الكفر ومن البقاء على الكفر.

الحادي عشر : ولقد نصركم الله ببدر لطلب الذين كفروا الفتنه العامة.

الثاني عشر : ولقد نصركم الله ببدر وهي خير مما تمنون من الاستيلاء على القافلة ونحوه قال تعالى ﴿وَيُودُّونَ أَنْ غَيْرَ ذَاتِ الشُّوْكَ تَكُونَ لَكُمْ

(١) سورة الحجرات ٧.

(٢) سورة ابراهيم ٣٧.

(٣) سورة الأنفال ١٧.

وَيُرِيدُ اللَّهُ أَنْ يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿١﴾ ، وقد تقدم الكلام بأن المراد من غير ذات الشوكة أعم من أن يختص بقافلة أبي سفيان .

الثالث عشر : ولقد نصركم الله بيدر لإجتهادكم بالدعاء وسؤالكم النصر بينما يستغيث الذين كفروا بالأوثان.

ومع غنائم معركة بدر جاءت للمسلمين أموال من فكاك أسرى المشركين ، وكان عددهم سبعين ، نعم أطلق النبي صلى الله عليه وآله وسلم عدداً منهم دون بدل ، كما أمر الذين يقرأون ويكتبون بقيام كل واحد منهم بتعليم عشرة من صبيان الأنصار ، ويكون هذا التعليم عوضاً وبدلاً في فكاك رقابهم في آية تدل على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم تدل على أنه لم يطلب المال ، ولا ينتقم من عدوه إنما يريد نشر العلم والتفقه في الدين.

وسياتي التفصيل في الجزء الثاني والتسعون بعد المائة في قانون التدريس عوض للأسرى.

في معجزة لم يشهد لها التاريخ مثيلاً في ذاتها ومنافعها ودلائلها . وهل بلغ المسلمون بالغنائم في معركة بدر حال الغنى الجواب لا ، إنما بدأت معالم نجاتهم من حال الفقر والذل الذي ورد في قوله تعالى ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَآتَمَّ أَذْلَهُ﴾ (٢).

ولم يرد لفظ (أذلة) في وصف المسلمين إلا بعد أن زالت عنهم بالنصر في معركة بدر ، لبيان فضل الله على المسلمين وهناك فرق بين أن تقول : أنتم أذلة ، وبين أن يأتي الفضل العظيم ثم تقول : كنتم أذلة وإفادة الآية معنى إنقطاع الذلة والفقر عن المسلمين إلى يوم القيامة .

(١) سورة الأنفال ٧.

(٢) سورة آل عمران ١٢٣.

فمن معاني قوله تعالى ﴿وَأَتِمُّوا ذِلَّةَ﴾ الوعد من الله عز وجل بزوال حال الضعف والفقر عنهم ، فيكون النصر في معركة بدر بداية لإنحسار حال الذلة والضعف والنقص في العدد والعدة والمؤون بأشراق الإيمان ، وحسن السمات ، والإخلاص في طاعة الله ، وملاقاة المشركين يوم بدر بقلوب مطمئنة بوجوب الدفاع عن النبوة والتنزيل.

لقد كانت نتيجة معركة بدر معجزة للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم ، وشاهداً على حسن إمتثال المهاجرين والأنصار لأوامر الله عز وجل لتجدد هذه الثمرات والمنافع كل عام إلى يوم القيامة بما فيه الهداية والصلاح ونبذ الحروب والإقتتال ، وهذا النصر من مصاديق الفوز في قوله تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً﴾^(١). وهو من مقدمات فرض الزكاة على المسلمين ، إذ جعل الله بعضهم قادرين على الزكاة والإنفاق في سبيل الله .

لفظ الناس وآية البحث والسياق

لقد ورد لفظ (الناس) في القرآن ٢٤١ مرة ، وفي كل مرة يرد فيها هذا اللفظ له دلالات عقائدية سواء كانت الألف واللام فيه للجنس أو العهد ، كما أن الجمع بين كل اثنين منها له دلالات خاصة ، والآيات التي ورد فيها لفظ (الناس) مرتين هي :

الأولى : قوله تعالى ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعِ

الرَّسُولِ مِمَّنْ يَنْقَلِبُ عَلَى عَقْبَيْهِ ؕ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَحِيمٌ ﴿١﴾.

الثانية : قوله تعالى ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ فِي مَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴿٢﴾.

الثالثة : قوله تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٣﴾.

الرابعة : سورة آل عمران قوله تعالى ﴿الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿٤﴾.

الخامسة : سورة المائدة قوله تعالى ﴿مَنْ أَجَلْ ذَلِكَ كَتَبْنَا عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ أَنَّهُ مَنْ قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِنْهُمْ بَعْدَ ذَلِكَ فِي الْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٥﴾.

(١) سورة البقرة ١٤٣.

(٢) سورة البقرة ٢١٣.

(٣) سورة البقرة ٢٤٣.

(٤) سورة آل عمران ١٧٣.

(٥) سورة المائدة ٣٢.

السادسة : سورة سبأ قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾^(١).

السابعة : سورة غافر قوله تعالى ﴿اللَّهُ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ اللَّيْلَ لِتَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ﴾^(٢).

الثامنة : سورة الحديد قوله تعالى ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنْزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنْفَعٌ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَنْ يَنْصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾^(٣).

كما ورد لفظ (الناس) في سورة الناس ٥ مرات مع قلة كلماتها وعدد آياتها وهي آخر السور في ترتيب ونظم القرآن وليختتم القرآن بلفظ الناس قال تعالى ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ * مَلِكِ النَّاسِ * إِلَهِ النَّاسِ * مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ * الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ * مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾^(٤) ، ولم يرد لفظ ﴿رَبِّ النَّاسِ﴾ إلا في الآية أعلاه.

ومن خصائص خطابات التكليف توجهها إلى الناس جميعاً ، من جهات :

الأولى : صيغة الأمر كما في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾^(٥).

(١) سورة سبأ ٢٨.

(٢) سورة غافر ٦١.

(٣) سورة الحديد ٢٥.

(٤) سورة الناس ٦.

(٥) سورة البقرة ٢١.

الثانية : مجئ التكليف بصيغة الجملة الخبرية ، كما في قوله تعالى ﴿وَلِلَّهِ

عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾^(١).

الثالثة : الثناء والمدح للمؤمنين الذين يؤدون الواجب العبادي ، قال

تعالى ﴿وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾^(٢).

وقال تعالى ﴿وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ

بِالْمَعْرُوفِ﴾^(٣) ، ومن العفة في المقام الإمتناع عن البخل بدفع الزكاة ، وعن التعدي في القول والفعل عند تلقي الأمر بدفعها ، وهل استلام الفقير للزكاة من الأكل بالمعروف .

الجواب نعم ، إذا كان بمقدار حاجته ومن غير اسراف ، وتقدير آية

السياق بصيغة العموم :

الأول : يا أيها الناس لا تحسبوا الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله

هو خيراً لهم.

الثاني : يا أيها الناس لا تبخلوا بما آتاكم الله من فضله.

الثالث : يا أيها الناس لا تتبعوا الذين ييخلون بما آتاهم الله من فضله.

الرابع : يا أيها الناس البخل ومنع الزكاة شر لصاحبه.

الخامس : يا أيها الناس ستطوق عنق الذي ييخل بما آتاه الله في الدنيا

بافعى يوم القيامة.

السادس : والله بما تعملون يا أيها الناس خبير .

(١) سورة آل عمران ٩٧.

(٢) سورة النساء ٦٩.

(٣) سورة النساء ٦.

أما تقدير لغة العموم بالنسبة لآية البحث فهو على وجوه :
الأول : يا أيها الناس قد سمع الله قول الذين قالوا ان الله فقير.
الثاني : يا أيها الناس قد سمع الله أقوال أبائكم وأمهاكم فاستغفروا
لهم ، وهذا الإستغفار برّ بهم ، ولو تخلف الأب عن دفع الزكاة حتى غادر
الدنيا فهل يصح دفع الزكاة نيابة عنه ، أم لا يميزه الجواب هو الأول ،
فان قيل ورد في التنزيل ﴿لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى﴾^(١) ، والجواب من
جهات :

الأولى : عمل الابن والبنت وبرهما بوالديهما من رشحات عمل
الوالدين لموضوعية الأصل في وجود الفرع.
الثانية : تعلق الزكاة والخمس في عين المال.
الثالثة : جواز التبرع عن الحي أو الميت في العبادات المالية.
الثالث : يا أيها الناس أشهدوا على الذين يقولون ان الله فقير ونحن
أغنياء .
الرابع : يا أيها الناس يكتب الله ما تقولون ، فاحرصوا على أن يكون
قولكم خيراً .
الخامس : يا أيها الناس سوف يذيق الله الذين قالوا انه فقير عذاب
الحريق .

صلاة النبي في البيت

لقد أراد كفار قريش ألا يبقى من البيت الحرام إلا رسمه ، وكان النبي
صلى الله عليه وآله وسلم يؤدي الصلاة قربة إلى الله عز وجل خمس
مرات في اليوم ليكون من معاني قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ تَكُنْ عَنُ

الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ»^(١) أداء النبي صلى الله عليه وآله وسلم والمسلمين الصلاة في البيت وخارجه إزاحة للأوثان التي في البيت والبيوت ، وهو من الإعجاز في نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم من جهات :

الأولى : تشريع الصلاة مع إبتداء الوحي والبعثة النبوية .

الثانية : إسلام خديجة زوج النبي وإسلام الإمام علي في اليوم الثاني للبعثة النبوية .

الثالثة : أداء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم وخديجة والإمام علي عليه السلام الصلاة اليومية في المسجد الحرام بمراً ومسمع من كفار قريش ووفود الحاج والمعتبرين لذا لاقى النبي صلى الله عليه وآله وسلم أشد الأذى من قريش حتى وهو ساجد لله عز وجل .

(عن عبد الله بن مسعود قال: ما رأيت رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم دعا على قريش غير يوم واحد، فإنه كان يصلي ورهط من قريش جلوس، وسلا جزور قريب منه.

فقالوا: من يأخذنا هذا السلا فيلقيه على ظهره ؟ فقال عقبة بن أبي معيط: أنا.

فأخذه فألقاه على ظهره.

فلم يزل ساجدا حتى جاءت فاطمة فأخذته عن ظهره.

فقال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم: " اللهم عليك بهذا الملا من قريش، اللهم عليك بعتبة بن ربيعة، اللهم عليك بشيبة بن ربيعة، اللهم عليك بأبي جهل بن هشام، اللهم عليك بعقبة ابن أبي معيط، اللهم عليك بأبي بن خلف - أو أمية بن خلف - " شعبة الشاك.

قال عبد الله: فلقد رأيتهم قتلوا يوم بدر جميعا، ثم سحبوا إلى القليب غير أبي، أو أمية بن خلف، فإنه كان رجلا ضخما فتقطع^(٢).

الرابعة : صيرورة الصلاة علامة الإيمان ، وعنوان التحدي للمشركين .
الخامسة : من خصائص الصلاة بعث النفرة في النفوس من عبادة الأوثان ، وهو من مصاديق نهيتها عن الفحشاء والمنكر .

ولم يكتفوا بعدم الرضا هذا بل جهزوا الجيوش لإيقاف نزول القرآن على النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم الذي كانت آياته تنزل على التوالي ، ومنها ما تكون حسب الوقائع ، ولم يعلموا أن من أسرار نزول القرآن نجوماً وعلى نحو التابع والتوالي حفظ الله عز وجل للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل والأسر والتشريد حتى يتم نزول آيات القرآن كلها ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ﴾ (٢) .

وهل سلامة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من القتل من مصاديق تمام النعمة وكمال الدين في قوله تعالى ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ (٣) .

الجواب نعم ، وتكون من معاني الآية أعلاه بحسب هذا اللحاظ وجوه :

الأول : اتممت عليكم نعمتي بسلامة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من القتل أو الموت إلى هذا اليوم .

(١) السيرة النبوية لابن هشام ٤٦٨/١ .

(٢) سورة المائدة ٦٧ .

(٣) سورة المائدة ٣ .

الثاني : أتممت عليكم نعمتي بأن جعلت القرآن ينزل نجوماً وفيه حفظ للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .

الثالث : أتممت عليكم نعمتي بتمام تبليغ النبي صلى الله عليه وآله وسلم أحكام الشريعة وهو لا يتعارض مع سبب نزول الآية وأنها نزلت بخصوص يوم غدیر خم .

قانون الزكاة رحمة عامة

قال تعالى ﴿ إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسْكِينِ وَالْعَامِلِينَ عَلَيْهَا وَالْمُؤَلَّفَةِ قُلُوبُهُمْ وَفِي الرِّقَابِ وَالْغَارِمِينَ وَفِي سَبِيلِ اللَّهِ وَأَبْنِ السَّبِيلِ فَرِيضَةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴾ (١) .

لقد نعت آية السياق الذين يمتنعون عن دفع الزكاة بأنهم بخلاء ، وقد يكونون ممن يطعم الطعام ويكرم الضيف وينفق على نفسه وعياله ، فلا يعلم عنهم الناس علامات البخل والشح ، ولكن حينما نزلت آية السياق صار الناس على علم ومعرفة لقانون وهو أن الذي يدفع الزكاة والخمس والحقوق الشرعية هو الكريم وأن الذي يحبسها هو البخل ، وإن أكرم ضيفه وأوسع على نفسه وعياله ، والبخل صفة مذمومة أما البخل بالحقوق الشرعية ، وعدم الإقرار بالزكاة فهو كفر وجحود .

لقد جاءت الشريعة الإسلامية بقوانين جديدة لأهل الأرض ، فبينما يهّم أفراد القبائل بغزو بعضهم بعضاً ، والترصد لغياب أو غفلة أفراد قبيلة أخرى للإغارة عليها فيقتلون الرجال ويسبون النساء ، لم تتعتهم الآية بأنهم بخلاء ، إنما رمتهم بالبخل بما آتاهم الله من فضله ، وأيهما أشد ، الجواب هو الثاني فالذي ييخل بالحق الشرعي أكثر ظلماً من الشحيح في ماله ، بدليل ان الآية أخبرت بأن يخلهم في فضل الله الذي رزقهم وجعله

عندهم كنوع الأمانة الشرعية ، قال تعالى ﴿إِنَّ اللَّهَ يُؤْمِرُكُمْ أَنْ تَوَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا﴾^(١).

وفي نعتهم بالبخل في آية السياق وجوه :
أولاً : جواز نعت الناس للذي يمتنع عن دفع الحقوق الشرعية بالبخل.

ثانياً : ترغيب الناس بالسؤال عن الزكاة وحد وشرائط وجوبها والنصاب الذي تجب فيه ، ومقدارها قال تعالى ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ * الَّذِينَ هُمْ فِي صَلَاتِهِمْ خَاشِعُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ اللَّغْوِ مُعْرِضُونَ * وَالَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَاةِ فَاعِلُونَ﴾^(٢) وتجب الزكاة في كل من :

الأول : الأنعام الثلاثة : الإبل والبقر والغنم .
الثاني : الغلات الأربعة وهي الحنطة والشعير والتمر والزبيب ، كما أطلق في الزروع ، وتسمى المعشورات أي القوت الذي تجب فيه الزكاة بنسبة العشر أو نصف العشر ، ومنه عروض التجارة أي البضائع المعدة للتجارة .

الثالث : النقدان من الدينار الذهبي والدرهم الفضي وما يعادلها في هذا الزمان ، فتبدل الجنس من ذات الموضوع لا يلغى بحكم الشرعي .
ومن مصاديق اسم ﴿الخبير﴾ كما ورد في خاتمة آية السياق ﴿وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ﴾^(٣) علم الله عز وجل بتلقي دفع مقدار النصاب بالقبول والرضا ، وأنه على قلته يكفي لإعانة الفقراء ، إذ يكون في أكثر موارد (

(١) سورة النساء ٥٨.

(٢) سورة المؤمنون ١-٤.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

٢,٥٪) وهي نسبة قليلة تتعدها الضرائب الحكومية في هذا الزمان بالإضافة إلى أن الغني يقوم بدفع زكاته إلى الفقير يدا بيد ، وما كانوا يدفعونه إلى النبي صلى الله عليه وآله وسلم ييادر إلى توزيعه على الفقراء والمساكين .
ثالثاً : دعوة المسلمين للقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في باب الزكاة والإنفاق في سبيل الله ، والذي يحث على الصدقة ويسعى فيها له من الأجر مثل الذي يدفعها ، إذ ورد عن سهل بن سعد عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال : (العدل على الخير كفاعله) ^(١).

وصحيح أن آية البحث تدم البخل بالحق الشرعي إلا أنها تدعو المسلمين والناس لحثهم على التنزه عن هذا البخل لأن فيه ضرراً عليهم في الدنيا والآخرة ، لذا قال تعالى ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾ ^(٢).

وهل يمكن القول بأن قوله تعالى ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ ^(٣) دعوة للمسلمين لإنقاذ هؤلاء البخلاء من هذا الطريق بترغيبهم بدفع الزكاة والحقوق الشرعية وبذل الوسع لها ، الجواب نعم ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾ ^(٤).

لقد أخبر القرآن عن العذاب الأخروي الذي ينتظر كل من :
الأول : الكفار ، قال تعالى ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُمْ بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِنْ دَارِهِمْ حَتَّى يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ﴾ ^(٥).

(١) المعجم الأوسط ٤٣٠/٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

(٤) سورة المائدة ٢.

(٥) سورة الرعد ٣١.

الثاني : المنافقون ، قال تعالى ﴿بَشِّرِ الْمُنَافِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا﴾^(١).

الثالث : الظالمون ، قال تعالى ﴿يَوْمَ لَا يَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعَذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ

سُوءُ الدَّارِ﴾^(٢).

الرابع : الفاسقون ، قال تعالى ﴿وَلَقَدْ أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ آيَاتٍ بَيِّنَاتٍ وَمَا يَكْفُرُ بِهَا إِلَّا الْفَاسِقُونَ﴾^(٣) وومن مصاديق الفاسق الذي أتى كبيرة فيها إقامة حد في الدنيا أو عليها وعيد في الآخرة ويلحق به الذي يصر على صفائر الذنوب. ومن الإعجاز في هذا الإخبار ندب المسلمين لإنقاذ هؤلاء من العذاب بهدايتهم إلى سبل الإيمان ، لذا جاء ذكرهم بالصفة المتزلزلة من الكفر والنفاق ونحوها ، إذ أن الأصل والفطرة هو الإيمان .

ليكون من خصائص ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى﴾^(٤) بلحاظ المقام أمور :

الأول : تفقه المسلمين في الدين .

الثاني : معرفة قانون من شعبتين :

الأولى : صدق اسم الكريم والتتزه عن البخل على الذي يدفع الزكاة والحقوق الشرعية .

الثانية : نعت الذي يمتنع عن دفع الزكاة بأنه بخيل ، وأن كان كثير الإنفاق في المؤونة والسياحة .

(١) سورة النساء ١٢٨.

(٢) سورة غافر ٥٢.

(٣) سورة البقرة ٩٩.

(٤) سورة المائدة ٢.

الثالث : تفقه المسلمين في الدين ومعرفة أحوال وجزاء الناس يوم القيامة وأن منهم من يطوق بأفعى في عنقه ، مع بيان القرآن لعلة هذا التطويق وهو البخل بالحقوق الشرعية ، والإمتناع عن دفع الزكاة.

الرابع : إتخاذ المسلمين والناس العقاب الأخروي الذي ذكرته آية السياق مادة في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وحث بعضهم بعضاً والناس جميعاً على النجاة منه ، لبيان مسألة وهي عدم إنحصار الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بخصوص أمور الحياة الدنيا إنما يشمل عالم الآخرة وأحوال الناس فيها ، وكيفية نجاتهم من العقاب الأليم حيثئذ بالتدارك والتوبة والإنبابة .

وقد رزق الله عز وجل الإنسان العقل ويدرك معه إن شراء السلامة من التطويق بأفعى يوم القيامة يكون بمبلغ زهيد وهو من فضل الله يومئذ بشكر الفقير لله عز وجل على بقاءه في حال فقر لأنه في سلامة ومنجى من الإمتحان بدفع أو حبس الحقوق الشرعية .

لقد فضح القرآن لما في سرائر الجاحدين من أسباب وتعاقد في الإمتناع عن دفع الحقوق الشرعية ، ومن أسماء يوم القيامة ما ورد في قال تعالى ﴿يَوْمُ تَبْلَى السَّرَائِرُ﴾^(١).

فان قلت إذا كان يوم القيامة هو أوان كشف وفضح السرائر فغل تكشف يومئذ أسرار ونوايا الذين ييخلون بالحقوق الشرعية ، الجواب نعم ومن عمومات الشر الذي تذكره آية السياق بل هو شر لهم ، وأن كان القدر المتيقن من الآية أن البخل بالحقوق الشرعية والحساب عليه من الشر الذي يلقاه الجاحدون.

وجاءت آية البحث وما فيها من الكشف لنجاة الناس من هذا الشر ،
 باجتنب حبس الزكاة والخمس ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ
 إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾^(١) .

فمن رحمة الله عز وجل بالجاحدين والناس جميعاً ، إخباره بأن
 البخل بالحقوق الشرعية شر على أصحابه ، ويكون تقدير ﴿بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ﴾
 على وجوه :

الأول : بل هو شر لهم لما فيه من حجب لوجوه من فضل الله عليهم .

الثاني : بل هو شر لهم في الحياة الدنيا .

الثالث : بل هو شر لهم لما فيه من حبس للحقوق الشرعية .

الرابع : بل هو شر لهم لأن حبس الأغنياء لحق الفقراء عندهم شر
 لذات الأغنياء ، وإذ يختلط الحرام في نفقات معاشهم وفي ثناء اللحم
 والعظم من أبدانهم فكأن الافعى الذي يطوق به الواحد منهم يعرف
 صاحبه برائحة الغضب التي في لحمه وعظمه ليكون من معاني يوم القيامة
 أن الذي يحرص على أن يكون طعامه وشرابه من حلال يفوح بالعطر
 الطيب منه .

أما الذي يخل بالحقوق الشرعية ويخلطها مع ماله فتفوح رائحة
 كريهة خاصة يستطيع الأنف شمها إلى جانب أمارات وعلامات أخرى
 تفضح صاحبها معها ، فجاءت آية السياق للإخبار بأن هذه الرائحة شر
 لأصحابها ودعوة لتنزيه الناس عموماً منها .

ومن مسائل الرائحة الكريهة لبعض العصاة في الآخرة ما ورد في
 حديث الإسراء عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم ، وفي قوله تعالى
 ﴿سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَى بِعَبْدِهِ لَيْلًا مِّنَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ إِلَى الْمَسْجِدِ

الْأَقْصَى الَّذِي بَارَكْنَا حَوْلَهُ لِنُرِيَهُ مِنْ آيَاتِنَا إِنَّهُ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ^(١)، ورد في حديث الإسراء أن النبي صلى الله عليه وآله وسلم أتى واد فوجد ريحاً طيبة باردة وصوتاً قال : ما هذه الريح الطيبة وما هذا الصوت.
قال : هذا صوت الجنة.

فقال : ربّ أرني بما وعدتني فقد كثر غُرْفِي واستبرقي وحريري وسندسي وعبقري ولؤلؤي ومرجاني وفضتي وذهبي وأكوابي وصحافي وأباريقي وفواكهي وعسلي ولبني وخمري ومائي ، فأتني بما وعدتني.
فقال : لك كل مؤمن ومؤمنة من آمن بي وبرسلي وعمل صالحاً ولم يشرك بي ولم يتخذ من دوني أنداداً .

ومن خشيني فهو آمن ومن سألني أعطيته ومن أقرضني جزيته ومن توكل عليّ كفيته، إني أنا الله لا إله إلا أنا لا أخلف الميعاد ﴿قَدْ أَفْلَحَ الْمُؤْمِنُونَ﴾^(٢)، ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾^(٣).

قال : قد رضيت. قال ثم أتى على واد فسمع صوتاً منكراً ووجد ريحاً منتنة فقال : ما هذا يا جبرئيل.

قال : هذا صوت جهنم تقول : (يا ربّ آتني) ما وعدتني فقد كثرت سلاسلي وأغلالتي وسعيري وحميمي وضريعي وغساقلي وعذابي.
وقد بعد قعري واشتد حريّ إئتني بما وعدتني.

قال : لك كل مشرك ومشركة وكافر وكافرة وكل خبيث وخبيثة وكل جبار لا يؤمن بيوم الحساب.

قالت : قد رضيت يارب^(١).

(١) سورة الإسراء ١.

(٢) سورة المؤمنون ١.

(٣) سورة المؤمنون ١٤.

وقد شَم النبي صلى الله عليه وآله وسلم في الإسراء رائحة طيبة ، إذ ورد (عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لما أسري بي مرت بي رائحة طيبة فقلت : ما هذه الرائحة ؟ فقالوا : هذه رائحة ماشطة ابنة فرعون وأولادها كانت تمشطها فوق المشط من يدها فقالت : بسم الله فقالت ابنته أبي .

فقالت : لا بل ربي وربك ورب أبيك فقالت : أخبر بذلك أبي قالت : نعم ، فأخبرته فدعا بها وبولدها فقالت له : إليك حاجة ؟ فقال : ما هي ؟ قالت تجمع عظامي وعظام ولدي فتدفنه جميعا فقال : ذلك لك علينا من الحق فأتى بأولادها فألقى واحدا واحدا حتى إذا كان آخر ولدها و كان صبيا مرضعا .

فقال : اصبري يا أماء فإنك على الحق ثم ألقيت مع ولدها .
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم أربعة وهم صغار : هذا و شاهد يوسف وصاحب جريج وعيسى ابن مريم عليه السلام^(١) .
الخامس : بل هو شر لهم لما فيه من حجب الخير والبركة والطهارة والنماء الذي يأتي من دفع الزكاة والحقوق الشرعية .

السادس : ومن الآيات أن الذي ييخل بالحقوق الشرعية يكون سريع الإنفعال ، وفي ضيق وكآبة ، وهو من مصاديق الشر الذي تذكره آية البحث ، قال تعالى ﴿ كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللَّهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾^(٢) .

السابع : بل هو شر لهم لعدم استقرار المال عندهم لأن الإمتناع عن دفع حق الفقراء بعد تحقق الوجوب كالغصب .

(١) الكشف والبيان ٤٥١/٧ .

(٢) المستدرک بتعليق الذهبي ٥٣٨/٢ .

(٣) سورة الأنعام ١٢٥ .

الثامن : بل هو شر لهم في المعاملات والمكاسب .

التاسع : بل هو شر لهم لتطويق أعناقهم به يوم القيامة ، وهو الذي

ذكرته آية السياق ﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ﴾^(١) وهو من الدلائل على أن

الأموال تحضر يوم القيامة ، وتشهد على أهلها من جهات :

الأولى : جمع هذه الأموال .

الثانية : كيفية وطرق انفاق الأموال ، قال تعالى ﴿ثُمَّ تَسْأَلُ يَوْمَئِذٍ

عَنِ النَّعِيمِ﴾^(٢).

الثالثة : إخراج الزكاة والحقوق الشرعية من الأموال أو عدمه .

العاشر : البخل بالحقوق الشرعية شر لأصحابه لانهم سبب حرمان

الفقراء من فضل الله الذي جعله في أموالهم فقد حالوا دون شبة جوعة الفقير ، وحجبوا السرور عن الدخول الى أسرته.

الحادي عشر : هو شر لهم لعلم الله عز وجل ببخلهم وشحهم

وتعديهم على حق الفقراء في أموالهم .

الثاني عشر : هو شر لهم لغنى الله والفقراء عن مال الأغنياء ،

فصحيح أنهم حجبوا عن الفقراء رزقهم الذي في أيديهم إلا أنهم لم ولن

يمنعوا ما كتب الله للفقراء من الرزق الكريم ، فما حجب الأغنياء من

الزكاة عن الفقراء يصل إليهم مقداره مع مضاعفته من عند الله ، لذا

ذكرت آية السياق أن الزكاة والنصاب الذي تؤخذ منه كله فضل ورحمة

من الله لقوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٣).

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة التكاثر ٨.

(٣) سورة آل عمران ١٨٠.

قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونِ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَأَعْدَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا﴾^(١) ، ليكون من معاني أمرهم الناس بالبخل هو قولهم (ان الله فقير ونحن أغنياء) فهذا القول مصداق للآية أعلاه ، وفيه حث للناس على البخل.

ومن صفات الله عز وجل أنه ذو الفضل العظيم ، وأن فضله يصل إلى الخلائق كلها ، فما يحجبه الناس عن بعضهم من الفضل يأتيهم من جهة ومورد آخر إنما جعل الله التعاطف والتراحم بين الناس لنفعهم جميعاً .

الثالث عشر : بل هو شر لهم لأنهم اتبعوا أهواءهم ، ولم يصدقوا ببعثة الأنبياء وآثروا الحياة الدنيا وحب المال وجمعه وإدخاره حتى وإن كان بالباطل ، وحبس حقوق الفقراء الذي فيه الأذى والشر .

الرابع عشر : البخل بالحقوق الشرعية شر لأصحابه لأنه برزخ دون تدبرهم بالآيات والدلالات على صدق نبوة محمد صلى الله عليه وآله وسلم ونزول القرآن ، فهم يهربون من هذا التدبر لأنه مقدمة لآخراج الحقوق الشرعية ويتعارض مع حرصهم على حبسها ، قال تعالى ﴿أَفَلَا يَدَّبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾^(٢).

قانون محو الله الموانع عن فعل الخير

يتجلى لطف من عند الله بالذين كفروا أنفسهم بأن تأتي الآية القرآنية في ذمهم ولو تتضمن إصلاحهم ، وتهذيب أفعالهم وهو من معاني الربوبية المطلقة لله عز وجل ، ويمكن إنشاء قانون وهو قانون ذم القرآن للكافر والمنافق إصلاح لهما ، فيمتاز كلام الله عز وجل للناس بأمور :

الأول : الثناء على الفعل الحسن .

(١) سورة النساء ٣٧.

(٢) سورة محمد ٢٤.

الثاني : تثبيت الفعل بين الناس .

الثالث : تقريب الناس إلى عمل الصالحات .

الرابع : بيان الثواب والأجر العظيم على فعل الصالحات ، قال تعالى

﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ﴾^(١).

الخامس : إزاحة الموانع التي تحول دون فعل الصالحات ، ولا يقدر

على هذه الإزاحة إلا الله عز وجل ، ومن الموانع ومقدماتها ما لا يعلمها إلا الله عز وجل ، ويحتمل محوها وجوهاً :

الأول : يعلم الإنسان بما يحى من الموانع عن فعله الخيرات .

الثاني : لا يعلم الإنسان ما يحى عنه من فعل الخيرات .

الثالث : يعلم الإنسان بعض ما يحى عنه دون بعضها الآخر ، وهو

على شعبتين :

الأولى : ما يعلمه الإنسان مما يحى عنه من موانع فعل الخير أكثر مما لا

يعلمه .

الثانية : ما يجهله الإنسان مما يحى عنه من الموانع عن فعل الخير أكثر

مما يعلمه .

الثالثة : التساوي في المعرفة بين ما يعلمه الإنسان ، وما يجهله مما يحى

عنه .

الرابعة : التفصيل والتباين ، فمن الناس من يعلم بالشرط الأكثر مما

حى وزال عنه من أسباب والموانع التي تحول دون فعله الخير ، ومنهم من

لا يعلم إلا بالأقل مما يحى عنه .

والمختار هو الشعبة الثانية من الوجه الثالث أعلاه وهو من مصاديق

قوله تعالى ﴿وَأَتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعْدُوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا إِنْ

الإنسانَ كَظْلُومٍ كَفَّارٌ»^(١)، ومن اللطف الإلهي بارجاء كتابة قول الجاحدين (إن الله فقير) كما في آية البحث ، ويكون من وجوه تقدير الآية أعلاه :

الأول : وان تعدوا نعمة الله في محو الفعل السيئ ودفع العبد من إتيانه.

الثاني : وان تعدوا نعمة الله في تهئية مقدمات فعل الخير لا تحصىها.

الثالث : وان تعدوا نعمة الله في إزاحة ومحو الموانع التي تحول دون فعل لا تحصىها.

الرابع : وان تعدوا نعمة الله في منافع وثمرات محو الموانع التي تحول دون فعل الخير لا تحصىها .

الخامس : وان تعدوا نعمة الله في بعثكم على إجتناح إتباع موانع فعل الصالحات لا تحصىها .

وقانون محو الله عز وجل الموانع التي تحول دون فعل الخير باب استحدث في العلم ، وهو مستقرأ من قوله تعالى ﴿يُحِبُّوا اللَّهَ مَا يُشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٢) ، لبيان قانون وهو استنباط قوانين متعددة من الآية القرآنية ، وفيه دعوة للتدبر في آيات القرآن ، واستقراء المسائل وتأسيس العلوم من الآية القرآنية فهي مدرسة الأجيال والجامعة السماوية العامة التي تحيط بالوقائع والأحداث.

كما يستقرأ محو الله للموانع التي تحول دون فعل الخير ، أو أنها لا تحول ولكنها تنقص كما أو كيفاً منه ، وتضييق في فوائده وتخصر منافعه مع أمر الله عز وجل للعباد بفعل الخير وعمل الصالحات ، قال تعالى ﴿وَأَفْعَلُوا الْخَيْرَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾^(٣) ، فلا بد أن الله عز وجل يدفع ويرفع الموانع التي

(١) سورة ابراهيم ٣٤.

(٢) سورة الرعد ٣٩.

(٣) سورة الحج ٧٧.

تحول دون فعل الخير فيمنع من إجتماع شرائط وأجزاء المانع ، ويصرف ويرفع المانع وان اجتمعت شرائطه ، وإن استحق العبد هذا المانع وهذا الرفع من اللطف الإلهي الى الناس .

ويمكن تسمية الحياة الدنيا دار محو الموانع عن فعل الخير ، ويقابل هذا القانون قانون آخر هو أيضاً رحمة من عند الله ونسميه (تهيئة مقدمات فعل الخير).

وهل في آية البحث شواهد من إزاحة موانع فعل الخير الجواب نعم ، من جهات :

الأولى : حضور آيات التنزيل بين الناس دعوة للصالح ، وبرزخ دون فعل السيئات ، وهو من معاني البركة في قوله تعالى ﴿وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾^(١).

الثانية : إبتداء الآية بقوله تعالى ﴿لَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكُتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنْبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَقَوْلُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾^(٢) ، وفيه تحذير باعث على الإحتراز وضبط اللسان وإنذار للناس من القول السيئ.

الثالثة : شيوع القول السيئ ومفاهيم الجحود بين الناس نوع مانع وبرزخ دون هدايتهم وإيمانهم ، فنزلت آية البحث بفضح قول الذين كفروا ، ليمتنع الناس عن الإنصات لهم .

ومن الإعجاز في المقام مجئ كل من آية البحث والسياق بصيغة الجمع لبيان الضرر العام من الفعل المذموم الذي تذكره آية السياق ، والقول

(١) سورة الأنعام ١٥٥.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

القيح الذي تذكره آية البحث، ولزوم التصدي له وكشفه وفضحه ، وإعانة المسلمين من وجوه :

الأول : جدال الذين كفروا والذين يحبسون الحقوق الشرعية .

الثاني : إبطال مغالطة الجاحدين .

الثالث : تفقه المسلمين في الدين ، ومعرفة ما يقوله وما يفعله الناس من جهة الأحكام إمتثالاً أو امتناعاً.

الرابع : قيام المسلمين بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بخصوص مضامين كل من آية البحث وآية السياق .

الخامس : شكر المسلمين والمسلمات لله عز وجل على تنزههم ، عن حبس الحقوق الشرعية ، وعن القول القبيح ، وهو من عمومات قوله تعالى ﴿وَأَنَّكَ لَـعَلَىٰ خُلُقٍ عَظِيمٍ﴾^(١).

ومن معاني انشاء قانون البحث هذا وهو (محو الله الموانع عن فعل الخير) في المقام أمور :

الأول : دعوة العلماء للتحقيق في كل آية قرآنية وإزاحتها الموانع التي تمنع من فعل الصالحات.

الثاني : شكر المسلمين لله عز وجل على إزاحة البرزخ والموانع دون فعل الخير وهذه الإزاحة نعمة عظمى .

وهل تختص بالمسلمين دون غيرهم ، الجواب لا ، فهو قانون لإرادة التكوينية حاضراً في حياة كل إنسان وفي كل يوم إلى قيام الساعة.

فان قلت هل يشمل هذا القانون الذين ذكرتهم آية البحث ممن كان يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَتِيرٌ وَخَسٌّ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) ، أم أنهم خارجون بالتخصص عن الفوز بهذه النعمة .

(١) سورة ن ٤.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

الجواب هو الأول ، فمحو الموانع دون فعل الخير يتغشى الناس جميعاً ، وقد يهيم الإنسان بفعل ويرى بعض العوائق والمشاق فيتهاون في فعله ، وما يلبث حتى يرى زوال تلك العوائق ، ويتيسر له إتيان ذات فعل الخير الذي هم به أو مثله أو أحسن منه.

الثالث : دعوة كل انسان لاستحضار أفعاله ، والموانع التي لاقته في سبل الخير ، وكيف أن الله عز وجل أزاحها ومنع من سلطانها ، والشكر لله عز وجل على هذه الإزاحة سواء الظاهرة أو الخفية ، والتي سوف يعلم بها الإنسان يوم القيامة ، قال تعالى ﴿فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾^(١).

ويمكن انشاء قانون وهو نزول كل آية قرآنية برزخ دون سفك الدماء وعن الباقر عليه السلام قال (دخلنا على جابر بن عبد الله فقلت : أخبرني عن حجة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم . فقال : إن رسول الله صلى الله عليه وسلم مكث تسع سنين لم يحج ، ثم أذن في الناس في العاشرة أن رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حاج ، فقدم المدينة بشر كثير كلهم يلتمس أن يأتم برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ويعمل بمثل عمله .

فخرج رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وخرجنا معه حتى أتينا ذا الحليفة ، فصلى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم في المسجد ، ثم ركب القصواء حتى استوت به ناقته على البيداء ورسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بين أظهرنا وعليه ينزل القرآن وهو يعلم تأويله ، فما عمل به من شيء عملنا به .

فأهل التوحيد : لبيك اللهم لبيك لبيك لا شريك لك لبيك إن الحمد والنعمة لك والملك لا شريك لك.

وأهل الناس بهذا الذي تهلون به ، فلم يرد عليهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم شيئاً منه ولزم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم تلبيته حتى أتينا البيت معه ، استلم الركن فرمل ثلاثاً ومشى أربعاً ، ثم تقدم إلى مقام إبراهيم فقرأ ﴿ وَاتَّخِذُوا مِنْ مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى ﴾^(١) ، فجعل المقام بينه وبين البيت ، فصلى ركعتين يقرأ به ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾^(٢) ، وبـ ﴿ قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ ﴾^(٣).

ثم رجع إلى البيت فاستلم الركن ، ثم خرج من الباب إلى الصفا ، فلما دنا من الصفا قرأ { إن الصفا والمروة من شعائر الله }^(٤) فبدأ بما بدأ الله به ، فبدأ بالصفا فرقى عليه حتى رأى البيت فكبر الله وحده وقال : لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير ، لا إله إلا الله وحده أنجز وعده ، ونصر عبده ، وهزم الأحزاب وحده ، ثم دعا بين ذلك وقال : مثل هذا ثلاث مرات . ثم نزل إلى المروة حتى انصبت قدماه رمل في بطن الوادي حتى إذا صعد مشى حتى أتى المروة ، فصنع على المروة مثل ما صنع على الصفا حتى إذا كان آخر الطواف على المروة قال : إني لو استقبلت من أمري ما استدبرت لم أسق الهدي ولجعلتها عمرة .

فمن كان منكم ليس معه هدي فليحلل وليجعلها عمرة ، فحل الناس كلهم وقصروا إلا النبي صلى الله عليه وسلم ومن كان معه هدي ، فلما كان يوم التروية وجهوا إلى منى أهلوا بالحج ، فركب رسول الله صلى الله

(١) سورة البقرة ١٢٥.

(٢) سورة الإخلاص ١.

(٣) سورة الكافرون ١.

(٤) سورة البقرة ١٥٨.

عليه وسلم فصلى بمنى الظهر والعصر والمغرب والعشاء^(١) والصبح ، ثم مكث قليلاً حتى طلعت الشمس وأمر بقبة له من شعر فضربت بنمرة^(٢) .
فسار رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا تشك قريش أن رسول الله صلى الله عليه وسلم واقف عند المشعر الحرام بالمزدلفة كما كانت قريش تصنع في الجاهلية ، فاجاز رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أتى عرفة ، فوجد القبة قد ضربت له بنمرة ، فنزل بها حتى إذا غربت الشمس أمر بالقصواء فرحلت .

فركب حتى أتى بطن الوادي فخطب الناس فقال : إن دماءكم وأموالكم عليكم حرام كحرمة يومكم هذا في شهركم هذا في بلدكم هذا ، ألا إن كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع ، ودماء الجاهلية موضوعة وأول دم أضعه دم عثمان بن ربيعة بن الحرث بن المطلب ، وربا الجاهلية موضوع وأول ربا أضعه ربا عباس بن عبد المطلب فإنه موضوع كله .

اتقوا الله في النساء أخذتموهن بامانة الله ، واستحللتم فروجهن بكلمة الله ، وإن لكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه^(٣) ، فإن فعلن فاضربوهن ضرباً غير مبرح^(٤) ، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وإنني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم مسؤولون عني فما أنتم قائلون ؟ .

(١) أي جمعاً وقصراً لصلاة الظهر والعصر ، ثم بعد الغروب جمع بين المغرب والعشاء مع قصر صلاة العشاء .

(٢) أي مسجد نمرة .

(٣) أي بخصوص الاذن بالدخول .

(٤) ورد عن الإمام الباقر بخصوص الضرب أنه بالمسواك الذي هو بطول الأصبع ونحوه .

قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت قال : اللهم اشهد ، ثم أذن بلال .

ثم أقام فصلى الظهر ، ثم أقام فصلى العصر ولم يصل بينهما شيئاً .
ثم ركب القصواء حتى أتى الموقف فجعل بطن ناقتة القصواء إلى الصخرات ، وجعل جبل المشاة بين يديه ، فاستقبل القبلة فلم يزل واقفاً حتى غربت الشمس وذهبت الصفرة قليلاً حين غاب القرص ، وأردف أسامة خلفه فدفع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، وقد شق^(١) للقصواء الزمام حتى أن رأسها ليصيب مورك رحله وهو يقول بيده اليمنى : السكينة أيها الناس كلما أتى جبلاً من الجبال أرخى لها قليلاً حتى صعد حتى أتى المزدلفة ، فجمع بين المغرب والعشاء بأذان واحد وإقامتين ولم يسبح بينهما شيئاً .

ثم اضطجع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم حتى طلع الفجر ، فصلى الفجر حين تبين له الصبح .

ثم ركب القصواء حتى أتى المشعر الحرام ، فرقى عليه فاستقبل الكعبة فحمد الله وكبره وَوَحَّدَهُ ، فلم يزل واقفاً حتى أسفر جداً ، ثم دفع قبل أن تطلع الشمس حتى أتى محسراً^(٢) ، فحرك قليلاً ثم سلك الطريق الوسطى الذي تخرجك إلى الجمرة الكبرى حتى أتى الجمرة عند الشجرة ، فرماها بسبع حصيات يكبر مع كل حصاة منها ، فرمى بطن الوادي ثم انصرف رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المنحر ، فنحر بيده ثلاثاً وستين ، وأمر علياً ما غبر وأشركه في هديه ، ثم أمر من كل بدنة ببضعة فجعلت في قدر فطبخت ، فأكلا من لحمها وشربا من مرققتها ثم ركب .

(١) الشق : طول الرأس ، يقال فرس مشنوق أي طويل الرأس ، وشق الناقة بالزمام مجاز يراد منه جذب رأسها لكبحها ، ويقال شق رأس دابته إذا شدها إلى شجرة أو شئ بارز ومرتفع .

(٢) أي وادي محسر .

ثم أفاض رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم إلى البيت فصلى بمكة الظهر ، ثم أتى بني عبد المطلب وهم يسقون على زمزم فقال : انزعوا بني عبد المطلب فلولا أن يغلبكم الناس على سقايتكم لنزعت معكم ، فأدلوه دلواً فشرب منه ^(١).

قانون خاتمة الآية مدخل للآية التالية

من إعجاز القرآن تقسيمه إلى سور وآيات ، وليس فيها عناوين فصول وأبواب ، إنما تبدأ كل سورة بالبسملة إلا سورة براءة فيتشابه افتتاح السور بقوله تعالى ﴿بسم الله الرحمن الرحيم﴾ ^(٢) لبيان قدسية كل سورة والحاجة إلى التوكل على الله في تلاوتها والعمل بمضامينها وباستثناء الآيات التي تتألف من الحروف المقطعة ومن كلمة واحدة مثل وكلمتين مثل فكل آية قرآنية لها أول ووسط وآخر ، وقد يكون في أولها في شئ ووسطها في شئ آخر لبيان أن الآية القرآنية مدرسة في العلوم والمعارف .

ويفصل بين كل آية بفاصلة تدل على انتهاء وابتداء أخرى بين مجموع آيات القرآن ويبلغ عددها ستة آلاف ومائتين وست وثلاثين آية .
وصحيح أن الآية القرآنية تستقل بمعناها ودلالاتها إلا أنه لا يمنع من إتصالها مع الآية التي قبلها والآية التي بعدها من جهات :

الأولى : المعنى وصيغ العطف .

الثانية : الدلالة ومعاني الحكمة .

الثالثة : إتحاد الموضوع والحكم .

الرابعة : لغة الحجة والبرهان .

الخامسة : المسائل والقوانين .

السادسة : المفاهيم المستقرأة من الجمع بين الآيتين .

(١) الدر المنثور ١/٤٥٣.

(٢) سورة الفاتحة ١.

السابعة : ترشح المسائل عن الجمع بين الآيتين المجاورتين .
 وهل ينقطع هذا الترشح ، الجواب لا ، فهو مستمر ومتجدد إلى يوم
 القيامة ، وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَزَكَّنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ بُيُوتًا لِكُلِّ
 شَيْءٍ﴾^(١) ، وفيه دعوة للعلماء لإستنباط القوانين والفتاوى والمسائل من
 القرآن من جهات :

الأولى : الإستنباط من الآية القرآنية على نحو مستقل .
الثانية : الإستنتاج من كل آيتين متجاورتين .
الثالثة : الإستقراء والإستنباط من الآيات المتجاورة ، سواء يأتي
 الأستنباط من الجمع بين ثلاث آيات أو أكثر .
الرابعة : إستباط المسائل والدلائل من الجمع كل بين آيتين من آيات
 القرآن ، وان كانت إحداهما من أول القرآن والأخرى من آخره .
 ولا يلزم فيه الجمع بين تمام الآيتين ، فقد يكون القدر المتيقن للحجة
 والبرهان واستنباط المسألة الإستدلال بكلمة واحدة أو كلمتين من كل آية ،
 ومن وجوه الإستدلال في المقام :

الأول : الأوامر .
الثاني : النواهي .
الثالث : تأكيد الحكم الشرعي .
الرابع : إستقراء علوم الغيب .
الخامس : تفسير آيات القرآن لذاتها .
السادس : تنزيه وسلامة القرآن عن التحريف والتغيير والتبديل .
السابع : إحاطة آيات القرآن بالوقائع المستحدثة .

الثامن : من خصائص الجمع بين آيتين أو أكثر من القرآن أنه شاهد على إعجاز القرآن ، وتجدد الإعجاز في كل زمان ، فمن خصائص القرآن أن مصاديق إعجازه تتضاعف وتتراكم في كل زمان ، فلا يزال أي منها مع تقادم الأيام ، لتكون علوم وإعجاز القرآن من اللامتناهي .
ومن إعجاز القرآن الصلة بين خاتمة كل آية قرآنية والآية التالية لها ، لتكون على وجوه :

الأول : صلة خاتمة الآية بأول الآية التالية .

الثاني : صلة خاتمة الآية بوسط الآية التالية .

الثالث : صلة خاتمة الآية القرآنية بمجموع كلمات الآية التالية .

الرابع : صلة خاتمة الآية القرآنية بالمتعدد من وسط الآية التالية ، فقد يكون للآية وسط متعدد وكثرة في الكلمات وهو نعمة وثروة لا تضيع .
لتكون خاتمة الآية القرآنية مدخلاً ومقدمة للآية التالية وتيسيراً للعمل بأحكامها وسنتها ، إنه من حب الله عز وجل للعباد ، وتفضله يجعل أحكام القرآن ملائكة لكل زمان ، مستوفية لحاجات الناس في أحكام الحلال والحرام ، وهي منهاج تضيئ لهم طريق الهدى وسبل الرشاد ، وهو من مصاديق الصراط المستقيم ، لذا تفضل الله عز وجل وجعل كل مسلم ومسلمة يتلوان قوله تعالى ﴿ اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ﴾^(١) سبع عشرة مرة كل يوم ، ومنه الإنتفاع الشخصي والعام من الجمع بين آيات القرآن ، والتداخل بين خاتمة الآية القرآنية والآية التالية لها .
وسياتي أن شاء الله قانون (خاتمة الآية القرآنية عون للإمتثال لأحكام الآية التالية).

وهل يمكن القول بأن خاتمة الآية القرآنية تتضمن خلاصة بمضامينها ، الجواب لا دليل عليه ، وكل كلمة وجملة من القرآن كنز وعلم :

الأول : ذات الكلمة والجملّة القرآنية علم قائم بذاته .

الثاني : الجمع بين الكلمة القرآنية من آية مع كلمات من آية أخرى علم مستقل .

الثالث : الكلمة والجملّة القرآنية بلحاظ موافقة الوقائع والأحداث لها .

الرابع : الجملّة القرآنية علم ينير سبل النجاح والفلاح في الوقائع والأحداث .

الخامس : كلمات القرآن متفرقة ومجموعة دعوة إلى السلم وحرب على الإرهاب .

وهل خاتمة آية السياق ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) مدخل لآية البحث ، الجواب نعم ، وهي مدخل لمئات الآيات القرآنية أيضاً وتصلح أن تكون خاتمة ووسطاً لمئات أخرى من الآيات .

وهو من إعجاز خواتيم الآيات وتداخل معاني ودلالات آيات القرآن ، ومن مصاديقه بلحاظ آية البحث وجوه :

الأول : والله خير بما يقول الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) من جهات :

الأولى : أسباب هذا القول .

الثانية : تكرار هذا القول .

الثالثة : الذين قالوا إن الله فقير .

الرابعة : الذين أيدوا هذا القول .

الخامسة : الذين أنكروا هذا القول سواء من المؤمنين أو غيرهم .

(١) سورة آل عمران ١٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

السادسة : سبب قول الزور والإفتراء على الله سبحانه بأنه فقير ، وهي الطلب من الأغنياء بإخراج الزكاة من أموالهم ، وإرادتهم محاربة النبوة والتنزيل .

ومن مصاديق قوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَكْلُمُونَ﴾^(١) علم الله عز وجل بالأضرار الخاصة والعامة المترتبة والمترشحة عن قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) التي لا يعلمها إلى الله إلا الله عز وجل .

ومن علمه تعالى أنه لا يترك هذه الأضرار تنزل على الناس كالمصيبة والنازلة الأليمة بل يدفعها بفضله ، وبما ينفع الناس في النشأتين ، وهذا الدفع من مصاديق الاسم (الخبير) وورد اسم ﴿خَيْرٍ﴾ في القرآن خمساً وأربعين مرة .

والخبير من مباني المبالغة ، وهو فعيل بمعنى فاعل ، ويقال خبر يخبر خبراً أي علم ، ويعرف اسم الخبير بما يلتقي مع العليم ، فيقال : الخبير أي العالم بما كان وما يكون .

والخبير الذي لا يخفى عليه شئ في الأرض ولا في السماء ، وتجتمع صيغ المبالغة والصفة المشبهة باسم الخبير والرحيم والحكيم والسميع والعزیز ونحوه .

وتأتي المبالغة من الفعل المتعدي أما إذا كان الفعل لازماً فتصير صفة مشبهة فخبير يخبر وسمع يسمع ورحم يرحم أفعال متعدية فتكون الصيغة للمبالغة ، فيجمع اسم الخبير المعنيين .

(١) سورة آل عمران ١٥٣ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

والمختار أن النسبة بين الخبير والعليم العموم والخصوص من وجه وأن الخبير هو الذي يعلم عواقب الأمور والأفعال ، وما يصلح الناس ، ويعلم بواطن نفوسهم والخفايا وحقائق الأشياء .

ومن إعجاز القرآن أن اسم الخبير جاء في القرآن على وجوه :

الأول : الاقتران باسم اللطيف ، قال تعالى ﴿الَّذِينَ يَعْلَمُونَ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(١) ، لبيان أن الله عز وجل يصلح الناس لأموال معاشهم وحسن عواقبهم بأن يقربهم إلى سبل طاعته بلطف ورفق منه تعالى ، ومن إعجاز القرآن أن اسم اللطيف ورد في القرآن مقترناً باسم الخبير خمس مرات .

الأولى : قال تعالى ﴿لَا تَدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢) .

الثانية : قال تعالى ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَلَلَّهُ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٣) .

الثالثة : قال تعالى ﴿يَا بَنِي إِدْرَا إِنَّ تَكُنْ مِنْكُمْ جِدَّةٌ مِنْ خَرَدَلٍ فَتَكُنْ فِي صَخْرَةٍ أَوْ فِي السَّمَوَاتِ أَوْ فِي الْأَرْضِ يَأْتِيهَا اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ﴾^(٤) .

الرابعة : قال تعالى ﴿وَأَذْكُرْ مَا تَمَلَّى فِي بُيُوتِكُمْ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾^(٥) .

(١) سورة الملك ١٤ .

(٢) سورة الأنعام ١٠٣ .

(٣) سورة الحج ٦٣ .

(٤) سورة لقمان ١٦ .

الخامسة : قال تعالى ﴿الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢).

الثاني : اقتران اسم الخبير مع اسم الحكيم كما في قوله تعالى ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾^(٣) إذ جمعت الآية أعلاه عدة صفات لله عز وجل منها :

الأولى : القاهر .

الثانية : فوق العباد .

الثالثة : الحكيم .

الرابعة : الخبير .

ومن خصائص أسماء الله عز وجل أن كل اسم له خواص ومعاني خاصة ، ولما كان الله عز وجل هو القاهر فوق عباده فانه لا يكون فقيراً أو محتاجاً .

الثالث : ورود اسم ﴿خَيْرُ﴾ على نحو مستقل ، كما في آية السياق ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(٤) وهو من إعجاز آية البحث بكفاية اسم ﴿الْخَيْرُ﴾ في المقام ، وهل يمكن اضافة الأسماء الحسنى التي اقترنت مع اسم الخبير في المقام ، ونقول ، والله بما تعملون خير حكيم لطيف ، الجواب لا دليل عليه ويتباين المعنى ، نعم يمكن تقدير الآية كالاتي :

الأول : والله بما تعملون خير وهو اللطيف .

الثاني : الله خير بكل من :

(١) سورة الأحزاب ٣٤.

(٢) سورة الملك ١٤.

(٣) سورة الأنعام ١٨.

(٤) سورة آل عمران ١٥٣.

الأولى : ماهية أعمال الناس .

الثانية : التباين بين أعمال المؤمنين وأعمال الكافرين .

الثالثة : نوايا وغايات ومقاصد الناس في أعمالهم .

الرابعة : سنخية الأعمال .

الخامسة : التضاد بين الخير والشر والصالح والفاقد في أعمال الناس .

السادسة : نتائج الأعمال وما يتفرع عنها .

الثالث : خلق الله الناس بحكمته ، وهو أعلم بعواقب الأمور .

وفي كل جهة من هذه الجهات هناك لطف وحكمة من عند الله عز

وجل في هداية الناس إلى سبل الخير والصلاح ، قال تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذَيِّبَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنْنَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾^(١).

وليس من حصر لأفراد وشواهد قانون خاتمة الآية مدخل للآية التالية في القرآن ، إنما تؤسس لهذا القانون بقاعدة كلية ، مما يستلزم من العلماء والمحققين سبر أغواء التداخل بين خاتمة الآية القرآنية والآية التالية ، وهو بلحاظ آية البحث على وجوه :

الأول : تقدير الجمع بين خاتمة الآية السابقة ، وأول آية البحث : والله

بما تعملون خير لقد سمع الله قول الذين قالوا ..) من مصاديق خبرة وعلم الله عز وجل بأحوال الناس مسائل :

الأولى : سماع الله لكل الأقوال .

الثانية : الله خبير بأسباب ومآل هذه الأقوال ؟

الثالثة : بين اسم خبير الله عز وجل وسماعه الأقوال عموم وخصوص

مطلق ، فما دام الله هو الخبير فانه يسمع كل الأقوال وما فيها من النفع أو الضرر أو خلوها من أي منهما ، أو الفرد الجامع لهما .

الرابعة : إن الله عز وجل خبير بما سيفعله الناس ومن قبل أن يخلقوا ، ولو شاء الله ما خلق الذين يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(١) ولكنه سبحانه يعلم أثر هذا القول ، ودفعه ، وهذا الدفع من مصاديق قوله تعالى ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٢) في رد الله عز وجل على الملائكة الذين احتجوا على جعل آدم ﴿فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(٣).

وقد نزلت بسببه آية البحث لتخلد ذمه إلى يوم القيامة ، ويدرك معها المؤمنون والمؤمنات ما كان يلاقيه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم من الأذى والله عز وجل خبير بأن الذين قالوا ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٤) يدعون إلى الإمتناع عن دفع الزكاة والحقوق الشرعية ، والله خبير بأنه يريد للناس دفع الزكاة وأن الذين يمتنعون عنه ويسعون لمنع الناس منه لن يضرؤا قانون الزكاة في الأرض ، وهل هو مثل أنظمة المعارضة في بعض الحكومات ، الجواب لا ، إنما هو من مدرسة الإبتلاء والإمتحان في الحياة الدنيا .

الثاني : من وجوه تقدير الجمع بين خاتمة الآية السابقة وآية البحث : والله خبير وليس فقيراً .

لقد أختتمت آية السياق بقانون وهو أن الله عز وجل خبير بما يعمل الناس ، ولا يختص علمه وخبرته بذات أقوال وأعمال الناس ، إنما هو سبحانه خبير بكل الأشياء عليم بأحوالها وتسييحها ، وهناك تضاد بين الخبرة والفقر .

(١) سورة آل عمران ١٨١.

(٢) سورة البقرة ٣٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة آل عمران ١٨١.

لذا فمن إعجاز نظم الآيات اختتام آية السياق بقوله تعالى ﴿وَاللَّهُ خَيْرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾^(١) وفيه نفي وإبطال لقولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾^(٢) فعند تلاوة آية السياق ثم آية البحث تتجلى حقيقة وهي كيف تقولون إن الله فقير وهو الخبير بكل ما تعملون ، ولو شاء لحجب عنكم الأموال ومقدمات الغنى ، ولما صرتم في حال غنى وأصحاب ثروة وهو من مصاديق الوعيد في قوله تعالى ﴿يَسْأَلُ اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثَبِّتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾^(٣).

فمن إعجاز القرآن مجئ آية تكون حرزاً مما تبينه الآية التالية من أقوال وأفعال الظالمين بما يبين قبح الظلم وعدم ترتب الضرر العام عليه ، وبما يبعث السكينة في النفوس ، قال تعالى ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لَيَزِيدُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ وَلَهُ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾^(٤).

الثالث : والله خير بقولهم (ونحن أغنياء) من جهات :

الأولى : كيفية جمعهم الأموال .

الثانية : حاجتهم لتزكية هذه الأموال بدفع الحقوق الشرعية.

الثالثة : الله خير بكيفية وموارد صرف الناس أموالهم ، وهل يسخر

(الذين قالوا ان الله فقير ونحن أغنياء) أموالهم في محاربة الإسلام ،
الجواب نعم يقوم بعضهم بتسخيرها في معركة أحد والخندق وغيرهما .

(١) سورة آل عمران ١٥٣.

(٢) سورة آل عمران ١٨١.

(٣) سورة الرعد ٣٩ .

(٤) سورة الفتح ٤ .

الرابعة : والله خير بأنهم لو دفعوا الزكاة والحقوق الشرعية لبقوا أغنياء وزادهم الله من فضله ، ولأدركوا أنهم صاروا أغنياء بفضل الله .

الخامسة : والله خير بأموال الناس في الدنيا والآخرة .

لذا فانه يكتب ما قال الجاحدون بخصوص امتناعهم عن دفع الزكاة ، ولأن الله تعالى خير بما يعمل الناس نزل كلامه من فوق سبع سماوات ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ لأن هذا الإخبار والإنذار سبب لنفرة الناس من الذي يقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١) .

ولو لم يقل الله ﴿سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا﴾ لأزداد عدد الذين يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٢) والذين ينصتون له ، والذين يمتنعون عن دفع الزكاة بسبب هذا القول .

ليكون من خصائص الوعيد القرآني حصر وتطويق القول القبيح ، فتنزل آية السياق بالإخبار عن تطويق الذين يمتنعون عن الزكاة بأفاعي يوم القيامة ، ليكون الإخبار عن هذا التطويق على وجوه :

الأول : قطع الأسباب الذاتية لقول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ .

الثاني : إجهاد المسلمين وعامة الناس بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في هذا الباب ، لأن قولهم ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(٣) مخالف للعقل والشرع والفطرة الإنسانية ، قال تعالى ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾^(٤) .

(١) سورة آل عمران ١٨١ .

(٢) سورة آل عمران ١٨١ .

(٣) سورة آل عمران ١٨١ .

(٤) سورة البقرة ٢٦٦ .

الثالث : منع الناس من محاكاة أصحابه .

الرابع : الإخبار القرآني في آية السياق حائل دون توارث الناس لهذا البخل والشح .

فيمتنع أحدهم عن دفع الزكاة والخمس المتعلقين بماله ، فيقوم ابنه بالمبادرة إلى دفع الزكاة والخمس اللذين في ماله الخاص إن صار بمرتبة الغنى ، وتحقيق النصاب عنده لخوفه وفزعه من هول التخويف السماوي والإخبار القرآني عن عذاب واقع بجابس الحق الشرعي ، أو أن صاحب المال الممتنع عن دفع الزكاة ويتفاخر بأنه غني يغادر الدنيا فيرثه أولاده فييادرون إلى دفع الزكاة والحقوق الشرعية ، فيكون الوزر عليه والمهناً والثواب لهم .

فجاءت آية السياق والبحث لإنقاذ الناس من آفة حبس الحقوق الشرعية ولبعث الورثة للتدارك لبيان موضوعية النبوة والتنزيل في قوله تعالى ﴿وَلَكُمْ الْيَوْمَ نَذَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾^(١)، بما فيه الإصلاح ، وإجتنب توارث الفساد.

الخامسة : والله خير بأن الممتنع عن دفع الزكاة مع قدرته على هذا الدفع يستحق عذاب الحريق يوم القيامة .

وقد وردت الآية بلفظ ﴿ذُوقُوا﴾ لأنهم كانوا ينفقون الأموال وحلاوتها في الدنيا مع أن جزء منها جعله الله للفقراء وامتنحهم بلزوم إخراجهم ، وفيه بعث للنفرة من حق الفقراء المحبوس في أيديهم ، فلا يجدون حلاوة له ، وفيه دعوة عاجلة لهم لإخراجه ودفعه إلى أهله .

قانون سعة قدرة وسلطان الله

لقد أختص الله عز وجل لنفسه بأمور عظيمة لا يقدر عليها غيره سبحانه ، ولا تليق إلا به وحده سبحانه ، وهو من مصاديق ﴿بَدِيعُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾^(١) ، ومن أختص الله عز وجل به لنفسه أمور :

الأول : المشيئة المطلقة ، فمشيئته وإرادته حاضرة في كل شيء.

الثاني : الخلق والتكوين.

الثالث : سرعة تنجز الفعل ، وفي التنزيل ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾^(٢).

ليس من تدبر وتفكر واستشارة في أوامر الله عز وجل ، ولا يستعين بأحد ، إنما فاز الذي يستعين به ، لذا يتلو كل مسلم ومسلمة سبع عشرة مرة في اليوم والليلة وعلى نحو الوجوب العيني ﴿إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ﴾^(٣).

الرابع : ملك الله للسموات والأرض ، فلا يشاركه أحد في ملكه.

الخامس : حاجة الخلائق لله عز وجل ورحمته في كل ساعة من وجودها ، فإن قلت يحتاج الإنسان رحمة الله في كل دقيقة من حياته ، فهل تحتاج الجوامد رحمة الله في كل دقيقة أو كل يوم كما في الجبال أم نصيبها الله عز وجل وتركها في مقامها ، الجواب هو الأول ، قال تعالى ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ١١٧.

(٢) سورة يس ٨٢.

(٣) سورة الفاتحة ٥.

(٤) سورة النمل ٨٨.

وهل تدل الآية أعلاه أن الأرض تجري وليست ثابتة ، وهذا الجري فرع الدوران الذي أكدته الإكتشافات العلمية الحديثة ، وما كان يجري من الكائنات لا يستغني عن الله ومشيتته في جريانه ، لقد جعل الله عز وجل جريان الجبال ودوران الأرض حول نفسها آيات بينات ، فلا بد من مباحث علمية مستقراً من منافع هذه الآيات ومن الأضرار الكونية لو توقفت الآيات عن الحركة .

وهل يعني إنقطاع الحياة الإنسانية في الأرض ، أم أن الدول والعلماء يكتشفون أسباب إستدامة الحياة الدنيا بالإنفاق الزائد وتهيئة أسباب اضافية للحياة ، ترهق ميزانية تلك الدول وتجعل الناس يجاهدون من أجل البقاء ، ولا يبقى أغنياء يقولون ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾^(١) .

وقد لا تقع حروب بين القبائل والدول ، فالكل يضطرون للتعاون من أجل غريزة البقاء ، ويدركون أن هذا البقاء يتقوم بالعبادة والصبر والتسبيح والتهليل .

ولكن رحمة الله واسعة ، وهو الذي يهمل الناس ويمدهم بأسباب العيش الرغيد ، وأن تعديهم لا يحجب عنهم فضله وإحسانه .

فقد ورد في الآية السابقة قوله تعالى ﴿الَّذِينَ يَخْلُونُ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ﴾^(٢) لتبين الآية الكريمة أنه مع معصية الجاحدين وامتناعهم عن الإمثال لأمر الله في باب الزكاة والخمس فانه لا يسلب منهم تلك الأموال طوعاً وقهراً لبيان قانون وهو أن الذي لا يدفع الزكاة أو الخمس لا يأخذ الله عز وجل منه مقدار الزكاة والخمس قهراً بل قد يبقيه عنده ، ويجعل فيه النماء لوجوه :

(١) سورة آل عمران ١٨٠.

(٢) سورة آل عمران ١٨٠.

أولاً : رحمة الله بالناس وتوالي فضله على البر والفاجر .
ثانياً : دعوة الإنسان للتوبة والإنابة ، ونزلت آيات القرآن التي تحث على الزكاة، وتمنع من حبسها لحث الناس على دفعها .
ثالثاً : إمهال الناس لحين الحساب .

السادس : إنعدام الشريك لله عز وجل في الخلق والتكوين وملكية السموات والأرض والمشية المطلقة ، وفي التنزيل ﴿لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾^(١).

السابع : حب الله عز وجل للخلائق ، فلا يحب الخلائق مجتمعة ومتفرقة أحد مثل حب الله عز وجل لها .

الثامن : سماع الله عز وجل للناس والأصوات كلها ، وقد أخبر الله عز وجل عن كونه يسمع تسييحهم بدليل قوله تعالى ﴿يَسْمَعُ اللَّهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾^(٢) إذ تدل الآية أعلاه على أن الله عز وجل يسمع تسييح الخلائق .

ويحتمل تسييح الجمادات وجوهاً :

أولاً : إنه إختيار وفعل طوعي .

ثانياً : تلقين الله عز وجل للخلائق التسييح .

ثالثاً : أنه أمر قهري .

رابعاً : تسييح الجمادات تكويني ملازم لخلقها ، ومصاحب لها في الإرادة التكوينية .

(١) سورة الأنبياء ٢٢.

(٢) سورة الجمعة ١.

والمختار هو الأخير ، ويكون الأول في طوله ، إذ يجعل الله عز وجل عندها من الإدراك بما يؤهلها لإختيار التسييح ويدل على هذا التداخل قوله تعالى ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ إِنِّي نَادِيَةٌ عَلَيْكُمَا فَقَالَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ﴾^(١) .

ومن خصائص عظمة الله عدم تزامن أو إختلاط الأصوات عنده ، وعدم نسيانه لأي صوت من الأصوات التي لا يعلم عددها أحد ، بل لا تستطيع الخلائق إحصاء الأصوات التي تصدر في الخلائق كل ساعة ، ولو فرضنا كتابة عدد الأصوات التي صدرت من الخلائق مع كثرتها ، فهل يحيط بها رقم مكتوب من الآحاد والأصفار المتكثرة عن يمينها ، وعلى فرض كتابته فلطوله لا يستطيع قراءته والنظر إليه نظرة جامعة لجميع أصفاره مع كثرتها إلا الله عز وجل أو ملك يجعله الله عز وجل مؤهلاً للجمع في بصره لهذه الأصفار ، حتى بالإختصار بلغة الجذر .

وسماع أصوات الخلائق من رحمة الله بالناس ظن وسبب لتزيين الحياة الدنيا لهم ، وجعلها ذات بهجة ، وقد ورد اسم السميع لله عز وجل خمساً وأربعين مرة منها اقترن باسم العليم وهي :

الأول : قال تعالى ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢) .

الثاني : قال تعالى قال تعالى ﴿وَلَا تَجْعَلُوا اللَّهَ عُرْضَةً لِّإِيمَانِكُمْ أَنْ تَبَرُّوا وَتَتَّقُوا وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣) .

الثالث : قال تعالى ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤) .

(١) سورة فصلت ١١ .

(٢) سورة البقرة ١٨١ .

(٣) سورة البقرة ٢٢٤ .

(٤) سورة البقرة ٢٢٧ .

الرابع : قال تعالى ﴿وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَعَلِمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

الخامس : قال تعالى ﴿لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِنَ بِاللَّهِ فَقَدْ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى لَا انْفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

السادس : قال تعالى ﴿ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).
السابع : قال تعالى ﴿وَمَا يَنْزَغَنَّكَ مِنَ الشَّيْطَانِ نَزْغٌ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ إِنَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

الثامن : قال تعالى ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى وَلِيْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَاءٌ حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

التاسع : قال تعالى ﴿إِذْ أَنْتُمْ بِالْعُدْوَةِ الدَّنْيَا وَهُمْ بِالْعُدْوَةِ الْقُصْوَى وَالرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنْكُمْ وَلَوْ تَوَاعَدْتُمْ لَا خِلْفَتُمْ فِي الْمِيعَادِ وَلَكِنْ لِيَقْضِيَ اللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنْ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَى مَنْ حَيَّ عَنْ بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٦).

العاشر : قال تعالى ﴿ذَلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَى قَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَأَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٧).

(١) سورة البقرة ٢٤٤.

(٢) سورة البقرة ٢٥٦.

(٣) سورة آل عمران ٣٤.

(٤) سورة الأعراف ٢٠٠.

(٥) سورة الأنفال ١٧.

(٦) سورة الأنفال ٤٢.

(٧) سورة الأنفال ٥٣.

الحادي عشر : قال تعالى ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنْفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ الدَّوَائِرَ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

الثاني عشر : قال تعالى ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِمْ بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَاتَكَ سَكَنٌ لَهُمْ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٢).

الثالث عشر : قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْ لَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٣).

الرابع عشر : قال تعالى ﴿وَالْقَوَاعِدُ مِنَ النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا يَرْجُونَ نِكَاحًا فَلَيْسَ عَلَيْهِنَّ جُنَاحٌ أَن يَضَعْنَ ثِيَابَهُنَّ غَيْرَ مُتَبَرِّجَاتٍ بِزِينَةٍ وَأَن يَسْتَعْفِفْنَ خَيْرٌ لَهُنَّ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٤).

الخامس عشر : قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدُمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾^(٥).

التاسع : رؤية الله عز وجل لكل شئ فما من شئ إلا هو حاضر عند الله في نشأته كنهه ومقداره وهيئته وحركته وعاقبته .

والخلائق على قسمين :

الأول : الخلائق عديمة البصر .

الثاني : الخلائق التي عندها حاسة البصر ، كالملائكة والإنس والجن ، وهذه الخلائق لا ترى إلا على نحو محدود في المدى والبعد والسعة والضيقة

(١) سورة التوبة ٩٨.

(٢) سورة التوبة ١٠٣.

(٣) سورة النور ٢١.

(٤) سورة النور ٦٠.

(٥) سورة الحجرات ١.

، والجهة ، ويأتي الظلام ليمنع من حدة حاسة البصر عند الإنسان ، وفيه تذكير بنعمة الله عز وجل للناس بنعمة البصر ليشكروا الله عز وجل على هذه النعمة ويكون شكرهم له سبباً لاستدامتها.

والتضاد بين ضياء النهار وظلمة الليل دعوة للدعاء لإيجاد العلاج لأمراض العيون وإصلاحها ووقايتها من آفات البصر ، وإعادة البصر للمكفوفين ، قال تعالى ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فُهِوْشِفِينَ﴾^(١) ويبعد الأشياء كلها من غير حاسة باصرة ، وفي التنزيل ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾^(٢).

العاشر : إحصاء الله عز وجل للأشياء والوقائع بما لا يقدر عليه إلا هو سبحانه ، وهذا الإحصاء من وجوه :

الأول : إحصاء الخلائق .

الثاني : إحصاء حركة الخلائق .

الثالث : إحصاء الأفعال .

الرابع : إحصاء الناس وتقسيماتهم من جهة الجنس إلى ذكور وأنث ، ومن جهة الملل والمذاهب ، وطول أو قصر العمر ، ومقدار الرزق سعة وتقديراً ، وحال الصحة والمرض ، وهذا الإحصاء رحمة بالناس وخير محض لذا ورد على لسان إبراهيم في التنزيل ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فُهِوْشِفِينَ﴾^(٣) ، والإيمان أو الكفر ، وعدد أنفاس كل واحد .

وأوان الولادة والبلوغ والموت .

وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال (من قال حين يأوي إلى فراشه استغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي

(١) سورة الشعراء ٨٠.

(٢) سورة الملك ١٤.

(٣) سورة الشعراء ٨٠.

القيوم وأتوب إليه ثلاث مرات غفر الله ذنوبه وإن كانت مثل زبد البحر وإن كانت عدد ورق الشجر وإن كانت عدد رمل عاجل وإن كانت عدد أيام الدنيا^(١).

الحادي عشر : إحاطة الله بعلوم الغيب في الدنيا والآخرة، لقد أختص الله لنفسه العلم بالغيب وأثنى على نفسه لهذه الصفة التي ينفرد بها ، قال تعالى ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ اللَّهُ يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ وَأَنَّ اللَّهَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾^(٢).
ثم تفضل الله عز وجل وأخبر عن إخباره لبعض من خلقه بجانب من علوم الغيب ، وليس من حصر لعلوم الغيب ، كما أنها تشمل أفراد الزمان الطولية من وجوه :

أولاً : ما قبل خلق السموات والأرض .

ثانياً : من حين خلق آدم .

ثالثاً : أيام الحياة الدنيا .

رابعاً : عالم البرزخ وحياة الناس في القبر .

خامساً : عالم الحساب .

سادساً : عالم الجزاء .

ولا يختص علم الغيب بالناس وحياتهم إنما يشمل أمر الخلائق كلها ، الموجود والمعدوم .

ومن معاني علم الله عز وجل للغيب أنه حفظ للخلائق نفسها ، وفيه نفع للناس .

الثاني عشر : بعثة الأنبياء والرسل ، فلا يقدر على بعث أنبياء من البشر إلا الله عز وجل ، وفي التنزيل ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا

(١) سنن الترمذي ٤٧٠/٥.

(٢) سورة التوبة ٧٨.

إِلَهُكُمْ إِلَهُ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴿١﴾ ، والله سبحانه الذي اختارهم من بين البشر ، من جهات :

الأولى : الأهلية الشخصية لأسمى المراتب ، وهو مقام النبوة .

الثانية : تعيين أوان ومكان النبي ، وقد يكون هناك نبيان أو ثلاثة في

زمان واحد ، وقد تكون مدة أو فترة بين الرسل ، كما في قوله تعالى ﴿يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَى قَتَرَةٍ مِنَ الرُّسُلِ أَنْ تَقُولُوا مَا جَاءَنَا مِنْ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ فَقَدْ جَاءَكُمْ بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (٢) .

إذ كان بين عيسى عليه السلام والنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم نحو ستمائة سنة لبيان معجزة أخرى للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ شاعت قبل بعثته عبادة الأوثان ، وفشى بين الناس التقاتل والسبي والنهب ، وتأصلت عندهم مفاهيم الغزو والقتل وهو من مصاديق إحتجاج الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾ (٣) ورد الله عز وجل عليهم ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ (٤) .

ومن علم الله عز وجل أنه متى ما شاعت عبادة الأوثان وديب الخوف والفرع الدائم بين الناس يبعث الله عز وجل النبي محمداً صلى الله عليه وآله وسلم على فترة من الرسل فيعيد الناس إلى سبل الهدى والرشاد ، فيتجدد إحتجاج الملائكة أعلاه عند قيام كفار قريش بمحاربة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم إذ أنهم أشاعوا الفساد من جهات :

(١) سورة الكهف ١١٠ .

(٢) سورة المائدة ١٩ .

(٣) سورة البقرة ٣٠ .

(٤) سورة البقرة ٣٠ .

الأولى : عبادة المشركين الأوثان .

الثانية : اصطباغ القرض بالربا والفائدة .

الثالثة : كثرة الغزو بين القبائل .

وسفك المشركون الدماء الطاهرة قبل الفتح بقتل سمية وياسر والذي عمار وغيرها لأنهم آمنوا برسالة النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم .
لقد احتجت الملائكة على فساد طائفة من الناس في الأرض ، إذ قالوا يوم أخبرهم الله ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾^(١) ويحتمل حصار قريش لبني هاشم وجوهاً :

أولاً : إنه من الفساد في الأرض .

ثانياً : إنه من سفك الدماء .

ثالثاً : أنه فرد جامع للفساد وسفك الدماء .

رابعاً : إنه ليس من الفساد ولا سفك الدماء ، بل أدنى ضرراً من أي منهما .

خامساً : إنه أشد من الفساد في الأرض ، ولكنه أقل وأدنى من سفك الدماء .

سادساً : إنه من الفساد في الأرض ومن مقدمات سفك الدماء .
والمختار هو الأخير أعلاه لبيان التفصيل والتعدد في احتجاج الملائكة ﴿أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾^(٢) من وجوه :
أولاً : قيام طائفة من الناس بالفساد الذاتي في الأرض .
ثانياً : إشاعة بعض الناس الإفساد في الأرض .

(١) سورة البقرة ٣٠ .

(٢) سورة البقرة ٣٠ .

ثالثاً : القيام بالأمر بالمنكر والنهي عن المعروف بما يربك أحوال الناس ، ونفسي المفاهيم الخاطئة .

رابعاً : سعي الناس في الفتنة وبث روح الفرقة ، قال تعالى ﴿وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنْ الْقَتْلِ﴾^(١).

خامساً : جور الظالمين بقهر الأفراد والجماعات والإضرار بالمؤمنين لأنهم يدعون إلى العدل، وفي التنزيل ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ﴾^(٢). ومما يدل على أن حصار قريش لبني هاشم إنذار بالقتل وشدة وطأة القتال ، وأحكام قريش له واقتراؤه بتعذيب صحابة النبي صلى الله عليه وآله وسلم من الرجال ، ولم يعلموا أن الملائكة احتجوا على فساد قريش هذا قبل أن يهبط آدم إلى الأرض ، ليقول لهم الله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٣).

ومن علم الله عز وجل هبوط الملائكة لإنقاذ النبي صلى الله عليه وآله وسلم من محاولة اغتيال قريش له ليلة المبيت ، وحراسته في طريق الهجرة ثم هبوط الملائكة مردفين ، مسرعين لنصرته والمهاجرين والأنصار في معركة بدر .

وهل تفضل الله عز وجل وذكر الملائكة يوم بدر بقوله ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾^(٤) ، وأنه وعد كريم لهم ولآدم والمؤمنين ، المختار نعم ، وليس من حصر لمصاديق هذا الوعد ، وقد تجلّى في معركة بدر إذ أذن الله

(١) سورة البقرة ١٩١.

(٢) سورة النحل ٩٠.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

(٤) سورة البقرة ٣٠.

للملائكة بالهبوط عندما استغاث النبي صلى الله عليه وآله وسلم بالله وسأله النصره ، إذ بنى له أصحابه يومئذ عريشاً فقام يدعو الله عشية بدر ونهارها .

ومن دعائه صلى الله عليه وآله وسلم يومئذ (يارب إن تهلك هذه العصاة فلن تعبد في الأرض أبداً فقال له جبرئيل خذ قبضة من التراب فأخذ قبضة من التراب فرمى بها وجوههم فما من المشركين أحد إلا أصاب عينيه ومنخره وفمه تراب من تلك القبضة فولوا مدبرين)^(١).

من الشعائر مكانية وزمانية

لقد اختبر الله عز وجل الناس بشعائره وجعلها أعلاماً ظاهرة على وجوب عبادته وسبيلاً ووسيلة للتقرب إليه .

والشعائر جمع شعيرة وهي العلامة ، وقال عدد من العلماء أن المراد من الشعائر أوامر وفرائض الله ، ويدخل فيه الواجبات والمستحبات ، ومن الشعائر وجوه :

الأول : الشعائر المكانية : مثل الكعبة الشريفة ، قال تعالى ﴿جَعَلَ اللَّهُ الْكَعْبَةَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ قِيَامًا لِلنَّاسِ﴾^(٢) والمسجد الحرام ، ومقام إبراهيم لقوله تعالى ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَنْ دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَنْ كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾^(٣).

(١) الخصائص الكبرى ٣٤٥/١.

(٢) سورة المائدة ٩٧.

(٣) سورة آل عمران ٩٧.

ومنها الصفا والمروة لقوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوِ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾ (١) .

إذ تدل الآية على أن ذات الصفا والمروة من الشعائر وليس الطواف والسعي بينها وحده ، لأن الأصل في الكلام العربي الظاهر ، ولا ينصرف إلى غيره إلا مع القرينة ، ومنها المشعر الحرام والحرم المكي .
وهل مواقيت الحج التي يحرم منها الحاج والمعتمر من شعائر الله ، الجواب نعم ، قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ النَّاسِ وَالْحَجِّ﴾ (٢) ، والمواقيت (هي الأماكن المحددة للإحرام، ونعتها بالمواقيت إشارة إلى الوجوب، كما في قوله تعالى ﴿إِنَّ الصَّلَاةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (٣) .

وهو التوقيت للشيء والتحديد لأوانه، يقال وقته فهو موقوف إذا جعل للفعل وقتاً يفعل فيه وزماناً لحدوثه. قال تعالى ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتًا﴾ (٤) ، واستعير للمكان، ومنه مواقيت الحج لمواضع الإحرام، وليبان ما لها من الموضوعية والاعتبار.

مسائل في المواقيت

مواقيت الإحرام للعمرة والحج ستة ، وفي بعض الأخبار أن المواقيت خمسة، ولا يعني هذا الحصر بل هو الغالب والمتعارف في طرق القوافل

(١) سورة البقرة ١٥٨.

(٢) سورة البقرة ١٨٩.

(٣) سورة النساء ١٠٣.

(٤) سورة التبا ١٧.

ومسير الحاج. والجمع بين الأخبار يفيد أنها عشرة مواضع، والأمر سهل في هذا الزمان لموضوعية طرق التبليط ومساراها، وهي:

الأول: ذو الحليفة

وهو ميقات أهل المدينة، ومن يمر على طريقهم، وهو نفسه مسجد الشجرة وبه أشتهر، كما يمر عليه في هذا الزمان أهل العراق والشام، ويبعد عن المسجد الحرام (٤٣٧) كم، وعن المسجد النبوي باتجاه مكة (١٤) كم.

وسمي ذا الحليفة لأن أناساً اجتمعوا فيه قبل الإسلام وتحالفوا. وعن القاموس أنه ماء لبني جشم.

وقد أحرم منه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم لأنه لما أسري به إلى السماء، وصار بحذاء الشجرة نودي يا محمد فقال صلى الله عليه وآله وسلم: لييك، قال: ألم أجذك يتيماً فأويتك، ووجدتك ضالاً فهديتك، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: إن الحمد والنعمة والملك لك لا شريك لك. فلذلك أحرم من الشجرة دون المواضع كلها^(١)، وذو الحليفة هو الموضع الغربي أدرك فيه الإمام علي عليه السلام وهو على ناقه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم العضباء أبا بكر ليدفع إليه (براءة) بعد أن نزل جبرئيل عليه السلام على النبي صلى الله عليه وآله وسلم، وقال له (لن يؤدي عنك إلا أنت أو رجل منك)^(٢).

(مسألة ١) يجوز نية الإحرام من داخل مسجد الشجرة، والأقوى الإحرام من جوانب المسجد وموضعه عرفاً ولو إختياراً.

(مسألة ٢) الحائض تحرم خارج المسجد من عند جوانبه، وكذا الجنب إن لم يكن عنده ماء ولم يغتسل، والأحوط له أن يتيمم كي يدخل المسجد.

الثاني: الجحفة:

(١) الوسائل ١٥/١.

(٢) الدر المنثور ٦/٥.

- بضم الجيم وسكون الحاء وفتح الفاء -، وهي ميقات أهل الشام ومصر والمغرب ومن يمر عليها من غيرهم إذا لم يحرم من ذي الحليفة ولم يمر عليه، وأسمها مهيرة وسميت جحفة -بضم الجيم- لأن السيل أجحف بأهلها، في أولها مسجد النبي صلى الله عليه وآله وسلم بموضع يقال له عزور، وفي آخرها عند العلمين مسجد الأئمة، وتبعد عن المسجد الحرام (٢٠٤) كم، وتقرب من رابغ وهي بلدة معروفة، ومن يأتي بالطائرة إلى جدة يجوز أن يحرم بالجو عند لحظة المرور عليها بإخبار من قيادة الطائرة. أما من نزل من الطائرة في جدة فلا يصح رجوعه إلى الجحفة للإحرام لأنها ميقات من يمر عليها فلا يرجع إليها، وفي هذا الرجوع تشديد على النفس وهو خلاف قاعدة لا ضرر ولا ضرار وقاعدة نفي الحرج إنما يحرم من جدة رجلاً كان أو امرأة والنذر بالإحرام قبل الميقات أولى من الرجوع إلى الجحفة.

الثالث: العقيق:

وهو في اللغة كل واد عقه السيل أي شقه فانهره، وهذا الميقات واد يتدفق سيله في غوري تهامة.

وهو ميقات أهل نجد والعراق، وغيرهم ممن يمر عليه، وقد جعله رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ميقاتاً لأهل العراق وعليه النصوص، ولم يفتح العراق إلا بعد انتقاله صلى الله عليه وآله وسلم إلى الرفيق الأعلى، وفيه آية وحجة وإخبار عن إسلام أهل العراق وما خلفه، وقيام الناس من الأمصار المختلفة بأداء فريضة الحج.

(مسألة ٣) العقيق على ثلاث منازل وهو المشهور:

الأول: المسلخ، سمي بذلك أما لإعتباره موضع النزع، أي أن الحاج ينزع فيه ثيابه للإحرام، أو من المسلخ وهو الموضع العالي.

الأوسط: غمرة، وهو منزل من مناهل طريق مكة، وفصل ما بين نجد وتهامة، يقال غمره الماء إذا علاه وغطاه.

ذات عرق، وهو أقربها إلى مكة ، ويبعد عن البيت الحرام (٩٨) كم .
والأحوط إستحباباً عدم تأخير الإحرام إليه إلا لضرورة أو مرض أو
نحوهما ، وأفضل المنازل الثلاثة أولها وهو المسلخ.

الرابع: يللم:

وهو ميقات أهل اليمن، وعليه النص والاجماع، وهو جبل في جنوب
مكة يسمى السعدية، ويبعد عن البيت الحرام (٩٤) كم ، وكان الحاج
يقطع ما بينه وبين مكة بليتين.

الخامس: قرن المنازل:

وهو ميقات أهل الطائف، ويقال له أيضاً قرن بلا إضافة. ويبعد عن
البيت الحرام (٩٤) كم ، وفي بعض النصوص أنه وقت لأهل نجد أيضاً
ربما لأن نجد لها طريقان، أو لأنه أصبح ميقاتها في هذا الزمان، وهو ميقات
أهل القطيف والإحساء والبحرين ومن جاء عن طريقها.

السادس: محاذاة أحد المواقيت الخمسة

وهي ميقات من لم يمر على المواقيت المتقدمة وعليه النص والاجماع،
وقاعدة نفى الحرج، والمدار على صدق المحاذاة عرفاً لأقرب المواقيت من
الموضع الذي هو فيه، ويكفي الظن الحاصل من أهل الخبرة، والأحوط
إستحباباً عدم الإكتفاء بالمحاذاة مع إمكان الذهاب إلى الميقات والإحرام
منه خصوصاً في هذه الأعصار وإشتهار المواقيت ومرور الطرق الرئيسية
المعبدة عليها على نحو الإنطباق.

السابع: أدنى الحل:

وهو ميقات العمرة المفردة بعد حج القران أو الأفراد، بل كل عمرة
مفردة لمن خرج من مكة والأفضل أن يكون من:

١- الحديبية : وهو بئر قريب من مكة على طريق جدة دون مرحلة ، ثم
أطلق على الموضع ، ويبعد عن البيت الحرام (١٥) كم ، ويقال نصفه في
الحل ونصفه في الحرم، وكان كثير الشجر والماء عندما نزل به النبي صلى

الله عليه وآله وسلم يريد الحج، فصده وأصحابه المشركون عن دخول البيت فأقام شهراً ثم صالحوه على أن يرجع ذلك العام ويعود في قابل ويتركون له مكة ثلاثة أيام حتى يطوف وينحر الهدي ويفعل ما يشاء، وقد بيناه تفصيلاً في تفسير الآية ١٩٠ من سورة البقرة^(١).

٢- الجعرانة - بكسر الجيم والعين وتشديد الراء، أو - بكسر الجيم وسكون العين وتخفيف الراء، وهو موضع بين مكة والطائف، ويبعد عن البيت الحرام (١٦) كم.

٣- التنعيم: وهو موضع قريب من مكة وأقرب أطراف الحل إلى مكة، إذ يبعد عن البيت الحرام (٦) كم، ويعرف بمسجد عائشة وفيه مسجد أمير المؤمنين، وسمي بالتنعيم لأن عن يمينه جبلاً اسمه نعيم وعن شماله جبلاً اسمه ناعم وإسم الوادي نعمان، وهو داخل بيوت مكة في هذا الزمان.

الثامن: دويرة الأهل:

فمن كان منزله في مكة أو أقرب إليها من الميقات فميقاته من منزله على الأقوى، ويجوز له الإحرام من أحد المواقيت، ويلحق به المجاور الذي ينتقل فرضه إلى فرض أهل مكة، ويجوز أن يحرم من الجعرانة وهي أحد مواضع أدنى الحل.

التاسع: ميقات الصبيان:

من فح وهو سهل معروف على فرسخ من مكة على طريق المدينة، والفرسخ ثلاثة أميال، والميل ١,٦٠٩ كيلو متر فتكون المسافة = ٤,٨٢٧ كيلو متراً تقريباً.

وقيل باحرامهم من الميقات لكن لا يجردون إلا في فح تخفيفاً ولضعف أبدانهم عن تحمل الحر والبرد، ولو سلك الصبيان طريقاً لا يصل إلى فح فالأقوى إحرامهم من ميقات البالغين، وميقات الصبيان في حج التمتع من

(١) انظر الجزء الحادي والثلاثين من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

مكة كالملكفين.

العاشر: مكة:

وهي ميقات الاحرام لحج التمتع وعليه اجماع علماء المسلمين.
(مسألة ١) ذو الحليفة أبعد المواقيت عن مكة، ويليه في البعد الجحفة والمواقيت الثلاثة الأخرى على مسافة واحدة تقريباً بينها وبين مكة.
(مسألة ٢) كل من إعتمر عن طريق عليه أن يحرم من ميقات أهل ذلك الطريق فلا حصر في الميقات وإنما وضعت المواقيت للناس جميعاً فالوظيفة أعم من الإسم .

وعن الإمام الرضا عليه السلام : ان رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وقت المواقيت لأهلها ومن أتى عليها من غير أهلها^(١).

(مسألة ٣) ميقات حج التمتع بعد الإحلال من العمرة هو مكة، سواء كان الحج واجباً أو مستحباً، والحاج من أهل مكة أو أفاقي، وميقات عمرة التمتع: أحد المواقيت الخمسة أو بمحاذاتها، أو من الطائفة أو من جدة وحيث أمكن لقاعدة نفى الحرج في الدين وقاعدة لا ضرر ولا ضرار في الإسلام.

(مسألة ٤) ميقات حج القران والإفراد فيه تفصيل:

١- إن كان منزله في مكة فأحرامه من منزله، ويجوز أن يحرم من أحد المواقيت.

٢- إذا كان منزله أقرب إلى مكة من الميقات ومحاذاته فميقاته منزله.

٣- ميقات عمرتهما أي عمرة حج القران والإفراد أدنى الحل إذا كان في مكة، ويجوز من أحد المواقيت أيضاً، وكذا الحكم في العمرة المفردة واجبة كانت أو مستحبة فيحرم لها من أدنى الحل إذا كان في مكة أو في منزله الذي هو اقرب للميقات.

المجاور في مكة بعد الستين حاله حال أهلها^(١).

الثاني : الشعائر الزمانية : إذ جعل الله عز وجل قدسية وحرمة لبعض أفراد الزمان ليكون أوانها تذكيراً بوجوب عبادة الله في أيام السنة وسبباً لاستحضار عالم الحساب والجزاء ، قال تعالى ﴿يَوْمَ كَانَ مَقْدَارُهُ أَلْفَ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾^(٢).

ويمكن تقسيم الحرمة والشعيرة الزمانية إلى شعب :
الأولى : الشعيرة اليومية ، وهي التي تخص يوماً واحداً ، كما في يوم الجمعة من بين أيام الأسبوع .

عن ابن عباس قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أخبركم بأفضل الملائكة جبريل ، وأفضل النبيين آدم ، وأفضل الأيام يوم الجمعة ، وأفضل الشهور رمضان ، وأفضل الليالي ليلة القدر ، وأفضل النساء مريم بنت عمران^(٣).

وقال الإمام علي عليه السلام : قال النبي صلى الله عليه وآله وسلم :
يا علي سيد النبيين آدم ،
وسيد العرب محمد ولا فخر ،
وسيد الفرس سلمان ،
وسيد الروم صهيب ،
وسيد الحبشة بلال ،
وسيد الجبال الطور ،
وسيد الشجر السدر ،
وسيد الشهور الأشهر الحرم ،

(١) أنظر رسالتنا مناسك الحج ص ٧١-٨٣.

(٢) سورة السجدة ٥.

(٣) الدر المنثور ١/١٧١.

وسيد الأيام يوم الجمعة،
وسيد الكلام القرآن،
وسيد القرآن البقرة،
وسيد البقرة آية الكرسي.

يا علي إن فيها لخمسين كلمة في كل كلمة خمسون بركة^(١).

ومنها يوم التروية وهو الثامن من شهر ذي الحجة ويتوجه فيه وفد الحاج إلى منى وهي جزء من الحرم وتبعد عن البيت الحرام ، إذ يحرم الحاج المتمتع احراماً جديداً أما الحج المفرد والحاج القارن على احرامهما الأول .

وبيت الحجاج في منى ويؤدون صلاة الظهر والعصر والمغرب والعشاء من اليوم الثامن ، وصلاة الفجر من يوم عرفة في منى قبل التوجه الى عرفة وعن (جابر بن عبد الله انه حج مع رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم يوم ساق البدن وقد اهلوا بالحج مفردا فقال لهم رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم احلوا من احرامكم بالطواف بالبيت وبين الصفا والمروة واقصروا وانتم حلال فإذا كان يوم التروية فاهلوا بالحج واجعلوا التي قدمتم بها متعة قالوا كيف نجعلها متعة وقد سميناه الحج فقال افعلوا ما امرتكم فلولا اني سقت الهدى لفعلت مثل الذي امرتكم به ولكن لا يحل مني حرام حتى يبلغ الهدى محله ففعلوا)^(٢).

فيوم التروية من شعائر الله الزمانية ، وهو مقدمة لغيره من الشعائر كالوقوف في عرفة .

مسائل :

المسألة الأولى : يستحب الغسل يوم التروية وهو من الأغسال الزمانية،

(١) الكشف والبيان ٦١/٢.

(٢) البيهقي / السنن الكبرى ٢٥٦/٤.

ووقته تمام اليوم.

المسألة الثانية : يستحب بعد الإحرام يوم التروية وصلاة المكتوبة في المسجد الخروج إلى منى.

المسألة الثالثة : سمي اليوم الثامن من ذي الحجة بيوم التروية لوجوه:
الأول : إن جبرئيل عليه السلام أتى إبراهيم عليه السلام وقال له يا إبراهيم إرتو من الماء لك ولأهلك، ولم يكن بين مكة وعرفات ماء.
الثاني : لأنهم كانوا يستقون من مكة الماء عند الخروج الى عرفة التي ليس فيها ماء، وعن الصادق عليه السلام كان بعضهم يقول لبعض: ترويت من الماء فسميت التروية^(١) ، إذ لا يوجد ماء في عرفات التي يذهبون إليها في اليوم التالي .

الثالث : إن إبراهيم عليه السلام رأى في تلك الليلة رؤيا ذبح ولده، فأصبح يروي في نفسه أهو حلم أم من الله تعالى؟ فسمي يوم التروية فلما كانت ليلة عرفة رأى ذلك أيضاً فعرف أنه من الله تعالى، فسمي يوم عرفة^(٢).

المسألة الرابعة : الإحرام للحج من بطن مكة وأشرفها المسجد الحرام وأفضله المقام ثم تحت الميزاب خصوصاً وأنه يستحب الصلاة ركعتين عند الإحرام، والصلاة في المسجد الحرام بألف صلاة.

المسألة الخامسة : يكره قطع وادي محسر قبل طلوع الشمس.

المسألة السادسة : يستحب المبيت ليلة عرفة في منى، وبه قال الحنابلة، وذهب الحنفية والمالكية إلى وجوبه.

المسألة السابعة : ما يجري في هذا الزمان من ذهاب بعض الحجاج إلى عرفة ليلة عرفة من غير ضرورة خلاف المستحب.

(١) البحار ٤٢/٩٦.

(٢) أنظر تفسير القرطبي ٨٨/١٥.

المسألة الثامنة : يكره الخروج من منى قبل الفجر، ولا بأس بخروج المشاة وذوي الأعذار منها قبل الفجر.

المسألة التاسعة : يستحب للشيخ الكبير والمريض ومن يخاف الزحام الخروج الى منى صباح يوم التروية أو قبله بيوم أو يومين.

المسألة العاشرة : يستحب للإمام وأمير الحاج إستحباباً مؤكداً الخروج إلى منى يوم التروية على نحو يصلي الظهر فيها، ويستحب له الإصباح فيها حتى تطلع الشمس.

المسألة الحادية عشرة : يستحب ان تقرأ الدعوات الماثورة عند الخروج الى منى وتقول:

(اللَّهُمَّ إِيَّاكَ أَرْجُو وَإِيَّاكَ أَدْعُو فَبَلِّغْنِي أَمَلِي وَأَصْلِحْ لِي عَمَلِي).
وَإِذَا انْتَهَيْتَ إِلَى مَنْى فَقُلْ:

(اللَّهُمَّ هَذِهِ مَنْى وَهِيَ مِمَّا مَنَنْتَ بِهِ عَلَيْنَا مِنَ الْمَنَاسِكِ فَأَسْأَلُكَ أَنْ تَمُنَّ عَلَيَّ بِمَا مَنَنْتَ بِهِ عَلَيَّ أَنْبِيَائِكَ فَإِنَّمَا أَنَا عَبْدُكَ وَفِي قَبْضَتِكَ).
إِذَا غَدَوْتَ إِلَى عَرَفَةَ فَقُلْ وَأَنْتَ مُتَوَجِّهٌ إِلَيْهَا:

(اللَّهُمَّ إِلَيْكَ صَمَدْتُ وَإِيَّاكَ اعْتَمَدْتُ وَوَجْهَكَ أَرَدْتُ أَسْأَلُكَ أَنْ تُبَارِكَ لِي فِي رَحْلَتِي وَأَنْ تَقْضِيَ لِي حَاجَتِي وَأَنْ تَجْعَلَ لِي مِمَّنْ تَبَاهِي بِهِ الْيَوْمَ مَنْ هُوَ أَفْضَلُ مِنِّي) ، ويستحب يومئذ الذكر والدعاء مطلقاً .

المسألة الثانية عشرة : حد منى من العقبة إلى وادي محسر، ومنى جزء من الحرم، وبينها وبين مكة نحو ستة كيلا، وبين منى والمشعر كذلك وهو أيضاً جزء من الحرم، وعرفات خارجة عن الحرم، وتبعد عن البيت الحرام (٢٤) كم ، لذا فإن منى والمشعر أكثر فضلاً من عرفات لأنهما جزء من الحرم، وبين منى وعرفات نحو خمس عشرة كيلو متر.
نعم شرف الله عرفات بذكرها في القرآن وهي والمشعر بآية واحدة

بقوله تعالى ﴿فَإِذَا أَفَضْتُمْ مِنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِنْدَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (١)(٢).

ويوم عرفة هو التاسع من شهر ذي الحجة من كل سنة (٣)، فصحيح نسك بوقوف وفد الحاج على جبل عرفة إلا أنه عيد عبادي للمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها ، لذا يستحب صومه بأجماع المسلمين إلا من شغله الصوم عن الدعاء في عرفات .

وعرفات اسم مفرد وليس جمعاً .

ولهذه التسمية أسباب في تأريخ عقيدة التوحيد وصراع الناس مع الشيطان والغلبة عليه ، وقد ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (الحج عرفة) (٤)، لبيان موضوعية الوقوف والمكوث في موضع عرفات من زوال الشمس من اليوم التاسع في شهر ذي الحجة إلى غروبها . وكما في يومي العيدين ، وقد سمي العاشر من شهر ذي الحجة يوم الحج الأكبر .

الثانية : الحرمة الليلية كما في حرمة ليلة القدر ، قال تعالى ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا لَيْلَةُ الْقَدْرِ * لَيْلَةُ الْقَدْرِ خَيْرٌ مِنْ أَلْفِ شَهْرٍ (٥) أنها ليلة وبركة ، وصبيحة ويوم ليلة القدر مثل ليلته .

لتكون ليلة القدر من شعائر الله ، وهي مناسبة للإجتهاد في العبادة ، ومنها ليلة النصف من شعبان وفي قوله تعالى ﴿فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ﴾ (٦) المراد

(١) سورة البقرة ١٩٧.

(٢) أنظر رسالتنا الموسومة مناسك الحج ص ١٦٨.

(٣) أكتب هذه السطور على جبل عرفة في اليوم التاسع من شهر ذي الحجة سنة ١٤٤٠ هجرية بفضل ولطف من الله .

(٤) الكشف والبيان ٣٨٢/١.

(٥) سورة القدر ١-٣.

(٦) سورة الدخان ٤.

ليلة القدر ، وورد عن ابن عباس أنه قال : (أن الله عز وجل يقضي الأفضية في ليلة النصف من شعبان ويسلمها إلى أربابها في ليلة القدر)^(١).
الثالثة : الحرمة الأسبوعية كما في يوم الجمعة وقديسيته في السموات والأرض ، وتشريع صلاة الجمعة فيه التي لا يؤتى بها إلا مرة واحدة في الأسبوع وعند الزوال من ظهر يوم الجمعة .

وقد ندب الله عز وجل المسلمين لأدائها ، قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نُودِيَ لِلصَّلَاةِ مِنْ يَوْمِ الْجُمُعَةِ فَاسْعَوْا إِلَىٰ ذِكْرِ اللَّهِ وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾^(٢) إن التعدد في مصاديق الحرمة والقدسية لبعض أيام السنة شاهد على أن الله عز وجل هو الغني وأن الناس فقراء إلى رحمته محتاجون للنهل من الفيوضات الزمانية والمكانية لما فيه خيرهم في الدنيا والآخرة.

الرابعة : الحرمة الشهرية : بأن الحرمة والقدسية لشهر كامل يقع بين هلالين أو أكثر ، وكل فرد منها من شعائر الله لأنها من الأفراد غير الارتباطية ، وهي على شعبتين :

الأولى : قدسية شهر واحد من بين شهور السنة كما في شهر رمضان ، وهو الشهر الوحيد الذي ذكر بالاسم في القرآن ، قال تعالى ﴿شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَبَيِّنَاتٍ مِّنَ الْهُدَىٰ وَالْفُرْقَانِ﴾^(٣).

الثانية : من شعائر الله حرمة الأشهر المتعددة وهي على شعبتين :

(١) الكشف والبيان ١٤/١٦٢.

(٢) سورة الجمعة ٩ .

(٣) سورة البقرة ١٨٥.

الأولى : الأشهر الحرم فمن إعجاز القرآن وتفضل الله بالعناية بالتباين بين الأيام والأشهر ، وقدسية بعض الأشهر وجود أربعة أشهر في السنة تسمى الأشهر الحرم وهذه التسمية من عند الله لتأكيد حاجة الناس إليها ، قال تعالى ﴿إِنَّ عِدَّةَ الشُّهُورِ عِنْدَ اللَّهِ اثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِي كِتَابِ اللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ مِنْهَا أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَتِيمُ فَلَا تَظْلُمُوا فِيهِ أَنْفُسَكُمْ وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ ﴾ (١) وهذه الأشهر الحرم ثلاثة سرد متصلة وهي شهر ذو القعدة وذو الحجة ومحرم ، وشهر منفصل وهو شهر رجب .

ويدل ذكر شهر رمضان بالاسم والأشهر الحرم بالصفة على ضرورة ضبط المسلمين لرصد الأهلة وضبط الشهور ، واسماءها ، قال تعالى ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَهْلِ قُلْ هِيَ مَوَاقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ اتَّقَى وَأَتَى الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا وَأَقْوَا لِلَّهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ (٢).

ومن خصائص الأشهر الحرم حرمة القتال وسفك الدماء فيها ، وهو من مصاديق احتجاج الله عز وجل على الملائكة حينما قال ﴿إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ (٣) فالأشهر الحرم أربعة أشهر من أشهر السنة ، وهي مناسبة للصالح والوئام ، وقبول الديات وإدراك قانون وهو منافاة سفك الدماء مع الفطرة الإنسانية ، وفيها ضبط للنفس ومنع من المناجاة بالغزو أو الغدر أو القتل غيلة ، ونبذ قهري للقتل والقتال .

(١) سورة التوبة ٣٦.

(٢) سورة البقرة ١٨٩.

(٣) سورة البقرة ٣٠.

لقد توارث العرب حرمة الأشهر الأربعة من أيام إبراهيم لتكون وعاءً زمانياً ليقوم النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بالتبليغ والدعوة إلى الله عز وجل في ثلاث عشر سنة في مكة خصوصاً في موسم الحج في شهر ذي القعدة وذي الحجة إذ أنها من أشهر الحج والأشهر الحرم ، إذ يتوافد رجال القبائل لأداء مناسك الحج في مكة ، وسيأتي التفصيل في (قانون الإعجاز في مقدمات بعث النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم).

الثانية : من شعائر الله أشهر الحج إذ ذكرها الله على نحو التعيين بقوله تعالى ﴿ الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَاتٌ فَمَنْ فَرَضَ فِيهِنَّ الْحَجَّ فَلَا رَفَثَ وَلَا فُسُوقَ وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ يَعْلَمْهُ اللَّهُ وَتَزَوَّدُوا فَإِنَّ خَيْرَ الزَّادِ التَّقْوَىٰ وَاتَّقُونِي يَا أُولِيَ الْأَلْبَابِ ﴾ ^(١).

وإذا كان الجدال منهيّاً عنه في أشهر الحج فمن باب الأولوية النهي عن الغزو والقتال وأسباب الخصومة ، لتكون أشهر الحج مناسبة لنشر شأبيب المودة بين الناس جميعاً ، والتسليم بالعبودية لله عز وجل ، ومن أفراد ورشحات هذا التسليم التنزه عن قول ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ﴾ والنفرة العامة من الذين يقولونه .

وهو من مصاديق قوله تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَالَمِينَ﴾ ^(٢) وإذا كانت الشعائر المكانية عامة وتخص شطراً من المسلمين كما في الذي لم يأت إلى مكة لأداء الحج فإن الشعائر الزمانية أعم وأشمل إذ أنها تتغشى أقطار الأرض كلها ، وهو من مصاديق ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا﴾ ^(٣)

(١) سورة البقرة ١٩٧.

(٢) سورة الأنبياء ١٠٧.

(٣) سورة المائدة ١٨.

وأفراد الزمان الطولية من ملك الله ، لا يشاركه فيه أحد وورد لفظ الشعائر في القرآن أربع مرات ، وهي :

الأولى : قال تعالى ﴿إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ﴾^(١).

الثانية : قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ وَلَا أَمْتِينَ الْبَيْتِ الْحَرَامِ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنْ رَبِّهِمْ وَرِضْوَانًا وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَاَنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾^(٢).

الثالثة : قال تعالى ﴿ذَلِكَ وَمَنْ يُعْظَمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ﴾^(٣).

الرابعة : قال تعالى ﴿وَالْبُدْنَ جَعَلْنَاهَا لَكُمْ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ لَكُمْ فِيهَا خَيْرٌ فَاذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَيْهَا صَوَافٍ فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ كَذَلِكَ سَخَّرْنَاهَا لَكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾^(٤).

(١) سورة البقرة ١٥٨.

(٢) سورة المائدة ٢.

(٣) سورة الحج ٣٢.

(٤) سورة الحج ٣٦.

لقد جعل الله عز وجل علامات ودلالات في الأرض والسماء تدل على أنه وحده الخالق للكون ، والذي يتولى حفظه وتعاهد حركة الكواكب والأفلاك .

، وأن هذا الكون يجري بنظام دقيق فيضمن إصلاح الناس لعبادته تعالى ، وكل شعيرة مناسبة لإستحضار ذكر الله عز وجل ، وفرصة زمانية ومكانية للتوبة والإنابة والدعاء ، وسؤال الرزق الواسع الكريم .

وتخصص الدول والمنظمات الدولية يوماً مخصوصاً لموضوع وقضية ما ، يكثف فيه النشاط والعمل لبيان معانيه ، وجلب المنافع ودفع المفاسد ، وقد سبقهم التنزيل قبل ألف وأربعمائة وأربعين سنة بأن خصص يوماً للتعارف بين المسلمين يتقوم بالإجتهاد بالدعاء والنسك^(١) .

وهل استقرأت بعض الدول والمنظمات فكرة تخصيص يوم من السنة لموضوع مخصوص من التنزيل ، الجواب نعم ، مع الفارق وهو أن اليوم الذي يرد ذكره في القرآن والسنة ، يتصف العمل فيه بالتقوى ، فيه الأجر والثواب .

قانون الأذى المشترك بين الأنبياء

لقد أخبرت الآية قبل السابقة عن تفضل الله باجتباء واختيار عدد من اهل الأرض ليكونوا رسلاً للناس مع التباين في الجهة والأمة التي يبعث لها الرسول أو النبي كثرة وقلة في عدد الأشخاص والقرى والبلدان التي يبعث لها النبي .

ومن الفوارق بين النبي والرسول أن الرسول يأتي بشريعة مبتدأة ، وقال فاز النبي صلى الله عليه وآله وسلم بأن أرسله الله عز وجل للناس جميعاً أيام النبوة وما بعدها ، قال تعالى ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِّلنَّاسِ﴾^(٢) وهو

(١) أنظر رسالتنا العملية مناسك الحج ص ١٧٥.

(٢) سورة سبأ ٢٨.

من أسرار إنقطاع النبوة برسائله (عن أبي بن كعب عن النبي صلى الله عليه وآله وسلم قال : مثلي في النبيين كمثلي رجل بنى داراً فأحسنها وأكملها وأجملها وترك فيها موضع هذه اللبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ، ويقولون : لو تم موضع هذه اللبنة ، فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة .

وأخرج ابن مردويه عن ثوبان قال : قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : إنه سيكون في أمتي كذابون ثلاثون كلهم يزعم أنه نبي ، وأنا خاتم النبيين لا نبي بعدي^(١).

ومن خصائص الأنبياء ملاقة الأذى ، فليس من نبي إلا وقد جاءه الأذى من الناس بصفته كني ، أي لو لم يكن نبياً لما جاءه ذلك الأذى الذي هو على مراتب متفاوتة قوة وضعفاً ، لذا ورد عن النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أنه قال (ما أؤذى نبي مثل ما أؤذيت)^(٢).

ليان ضروب الأذى التي تعرض لها الأنبياء والأولى تأليف مجلدات خاصة بالأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بتفصيل وتقسيم تتعدد منه الترتيب الزمني في الأذى الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم من جهات :

الأولى : الأذى الذي لاقاه النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم من حين ولادته يتيماً .

الثانية : إيذاء قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم بعد إعلانه نبوته ، وإبلاغه الناس الآيات والصور التي نزلت عليه ، ودعوته لهم للإيمان وهجران عبادة الأوثان .

(١) الدر المنثور ٨/١٧١.

(٢) تفسير البحر المحيط ٩/١٧٧.

الثالثة : إيذاء قريش للنبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم في أهل

بيته .

الرابعة : تعذيب قريش للمستضعفين من المسلمين والمسلمات .

الخامسة : إيذاء النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم أثناء صلاته في

البيت الحرام وإرادة خنقه وقتله .

السادس : حصار قريش لبني هاشم في شعب أبي طالب .

السابعة : استمرار الحصار لثلاث سنوات ، وكل يوم منها فرد غير

ارتباطي في الأذى وأسباب الضرر .

الثامنة : إرادة قتل النبي صلى الله عليه وآله وسلم في فراشه .

التاسعة : حمل النبي محمد صلى الله عليه وآله وسلم للطلب من

طائفة من أصحابه بالهجرة إلى الحبشة .

العاشرة : هجرة النبي صلى الله عليه وآله وسلم إلى المدينة .

الحادية عشرة : إرادة المشركين قتل النبي محمد صلى الله عليه وآله

وسلم في طريق الهجرة ، وجعلهم جعلاً لقتله أو القبض عليه وصاحبه في

الطريق ، وهذا الجعل ليس قليلاً إنما هو ودية قتيل لكل واحد منهما مما

يدل على أن قريشاً تعلم ما تؤدي إليه هجرة النبي صلى الله عليه وآله

وسلم ووصلوه إلى المدينة ، وفيها أنصار وأتباع له ومهاجرون وما سبقوه

من قريش وعموم أهل مكة .

الثانية عشرة : قيام قريش بتجهيز الجيوش لقتال النبي صلى الله عليه

وآله وسلم كما في معركة بدر وأحد والخندق .

وهل قول الجاحدين ﴿إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ﴾ كما في آية البحث

من الأذى الذي لاقاه رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم الجواب نعم ،

من جهات :

الأولى : إنه نوع مغالطة وجدال.

الثانية : فيه رد على أمر الله بالزكاة .

الثالثة : إظهار الجاحدين الإستخفاف بالتنزيل .

الرابعة : سعي الجاحدين لصد الناس عن دفع الزكاة ، وهل يختص الأمر بالزكاة ، الجواب لا ، إنما يريد الجاحدون نشر مفاهيم الريب لمنع الناس من أداء الفرائض والعبادات .

لقد حدث في تاريخ النبوة قتال ، بأن قاتل بعض الأنبياء ، كما ورد في قوله تعالى ﴿وَكَاذِبٌ مِّنْ نَّبِيِّ قَاتَلْ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾^(١) ولكن قتال هؤلاء هؤلاء الأنبياء أقل مدة وحدة من دفاع النبي صلى الله عليه وآله وسلم وكثرة المعارك التي خاضها هو وأصحابه . والأذى الذي لاقاه النبي صلى الله عليه وآله وسلم على نحو يومي وأعم من أن يختص بالقتال وساحات المعركة .

ولا ينحصر الأذى الذي يلاقيه الأنبياء بما يأتي من طرف المشركين ، فقد يأتي من قبل قومهم والمؤمنين برسالتهم خاصة عندما يستلزم اتباع النبوة التكليف ، ويلقون الأذى الشديد من قبل القوم المشركين .

كما ورد في قصة موسى عليه السلام وبني اسرائيل ﴿قَالُوا أَوْذَيْنَا مِنْ قَبْلُ أَنْ تَأْتِيَنَا وَمِنْ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَنْ يُهْلِكَ عَدُوَّكُمْ وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾^(٢) فقد لاقوا الأذى والضرر من فرعون وقومه قبل أن يبعث موسى عليه السلام .

(١) سورة آل عمران ١٤٦.

(٢) سورة الأعراف ١٢٩.

ردود كريمة على بعض الأجزاء الأخيرة من هذا السفر المبارك

- ١- سماحة الإمام شيخ الأزهر.
- ٢- سماحة العلامة الشيخ أ.د. مفتي جمهورية مصر العربية.
- ٣- الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي.
- ٤- سيادة رئيس المحكمة الاتحادية العليا .
- ٥- سيادة القاضي رئيس الادعاء العام .
- ٦- سيادة القاضي رئيس هيئة الإشراف القضائي.
- ٧- سيادة رئيس مؤسسة الشهداء
- ٨- الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب.
- ٩- كلية الإمام الاوزاعي للدراسات الإسلامية/ بيروت.
- ١٠- سعادة أ.د. مدير جامعة الملك فيصل/ المملكة العربية السعودية
- ١١- سعادة أ.د. مدير جامعة كردفان/ الجمهورية السودانية.
- ١٢- سعادة أ.د. مدير الجامعة الإسلامية/ المدينة المنورة.
- ١٣- سعادة أ.د. رئيس الجامعة العراقية.
- ١٤- سعادة أ.د. رئيس جامعة ذي قار / العراق.
- ١٥- سعادة أ.د. رئيس جامعة جدارا/ المملكة الأردنية الهاشمية.
- ١٦- سعادة أ.د. مدير جامعة الأمير عبد القادر/ الجمهورية الجزائرية.

بسم الله الرحمن الرحيم

٢٩ / ٥
٨ / ٤ / ٤٠

الأزهر
مكتبة الإمام الأكبر
شيخ الأزهر

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

وبعد.....

فلقد تلقيت بحمد الله رسالتكم الرقيقة وبها الجزء الحادي والخمسون في تفسير آية واحدة من سورة آل عمران من القرآن الكريم. نتضرع إلى الله العلي القدير أن يدهمكم العلم النافع وان يجعله في ميزان حسناتكم.

وشكر الله لكم حسن عملكم

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

شيخ الأزهر

مختصاً به

(الدكتور) محمد سيد طنطاوي

في: ١٣ من صفر ١٤٢٩ هـ

الموافق: ٢٠ من فبراير ٢٠٠٨ م

مصطفى عباس □

٦/١٩

بسم الله الرحمن الرحيم



المرجع الديني الشيخ/صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد،
فإنه ليسعدني أن أتقدم لسيادتكم بخالص الشكر والتقدير
والإحترام على تفضلكم بإهدائنا نسخة من الجزء الثاني والثمانين.
وأتمنى من الله أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية وأن يسبغ
عليكم نعمه ظاهرة وباطنه وان يوفقنا لما يحبه ويرضاه.
شاكرين لكم، ولكم تحياتي

أ. د. علي جمعة
مفتي جمهورية مصر العربية

ORGANISATION OF ISLAMIC COOPERATION
GENERAL SECRETARIAT

ORGANISATION DE COOPERATION ISLAMIQUE
SECRÉTARIAT GÉNÉRAL



OIC/CAB-01/2012 001010

جدة في: 23 FEB 2012

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي حفظه الله ورعاه
صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته...وبعد،

فقد تسلمنا بيد الشكر والتقدير نسخة من كتاب "معالم الإيمان في تفسير القرآن" الجزء التسعون- الآية ١٣٤ من سورة آل عمران، والذي تفضلتم بإهدائه إلى معالي البروفسور أكمل الدين إحسان أوغلي، الأمين العام لمنظمة التعاون الإسلامي، ويشرفنا أن نتقدم إليكم بجزيل شكرنا على جهودكم المتواصلة لتفسير أي الذكر الحكيم، فجزاكم الله عنا خير الجزاء وبارك فيكم وفيما تقومون به من جهد مبارك خدمة للإسلام والمسلمين.

وتفضلوا بقبول وافر الشكر والتقدير.

احمد القويطي

مستشار الأمين العام



بسم الله الرحمن الرحيم

كوٲ ماري عيراق

داد كاي بالآي ئيتتيجادي

العدد : ٥١ / مكتب / ٢٠١٩

التاريخ: ١٢ / ٥ / ٢٠١٩



جمهورية العراق

المحكمة الاتحادية العليا

مكتب رئيس المحكمة

سماحة الشيخ صالح الطائي المحترم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

م/شكر وتقدير

تحية طيبة...

إشارة إلى كتابكم المرقم (١٩/١٠٣٥) المؤرخ ٢٠١٩/٥/٦ .
تسلمنا ببالف الإعتزاز إهدائكم نسخة من كتابكم الموسوم ((معالم
الإيمان في تفسير القرآن، الجزء الثمانون بعد المائة)).
نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية.
مع فائق التقدير

القاضي

مدحت المحمود

رئيس المحكمة الاتحادية العليا

٢٠١٩/٥ / ١٢

بسم الله الرحمن الرحيم

جمهورية العراق

مجلس القضاء الاعلى

رئاسة الادعاء العام

المكتب



العدد /

التاريخ / ٢٠١٩ / ٨

مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي

م/شكر

تحية طيبة

كتابكم ذي العدد ١٩/٢٣ المؤرخ في ٢٠١٩/١/٢.

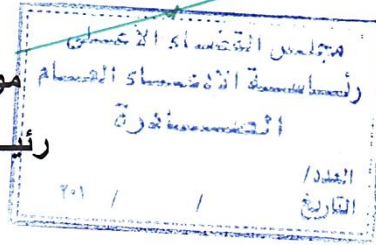
استلمنا هديتكم (الجزء الخامس والسبعين بعد المائة من تفسير
القرآن الكريم) ونقدم لكم شكرنا آمليين منكم المزيد من العطاء
والتوفيق.
مع التقدير.

القاضي

موفق محمود محمد صالح

رئيس الادعاء العام

٢٠١٩/١/٨



بسم الله الرحمن الرحيم

العدد / ٨ / مكتب / ٢٠١٩ / ١٧٩٣
التاريخ / ١٢ / ٥ / ٢٠١٩



جمهورية العراق
مجلس القضاء الأعلى
رئاسة هيئة الإشراف القضائي
مكتب رئيس الإشراف

الى / سماحة الشيخ (صالح الطائي) المحترم
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

م / شكر وتقدير

تلقينا ببالغ الإعتراز كتابكم الموسوم ((معالم الإيمان في تفسير القرآن، الجزء الثمانون بعد المائة)).
وكانت الهدية بواسطة السيد ((عبد الله الشيخ صالح الطائي)).
نقدم شكرنا وتقديرنا متمنين لكم دوام الموفقية .
مع فائق التقدير .

القاضي
جاسم محمد عبود



رئيس هيئة الإشراف القضائي

٢٠١٨/١٢/١١

كۆماری عێراق
Republic of Iraq
 سه روکایه تی نه نجومه نی وهزیران
Presidency of Ministers
 دهزگای شه هیدان
Foundation of Martyrs



جمهورية العراق
رئاسة الوزراء
مؤسسة الشهداء

العدد: ١٠٠٠ / ٢٠٣

نُورُ الشُّهداء أمانةٌ في أعناقنا

التاريخ: ٢٠١٩ / ٥ / ٢٢

مكتب رئيس المؤسسة

إلى/سماحة آية الله العظمى المرجع الديني الشيخ (صالح الطائي) "أدام الله ظله"
 م/ شُكر وتقدير

تحية طيبة

في الوقت الذي نبارك لكم الإشراف المنيعة لكتابكم (معالم الإيمان في تفسير القرآن الكريم) الجزء الحادي والثمانين بعد المائة الآية (١٧٩) سورة آل عمران. فأنا نتقدم بالشكر الجزيل لكم على إتاحتنا بهذا السفر القيم داعين المولى تعالى أن يمن عليكم بالسداد والتوفيق.

ناجحة عبد الأمير الشمري
 رئيس مؤسسة الشهداء
 ٢٠١٩/٥/٢٩



Arab League
Union of The Arab
Historians
General Secretary



جامعة الدول العربية
اتحاد المؤرخين العرب
الأمانة العامة

العدد: ت/١٥٣
التاريخ: ٢٠ رمضان ١٤٣٩ هـ
الموافق: ٢٠١٨/٦/٥
هجري
ميلادية

إلى/ سماحة المرجع الديني للمسلمين الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
أستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق
م/شكر وتقدير

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته :
وأسأل الله تعالى ان يوفقكم ويحفظكم ويرعاكم انه سميع مجيب الدعاء.
عزيزي سماحة الشيخ المحترم :

تسلمت مع بالغ الشكر وعظيم التقدير والإمتنان هديتكم القيمة والمتمثلة في
الأجزاء (١٦٠-١٦١-١٦٤) من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) ان ولوجكم في
هذا الميدان العلمي من التأليف في تفسير القرآن العظيم يعيد الى الأذهان ذكريات
أولئك المفسرين العظماء الكرماء الذين خلدتهم التاريخ بإنجازاتهم العلمية
الوفيرة والنادرة ، وان هذا المؤلف الكبير هو من المؤلفات النادرة حقا في هذا
الزمن الشحيح في علماء التفسير بحيث اعاد الأمل الى نفوس العلماء وطلاب
العلم ، بان ميدان التأليف في هذا الفن العلمي انما هو رافد عظيم من روافد
الفكر الاسلامي الخالد والذي نفتخر ونعتز به ، وأسأل الله تعالى ان يسبغ عليكم
بوافر الصحة ونعمة العافية من اجل اكمال هذا المشروع العلمي الخالد كي نباهي
به الأجيال وكي نؤكد لكافة المسلمين ان هذا الاسلام يظل منبع للعلم والعلماء
من اجل ديمومة هذا العلم الخالد .

اكرر شكري وتقديري على كرمكم الأصيل باهدائكم هذه الاجزاء لنا ،
وأسأله تعالى ان يستمر عطائكم وتأليفكم بانجاز هذا المشروع التاريخي الخالد .
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته



الأستاذ الدكتور محمد جاسم المشهداني

الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

العميد/رئيس الهيئة العلمية لمعهد التاريخ العربي

والتراث العلمي للدراسات العليا



بسم الله الرحمن الرحيم

كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية

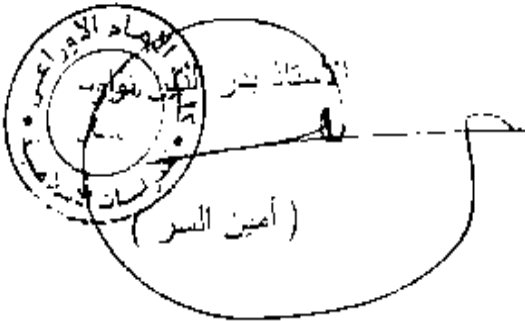
بيروت في ٩/ربيع الأول/١٤٤٠هـ

الموافق ٢٤/١١/٢٠١٨م

سماحة المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم
صاحب أحسن تفسير للقرآن
مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تتقدم كلية الإمام الأوزاعي للدراسات الإسلامية بأطيب تمنياتها،
وتشكركم على الجزء (١٧١) الذي وصلنا من جانبكم من كتاب: "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" والذي يتضمن قراءة في آيتين من القرآن بما يدل
على أن النبي (ص) كان لا يسعى إلى الغزو ولم يقصده ولم يدع إليه.
آملين الإستمرار في إرسال الأجزاء التي ستصدر منها مستقبلاً،
شاكرين لكم حسن تعاونكم الدائم معنا وداعين الله تعالى أن يوفقنا
وإياكم لما فيه خير الإسلام والمسلمين.
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.



KINGDOM OF SAUDI ARABIA
Ministry of Higher Education
KING FAISAL UNIVERSITY
(037)



الجامعة الإسلامية العالمية
وزارة التعليم
جامعة الملك فيصل
(٠٣٧)

الموضوع:

الموقع فضيلة الشيخ/ صالح الطائي

مكتب المرجع الديني وصاحب أحسن تفسير للقرآن

وأستاذ الفقه والأصول والتفسير والأخلاق

ص.ب - ٢١١٦٨ مملكة البحرين

السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد

تلقيت بكل الثناء والتقدير خطاب فضيلتكم رقم ١٦/١٨٦١
وتأريخ ٢٠١٦/٥/٢٠م المرفق طيه نسخة من كتاب بعنوان "معالم
الإيمان في تفسير القرآن" الجزء الثاني والثلاثين بعد المائة.

يطيب لي ويسعدني أشكر فضيلتكم جزيل الشكر على إهتمامكم
المتواصل بتزويد إدارة الجامعة بهذه النسخة ، وستحال إلى مكتبة
الجامعة للإطلاع عليها، سائلاً المولى جلت قدرته للجميع التوفيق
والسداد.

وتقبلوا خالص تحياتي وتقديري،،،

مدير الجامعة

د. عبدالعزيز بن جمال الدين السعاتي



بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

جامعة كردفان UNIVERSITY OF KORDOFAN

Our Ref:
Date:

مكتب المدير
Vice Chancellor Office

الرمز: ... ج ك/م م/١٧/ح/٣
التاريخ: 2016/8/16 م

السادة/ مكتب المرجع الديني
الشيخ صالح الطائي
صاحب أحسن تفسير للقرآن

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته

تهديكم جامعة كردفان أطيب التحايا ، وتغمرنا السعادة بالإصدارات التي تتوالى إلينا بانتظام من مكتب المرجع الديني في (معالم الإيمان في تفسير القرآن) والذي كان آخر هذه الإصدارات (الجزء السادس والثلاثين بعد المائة) والذي تشرفنا بإستلامه بموجب خطابكم رقم ١٦/١٥٣٥ الصادر في ٢٠١٦/٧/١٣ م، وذلك إثراءاً للمعرفة في مجال تفسير آيات القرآن، خدمة للباحثين والمهتمين بأمر التفسير القرآني، والتي أضحت متاحة في الأقسام المختصة بالمكتبات الأكاديمية في الجامعات ومراكز البحوث وجامعة كردفان تحظى بأعداد وافرة منها في مكتبها المركزية.

ختاماً لكم الشكر والعرفان على هذا الصنيع، نفعلنا الله به، وأثابكم عليه خير الجزاء .

وتفضلوا بقبول فائق عبارات التقدير والإحترام

أ.د. أحمد عبد الله عجب الدور

مدير الجامعة



الرقم ١١٤٦ / ٧ / ٢٠١٥
التاريخ ١٠ / ٢ / ١٤٣٧ هـ
الملاحظات
الموضوع



الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة
وزارة التعليم العالي
إمارة المنطقة الشرقية
مكتب المدير
(٠٣٢)

معالي الشيخ/ صالح الطائي سلمه الله
السلام عليكم ورحمة الله وبركاته... وبعد

فأسأل الله لمعاليتكم العون والتوفيق، ويسرني إفادتكم بأني تلقيت بكل تقدير وإمتنان إهداءكم للجامعة نسخة من الجزء التاسع بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن).

ولاني إذ أتقدم لمعاليتكم بخالص الشكر والعرفان على هذا الإهداء، لأدعو الله العلي القدير أن يمدكم بعونه وتوفيقه، وأن يسدد خطاكم ويكمل أعمالكم بالنجاح إنه سميع مجيب يحفظكم الله ويرعاكم.

ولكم تميّاتي وتقديري
والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

مدير الجامعة الإسلامية

أ. د / عبدالرحمن بن عبدالله السند

MINISTRY OF HIGHER EDUCATION
& SCIENTIFIC RESEARCH
THE IRAQIA UNIVERSITY
THE PRESIDENT OFFICE OF UNIVERSITY



وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
الجامعة العراقية
مكتب رئيس الجامعة

NO.:

DATE: / / 201

العدد: ٢٩٢ / ١
التاريخ: ٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م
١٤٣٧ / ١ / ١٠ هـ

المرجع الديني الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن

تحية طيبة...

نشكر مبادرتكم الطيبة بإهداءكم لنا نسخة من كتابكم الموسوم الجزء
الثلاثون بعد المائة من (معالم الإيمان في تفسير القرآن) سائلين الباري عز
وجل أن يوفقكم في مسيرتكم العلمية والعملية خدمة لبلدنا العزيز.
ومن الله التوفيق...

أ.د. علي صالح حسين

رئيس الجامعة العراقية

٢٠١٦ / ٤ / ١٠ م

Republic of Iraq
Ministry of Higher Education and Scientific Research
University of Thi- Qar
Bureau of University President



جمهورية العراق
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة ذي قار
مكتب رئيس الجامعة

العدد: ٦٨٩٠ / ٥٤ / ٧

التاريخ: ٢٠١٦ / ٦ / ٨

إلى / مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي

صاحب أحسن تفسير للقرآن

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

باعتراز بالغ واعجاب شديد بالجهود الكبيرة لسماحة آية الله
العظمى الشيخ صالح الطائي (دام ظله) في تفسير كتاب الله
العظيم من خلال تلقينا اهداءكم المبارك للجزء (١٣٢، ١٣٣،
١٣٤) من معالم الإيمان في استظهار كنوز من كتاب الله المجيد،
سائلين المولى عز وجل ان يوفق الشيخ الجليل لما فيه خير الدنيا
والآخرة وخدمة الإسلام والمسلمين .

بسم الله الرحمن الرحيم
الحمد لله الذي هدانا لهذا...

أ.د. رياض شنته جبر

رئيس جامعة ذي قار

٢٠١٦ / ٦ / ٨

Jadara University

Office of the President



جامعة جدرا

مكتب الرئيس

Ref.

Date

الرقم ١١٢٢٠٨١٤٠

التاريخ ٢٠١٢/٥/٢٦

الموافق ١٠/٦/١٤٣٣

سبادة الأئمة الشيخ صالح الطائي المحترم

صاحب أحسن تفسير للقرآن الكريم

وأستاذ الفقه والأصول والأخلاق

بكل فخر واعتزاز تلقيت رسالتكم الموقرة التي تحمل العدد (٥٣٢) تاريخ ٢٦/٥/٢٠١٢م، ومرفقها الجزء التسعون من التفسير في الآية (١٣٣) من سورة آل عمران.

واني إذ أشكركم جزيل الشكر وعظيم الإمتنان على اهدائكم هذا، سائلاً المولى عز وجل أن يديم عليكم نعمة الصحة والعافية، وأن يجعلكم سنداً وذخراً للأمة الإسلامية متمنياً لكم كل التقدم والإزدهار.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

رئيس الجامعة

أ. د محمد الطعامة

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي



رئاسة الجامعة

قسنطينة، في: 2015/03/25

جامعة الأمير عبد القادر

للعلوم الإسلامية

قسنطينة

رقم... 498... / رج / 2014

إلى السيد المحترم / مكتب المرجع الديني الشيخ صالح الطائي صاحب أحسن تفسير للقرآن

تحية طيبة وبعد :

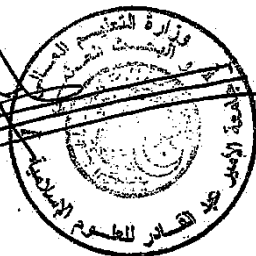
تلقينا نحن أ.د/ عبدالله بوخلخال مدير جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية قسنطينة، هديتكم القيمة المتمثلة في كتاب (معالم الإيمان في تفسير القرآن) الجزء الثالث عشر بعد المائة.

وإذ نعبر لكم عن شكرنا على هذه الإلتفاتة الكريمة، نهديكم نحن بدورنا نسخة من مجلة الجامعة العدد ٣٣ ونسخة من نشرة أخبار الجامعة.

تقبلوا فائق الاحترام والتقدير.

مدير الجامعة

أ.د. عبدالله بوخلخال



الفهرس

الصفحة	الموضوع	الصفحة	الموضوع
٣	المقدمة	١٥١	من ثواب العبادة
٤٦	الآية ١٨١	١٥٩	صلة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بآول ووسط آية البحث
٤٦	في سياق الآيات	١٦٩	الصلة بين ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ وبين خاتمة آية البحث
٧٧	بحث عقائدي	١٧٨	قارات الأرض
٨٣	الزكاة عقيدة ومنهاج	١٨٩	صلة ﴿وَلِلَّهِ مِيرَاثُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ بآية البحث
٩٢	قانون تحقق التدبر طوعاً وقهراً	٢٢١	التقوى ميراث
٩٦	بحث كلامي	٢٣١	تقدير لقد نصركم الله بيدر
٩٨	مما يحى بالزكاة	٢٣٤	لفظ الناس وآية البحث والسياق
١٠٨	بحث فقهي	٢٣٨	صلاة النبي في البيت
١١٠	الترغيب بدفع الزكاة	٢٤١	قانون الزكاة رحمة عامة
١١١	أداء الزكاة نعمة	٢٥٠	قانون محو الله الموانع عن فعل الخير
١١٧	بحث كلامي	٢٥٩	قانون خاتمة الآية مدخل للآية التالية
١٢٤	مسائل	٢٧٠	قانون سعة قدرة وسلطان الله
١٢٦	قانون آية البحث حفظ للنبي	٢٨٢	من الشعائر مكانية وزمانية
١٣٢	قانون قبح الظن الخاطئ	٢٨٣	مسائل في المواقيت
١٣٧	لغة الطير	٢٩٨	قانون الأذى المشترك بين الأنبياء
١٤٢	الجوار بين آية البحث السياق	٣٠٢	ردود كريمة
١٤٨	من معاني اسم الخبير	٣١٩	الفهرس

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

٣٩٤٦ لسنة ٢٠١٩